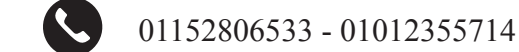
رواية

أناييس

الطبعة الأولى
1441 هـ
2020 م

اسم الكتاب: أنابيس
التأليف: كوثر مصطفى
المراجعة اللغوية: عبد القادر أمين
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 328 صفحة
عدد الملازم: 20.5 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2019/ 25830
الترقيم الدولي: 978-977-278-792-0





elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714



رواية

أنايبس

كوثر مصطفى





عزيزي القارئ ..

أهدي هذه الأسطر من كلّ قلبي، وأعماقِ فؤادي لكَ وحدك

....

قدْ لا تتسنّى لي الفرصة أنْ أتواجدَ بالمعرض عند شرائك للرّواية؛ لذا أتركُ لكَ خانةً من النّقاط المتتالية لتخطّ عليها اسمك بالكامل، وحتّى لا أحرِمَ نفسي من شرفِ ومتعةِ إمضاء نسختك.

واعلمْ- مُسبقًا- أنّ الحياة مليئة بالتّجارب القاسية، والدّروس الثمينة، والجدليّات المتناقضة.. وأنّ الحياة تدفعنا أحيانًا إلى الاستغناء عن الفواصل، وتحديد نقاطِ النّهاية دفعًا ورغماً عنّا..

في النهايةا أتمنّى لكَ رحلةَ قراءةٍ ممتعةا وشيّقة بين سطور..

أناييس

كوثر مصطفى



كلمة المؤلفة

أشعرُ برغبةٍ جامحة في الكتابة.. ولكنّني عاجزة.

أحاولُ وأحاول دونَ جدوى.. صراعٌ بداخلي بين جيوشٍ من الأفكار والمعاني التي تريد الانْعتاقَ والخروجَ إلى النّور.. وبين ترسانةٍ من المفردات والأبجديّات التي تأبى ترجمتها.

أعيشُ حالةً من الأنا واللّا أنا.. حالة من التمزّق لا تعرف فيه إحداهُما الأخرى.

كامرأةٍ حُبْلى يجتاحُها المَخاضُ بين الحين والآخر، تنبضُ الكلماتُ بداخلها وتعصفُ بها؛ لكنّها لا تخرج!

وصارت الكلماتُ تهتزّ بذهني كفتاةٍ غجريّة ترقصُ في قلب الصّحراء شبه عارية، حافية القدمين، على إيقاع حروفٍ تدقّ في رأسي كطبولِ الحرب، ولكنّها تنكسرُ قبل أنْ ينتهي عزفُ لَحْنِها...

ترقصُ على أطرافِ أصابعها في جنونٍ.. بشَعْر مجعّد مُبَعثر، تمامًا كالمعاني المبعثَرة بداخلي، ترمقُ دائرةَ الوحوش المحيطة بها، التي تنتظر لحظةَ إعيائها وسقوطِها لتهجم عليها وتفترسَها بكلّ وحشيّة، بينما تحاولُ هي المقاومة،

وتواصل رقصتَها المجنونةَ أو المذبوحة، وتسترِقُ النّظرَ بحثًا عن مَخْرج للخلاص، تمامًا كما تبحثُ المعاني المسجونةُ بداخلي عن كلماتٍ تعتقها، أو قاموسِ مفرداتٍ يلدُها.. فأصبحتِ الكتابةُ أشبهَ بجنينٍ بداخلي في حالةِ احتضارٍ يُصارع من أجل البقاء... من أجل الولادة....

ولادة رواية.

***

إهداء ا

مِن آدمَ إلى أمل

اذْكريني.. ويومَ يشتدّ بك الشّوق؛ اكْتبيني.

الإمضاء/ آدم



إهداء ٢

مِن أمل إلى آدم

لقدْ سقطَ قلبي من بين يديك، وتبعثرَ لأشلاء من زجاج، وها أنّا أتقدّم الآن متعثّرة، حافية القدمين، لا أشعرُ بالألم، ولا بلزوجةِ الدّماء، لا أشعرُ بشيء سوى بالقسوة..

لقد كان السّقوطُ مفْجِعًا، موجِعًا كمخاضِ الفَقْد.. في كتابة روايتي.

الإمضاء/ أمل



الفصلُ الأوّل

آدم



هو..

كان زوجَها وحبيبها، وكلّ شيء بالنسبة لها، وكانت نظرةُ عشق واحدةٍ من عينيه تختزل العالم بأسره وتجعلها أسعدَ نساء الكون، وكانت هي عشقَه المتمرّد، ومحورَ حياته، وكانت همسةٌ دافئة من شفتيها كفيلة بإضرام ثورةِ حواسّ بداخله..

ذاتَ خذلانٍ موجع تخاصما وتشاجرا، واحتدّ النقاش بينهما إلى حدّ الانفجار، حمل حقيبته ثمّ ودّعها ببعض الكلمات في برودٍ وسط عاصفة الصحراء، ورحل.

***

مرّت الأيامُ الطويلة والليالي الباردة وهو بعيدٌ عنها، كانت تفتقدُه في كلّ لحظة، تبكي وتحاول الاتّصال به، لكنْ دون جدوى، ورغم أنّه هو مَن أخطأ في حقّها، إلّا أنّها كانت تعلم في قرارة نفسها أنّه عنيد ومشاكس، وأنّ صلابته وكبرياءه تخفيان بداخله حبًّا فاق الخيال.

وفي ليلةٍ من تلك اللّيالي عادتْ بها الذاكرة إلى أيّام الوصال، وكان شريطُ حياتهما السعيدة القصيرة يمرّ أمامها بكلّ تفاصيله كومضاتٍ إخبارية أو إعلانات إشهاريّة عاطفية، وكأنّ الزمن النفسي لمشاعرها قد توقّف عندها، فاشتدّ بها الشوق والحنين وتخيّلته أمامها يعتذرُ منها ويطلب ودَّها.

***

كانت لا تزال هائمةً في ذكرياتها عندما مسحتْ دموعها وأخرجت دفترَ مذكّراتها وكتبت عليه مبتسمةً "لن يهزمَ البعدُ حنيني إليك يا حبيبي، سأنتظرُك كلّ ليلةٍ، ويومًا ما سوف تعود".

جهّزت نفسها كعروسٍ في ليلةِ زفافها، وارتدتْ فستانًا أسودَ طويلًا، فتحاته من الدّانتيل والشّيفون الفضّي اللامع لطالما عشقَه زوجها "آدم" كتحفةٍ فنيّة على جسدها. وضعت بسخاءٍ قطرات من عطْرها الفرنسي المفضّل لديه، رفعت شعْرَها الأشقر الطّويل من الأمام، وتركته ينسدلُ من الوراء ليغطّي ظهرَها مُداعبًا فتحات الفُستان.

وبعد بعضِ اللّمسات الجماليّة البسيطة وقفتْ أمام المرآة تتأمّل تلك المرأة الفاتنة التي بدأت خيوط العشق والجنون تداعبُ عقلها، وتتداخل فيه.

وضعتْ موسيقى فرنسية راقصة، وسافرَ جسدُها مع إيقاع الأنغام وروح الكلمات الرومانسية في خطواتٍ متناسقة، وفجأة رنّ جرسُ الباب، لم تنتبهْ في البداية ولكنْ مع إصرار صوت الجرس انتفضت من غيبوبتها الحالمة لتصيبها حالةٌ من الارْتباك والخوف، مَن عساه أنْ يأتيها في هذه الساعة المتأخّرة من اللّيل!؟

***

استرقتِ النّظر عبْر العين السّحرية للباب، وتدفّقت الدّماء في جسدها حين رأته يقفُ وراءه محاولًا ترتيب بعضِ خصْلات شَعْره بيديه إلى الوراء.

انتفضتْ حواسّها سعادة، إنّه وتينها، لقد شعر بشوقها إليه، لقد عادَ إليها، عادت مُسرعةً إلى غرفة نومها، وأشعلت بعضَ الشّموع المعطّرة بسرعة، وألقت نظرةً سريعة على جمالها وأناقتها، وابتسمت في ذكاء، لقد أحسنت الاختيار، إنّها تبدو رائعة، وقد انعكستْ أضواء الشّموع على الخيوط الفضية لفستانها، وزاد بريقُ عينيها العسليّتين، ستسحره اللّيلة بجمالها، ستقول له أنْ لا يتركها ويذهب مجدّدًا مهْما حدث بينهما، وإنّها تحبّه إلى درجة الجنون، إنّه زوجها الذي اختصر كلّ رجال العالم في شخصِه وقلبه وعشقه.

دارتْ كلّ هذه الحواراتُ الأحاديّة والمشاعر المشتعلة بداخلها في ثوان. زاد ارتباكها وهي تخطو باتّجاه الباب متخيّلة لحظات اللّقاء المتمرّد على ليالي البعدِ وعذابِ الشّوق إلى الوطن، نعمْ فهي وطنُه وهو دستورُها، ولا يستقيم أحدُهما بمنفى عن الآخر.

فتحتِ الباب بسرعة، وما لبثتْ أن تسمّرت مكانها، كان يقف أمام الباب منهكًا يبدو عليه التعب والإرهاق من شدّة الأرق وقلّة النوم، كانت عيناه حمراء كرجلٍ آليّ يصوّب نظراته إلى مقاساتها وتفاصيلها بسرعة في حركةٍ مستديرة، أفقيّة، عمودية، ثمّ يلقي بنظرةٍ إلى أضواء الشّموع المنبعثة من غرفةِ نومها المصحوبة بالموسيقى الهادئة، والتي بدأ إيقاعها فجأةً في التّسارع مع تصاعد أنفاسه في توتّر، ومع احتدادِ نظراته لاحظت ارْتعاشةً سرَتْ في جسده.

لم تستطع استيعابَ الأمر ولا المنظر، همّت بالكلام.. فكّرت أن تبادره بالسّلام كأنْ تقول له مثلًا "أهلًا حبيبي".. ولكنّه لم يعطِها أيّة فرصة للكلام،

وبادرها بصفعةٍ مدوّية على وجنتيها فقدتْ معها توازنَها كليًّا، ولم تسمعْ غير صوته المتوحّش لأوّل مرّةٍ وهو يزأر "أنتِ طالق".."أنت خائنة".. أنت، وهوتْ على الأرض فاقدةً الوعي.

***

بقي آدم ينظرُ إليها وهو يرتعدُ، ويداه ترتعشان،كأنّ سقوطها أمامه بتلك السّهولة قد هزمه في أوّل جولةٍ للحرب التي شنّها عليها.

بعد أنِ استسلمت طريحةَ الأرض أمامه لا حولَ لها ولا قوّة ركلَها بساقه مرّات ومرّات، وكأنّه يحاول بذلك إيقاظَها للمواجهة ودعوتَها إلى حلبة القتال، نعمْ.. لقد كان حينَها كثورٍ إسبانيّ هائج في حلبة مصارعة، وكلّما لمح الأضواءَ الحمراء المنبعثة من غرفة نومها ازدادَ جنونه وتوالت ركلاتُه.

ظلّ يصرخ ويصرخ دونَ جدوى، ثمّ دخل بعدها إلى المنزل متسمتًا هدفه باحثًا عن شريكها في الخيانة فلم يجدْ أحدًا، بحثَ عن دليل، عنْ أثر، عنْ تفاصيل، لكنّه لم يجدْ شيئًا غير دفتر مذكّراتها الذي كان ملقًى على السرير، والذي كانت قد خطّت عليه آخرَ أسطرها قبل أنْ تجتاحها نوبةُ الشّوق والحنين إليه.

تصفّحه بسرعة دون تمعّن، واستقرّ على آخر صفحةٍ كتب عليها "لن يهزم البعدُ حنيني إليك يا حبيبي، سأنتظرك كلّ ليلةٍ، ويومًا ما سوف تعود".

***

في الواقع، هو لم يتعوّد على رؤيتها هاويةً على الأرض منكسرةً تتخبّط في أنفاسها بصعوبة، فقد كانت شخصيّتُها قويّةً متمرّدة كفرس بريّ لم تروّض إلّا على يديه، كانت تقاوم كثيرًا، وتعشق الحروبَ وساحاتِ القتال معه، ولكنْ على طريقتها، فلكلٍّ منهما أسلحته وخططه.

وكثيرًا ما نزعت السّلاح عن خصْرها ورمت به أرضًا تعبيرًا عن استسلامها المثيرِ له، وكان هو يدمنُ خططها الحربية المبتكَرة كلّ ليلة لإغرائه والإيقاع به في بحرٍ من العشق الكافر الذي لا وطنَ له غير حضنِها.

لكن هذه المرّة كانت الحربُ مختلفةً، على الأقلّ من وجهة نظره..، ففي الوقت الذي فتحتْ فيه هي البابَ مُعلنةً حرب العشقِ والاستسلام للحبّ، أعلن هوَ حربَ الاعتداء عليها دون تردّد.

استفاقَ بعد لحظات مجنونةٍ من هستيريا البحث عن دليلِ الخيانة هنا وهناك على حقيقةٍ واحدة، وهي أنّها مازالت تحبّه بجنون، وأنّه متسرّع ومتهوّر.

وفي تلك اللّحظات، أسرع إليها واحتضنَها بقوّة محاولًا رفْع رأسها عن الأرض، والحديثَ معها دون جدوى، حاول رشّها بالماء والعطر، وغمرها بقُبُلاته وتوسّلاته كي تستفيق، لكن لا حراكَ لمن تنادي،

حملها بين ذراعيه، ووضعَها في السيارة، وانطلق يقودُ بجنون.

المسافة الفاصلةُ بين المنزل الذي يقعُ في "هانزا ألي" بمدينة "دوسلدورف" الألمانية، والمستشفى الموجودة بشارع "فريدريك شتراسا"، لم تكن طويلة؛

حيث كان يفصلُ بينهما فعليًّا "نهرُ الراين" الذي يشقّ المدن الألمانية في امتدادٍ ساحر.

ورغمَ ذلك فقد كان يتجاوز إشاراتِ المرور الحمراء، ويخترقها غيرَ مهتمّ بقوانين الطرقات وعواقب تجاوزها حتّى وصل إلى المستشفى.

وفوْر وصوله استلمها منه الأطبّاء والممرّضات بسرعة فائقة، أدخلوها غرفةَ الفحص، ومِن هناك إلى طابقِ العناية المركّزة على الفور.. بينما ظلّ هو يدعو الله أنْ يحفظها من أجله، وعيناه محاصرة بدموع النّدم.

ظلّ في قاعة الانتظار القريبةِ من غرفة العمليات يخيطها ذهابًا وإيابًا، وهناك، بدأ يستعيد نفسه تدريجيًّا، وعادت به الذّاكرة إلى يوم شجارهما، ولحظات رحيله من المنزل، وكيف أنّها رغم جمالها الطّفولي الساحر، وبعد ليلةٍ رومانسية حميمة، استطاعتْ يومها أن تنقلبَ عليه، وتستفزّه ببرودة ولّدت انفجارًا، لقد كانت تقتله بكلماتها وإيحاءاتها ولا مبالاتها، حتّى أنّه ظنّ في لحظةٍ فارقة أنّها لا تحبّه، وأنّها لم تحبّه يومًا، ثمّ تساءل في نفسه إنْ كانت قد شكّت بنزواته مع الأخريات، أو علمت شيئًا عنه، ولذلك السبب كانت تصرّ على الطّلاق يومها؟ أم أنّ سفره المتواصل بحكم عمله لبلدان أوروبّية كثيرة وابتعاده عنها لليالٍ مُتتالية هوَ ما جعلها تتمرّد عليه في محاولةٍ منها لاستعادة اهتمامه؟

***

ظلّ يفكّر في ما حدث ويتساءل.. ترى هل يحبّها إلى درجة الهوس؟ هل يغارُ عليها إلى درجة المرض؟ هل استفحلَ فيه عشقُها إلى درجة الشّك والتّخيلات؟ لقد أصبحَ يفكّر في قتلها وقتلِ أيّ شخص قد يفكّر في الاقتراب منها، واقتحام عالمها.

لطالما كانت عشقَه المتمرّد، كانت له الدّاءَ والدواء، الوصالَ والفراق، الرغبة والتمنع، باختصار كانت له الحياةَ والموت.

"الموت"، تكرّرت الكلمة بداخله، وانتبه فجأةً إلى وجود دماءٍ على قميصه، وعلى يديه من جرّاء التصاق جسدِها به.

وازداد توتّرُه حين رأى الدكتور يقترب منه مُنْقبض الملامح، ليقول له "آسف، تعازينا الخاصّة لك، لقد بذلْنا أقصى جهدنا لإنقاذها، ولكن... البقاءُ لله".

نزلَ عليه وقع العزاء كالصّاعقة، شعر بانقباضِ روحه للحظات، وسرتْ قشعريرة باردة في جسده معْلنةً عن انْطفاء الحياة بداخله.

تقدّم منه الدكتور بخطواتٍ ثابتة وسأله:

– هل أنت آدم زوجُ السيّدة "أمل" الحالة التي أحضرتها منذ ساعتيْن تقريبًا؟

أجابَه وقد بدأ يدخل في حالةٍ من الهستيريا، وفوضى الحواس:

– أجلْ أنا هو آدم، أنا المذنب. (وانفجر باكيًا)

كان الدكتور يحمل بيديه جُملةً من الملفّات، وأعلاها ورقة خطّ عليها "ملفّ أمل"، وكان يدوّن عليها أجوبةَ آدم، ثمّ واصل الدكتور بكلّ جديّة:

– أريد معرفة ما إذا كنت حينها تحتَ تأثير أيّ أدوية مهدّئة للأعصاب، أو موادّ مخدّرة، أو مشروبات كحوليّة، أو غيرها عندما اعتديت عليها بتلك الوحشيّة؟

أجاب آدم بأنفاسٍ متقطّعة، وصوتٍ محشرج، تكاد الكلمات تحتضرُ بداخله قبل النّطق بها:

– لقد أحببتها بجنون، وشككت أنّها تخونني ففقدتُ السّيطرة على نفسي، واعتديت عليها ضربًا ولكنّي لم أقصد إيذاءها إلى هذا الحدّ، فأنا لست مجرمًا.

ختمَ معه الدكتور الحوارَ بتعليمات موجزة:

– أطلبُ منك أن تتفضّل مع الممرضة إلى غرفة الفحْص لإجراء بعض التحاليل التي تؤكّد صحّة كلامك، وبعدها سترافقها إلى مكتبي حيث ينتظرُك هناك شرطيّان لأخذ أقوالك في محضر رسمي بالواقعة، ومواصلة الإجراءات اللّازمة، لقد اتّصلنا بِهِم منذُ قليل حالما انتهينا من الحالة.

شعر آدم بحالة من الغثيان وعدم التصديق، لقد توالت الأحداث بسرعة جنونية ليجد نفسه متورّطًا في جريمة قتلٍ كفيلة بإيداعه في السّجن بقيّة حياته، ودمار مستقبله، وموت حياته، أجلْ لقد كانت هي حياتَه، واليوم بموتها قد مات؛ أوَ ليست هي "الحياة والموت"؟

كان يتبع الممرّضة بخطواتٍ متثاقلة صعبتْ عليه معها ساقاه على حمل جسده المرهق، وما إنْ بدؤوا بإجراء الفحوصات والتحاليل، وأخذ عيّنات دم منه، حتى دخل في دوّامة من خيالات خانقة متزاحمة في عقله تصعقه من كلّ صوب، وبدأت الأحداث الماضية تتدفّق في ذهنه بسرعة؛ رنّ الجرس، سماع الموسيقى الهادئة، الأضواء الحمراء، الفستان الأسود الناعم، الضّرب، ثمّ الموسيقى الصّاخبة، ثمّ الرّكل، والدّماء على جسده، وصوتٌ يقول البقاء لله. وكان مفعولُ الحقنة المهدّئة آنذاك قد بدأ يسري في جسدِه ببطء.

***

انشغلتِ المرّضات ببعض الحالات الاستعجالية الأخرى، وعند تفقّده لم تجدِ المرمضة له أثرًا في غرفة الفحص. عمّت حالة سريعةٌ من الفوضى والبحث داخل المستشفى دون جدوى.

بعدها تمّ استجواب الممرضة، فأخبرت بدوْرها الدكتور والشّرطيّان أنّ آدم دخل في غيبوبة هذيان وكان يقول بأنّه هو مَن قتل زوجته.

في حين أنّ السيدة "أمل" لم تمت، والحقيقة هي أنّها قد فقدتِ ابنتها التي كانت تحملها في أحشائها، لقد كانت السيّدة أمل حاملًا في الشّهر الرابع، وذلك الجنين الذي كانت تحمله في بطنها هو مَن ماتَ مجهضًا من جرّاء ركلاته العشوائية المتوحّشة على إثرِ نزيفٍ داخلي على مستوى الرحم. وأخبرتهم أنّه حالما استعادَ وعيه اختفى تمامًا.

في الأثناء، بدأت أملُ تستعيد وعيَها تدريجيًّا، وطلبت من الممرضة الاتّصال بصديقتها المقرّبة "بينار" وإخبارها بالحادث، وحالما سمعتْ بخبر سقوطِ جنينها دخلت مجدّدًا في حالة انهيارٍ عصبي حادّ.

فقدانُ ابنتها لم يكنْ بالأمر الهيّن، ومقتلها على يدِ والدها كان بالنّسبة إليها القطرةَ التي أفاضت الكأس، وجعلتها تقسمُ على الانتقام، ولكن هذه المرّة على فوّهة بركان.

بعد إعطاء أمل حقنةً مهدّئة قرّر طاقم الأطباء أنّ حالتها النفسية متدهورة وحرجةٌ للغاية تستوجب تدخّل طبيبٍ نفسيّ مختصّ في الغرض يباشر حالتَها عن قرب إلى أنْ تستعيد توازنها النفسي وثقتها بمَن حولها، ورشّحوا لها الدكتور "ماهر" ذلك الطبيب النّفسي الوسيم ذو الأصول العربيّة لتميزه وتألّقه في عمله، وبالفعل تمّ استدعاؤه لبدْء جلسات العلاج على الفور.

***

تزامنتْ هذه الأحداثُ مع وصول آدم إلى المنزل حيث اغتسلَ سريعًا ليزيل آثارَ جرمه الملتصق بجسده والذي سيبقى حتمًا عالقًا بضميره وروحه إلى الأبد، ثمّ غيّر ملابسه وزجّ ببعض الملابس والمستندات والأوراق المهمّة في حقيبة السّفر، وتأكّد من تواجد جواز سفَره والكروت البنكيّة، وغيرها بداخلها.

ثمّ وبيدٍ مرتعشة وضعَ صورَةَ أمل وفستانها الأزرق الملكي "لروبارتو كافالي" الذي كان هديتَه لها في عيد ميلادها الأخير، ليلة تألّقت به في الحفلة

كنجمةٍ ساطعة في سماء الحضور دونَ منازع، وبحركة عفويّة ضمّ الفستان إلى صدره كأنّه يعانقها، واستنشق رائحةَ العطر الإيطالي "غوتشي بلوم" بمزيج الزّهور التي ظلّت عالقة به، وأغمض عينيه للحظات، وكأنّه يتنزّه معها في حديقةٍ مُزهرة مليئة بنكهات الأسرار والعجائب، كانت دموعُه تنهمر بغزارة بلّلت أطرافَ الفستان.

هوَ لا يعلم إنْ كان في تلك اللحظة يحضنُ فستانها أم يحضنُها! كلّ ما كان يعلمه هو أنّه قد اشتاق إليها كثيرًا.. اشتياق الحيّ لحبيبه الميّت.

لمحَ دفترَ مذكّراتها ملقًى على السّرير، التقطه بفضول، وانفتحت صفحاتُه إثرَ سقوطه على الأرض على عنوان كبير "خياناتُ زوجي"، كان هذا العنوان بمثابةِ هزّة أرضيّة أوقفت دورانَ الدّم في شرايينه، تمالكَ نفسَه ودقّاتُ قلبه تكاد تخترقُ ضلوعه.. لكن.. لا وقت لديْه الآن لقراءة المذكرات، فالوقت يداهمُه، وتأخّرُه هناك ليسَ في صالحه، كما أنّ خطر القبض عليه يحدقُ به. وضع الدّفتر في الحقيبة مع بقية أشيائه، ثمّ انطلق مغادرًا.

أغلقَ هاتفَه الجوال، وترك سيارته أمام المنزل، ثمّ استقلّ سيارة أجرة إلى المطار للإقلاع في أوّلِ رحلة دونَ وجهة محدّدة، قبل أن يصدر أمرٌ أمنيّ عاجل بمنعه من السّفر، وخلال الطريق كانت جُملةٌ واحدة تفترسه بصوت (المرحومة) زوجته تتردّد في أذنيه "خياناتُ زوجي".

***



الفصلُ الثّاني

الدّكتور ماهر



كان الدّكتور ماهر جالسًا على مكتبه منهمكًا في كتابةِ تقرير عن حالة مريضةٍ سيسمح لها بمغادرة المستشفى بعد ولادةٍ قيصريّة مستعصية شارفتْ معها على لحظاتِ الموت، حيث ارتفع ضغطُ دمها خلال المخاض، وضغطَ الجنينُ على الكبد، كانت تلك الحالة "حمل مسموم"، عانت بعدَه الأمّ من حالةٍ نفسية سيئة للغاية، وتمكّنت من تجاوزها.

لم ينتبهْ لدخول الممرّضة ليزا التي وقفتْ تتأمّله كعادتها قبل أنْ تبادره بالكلام.

***

كانت ليزا مغرمةً بذلك العربيّ المتمرّد الجذّاب ذي العقد الثّالث، كانت تعشق كلّ تفاصيله؛ شعْرَه الأسودَ الناعم اللامع المرصّف إلى الوراء بدقّة سوى من خصلةٍ كانت تتمرّد على جبينه بين الحين والآخر كلّما انكبّ على الكتابة، وعينيه البنيّتين الداكنتين تلمعان كقطراتِ عسل مركز تغْريانك بلذّة التأمّل فيهما، والغوص في أعماقهما، وسبْر أغوارهما الغامضة، أنف مرسوم بدقّة مليء بالكبرياء والشّموخ، يعتلي شفتين مكتنزتين بعضَ الشّيء، متواطئتين مع سلسلةٍ من اللؤلؤ الأبيض، تشيان بتوثيق قُبُلات حارقة وفنون رسم ليست لها علاقةٌ بعلم النفس، ولكنّها تخترق أغوار النفس وتفجّر براكينها، وجسد رجولي مكتمل الإغراء والغرور.

هكذا كانت تراه ليزا فارسَ أحلامها الذي تطارده منذُ استلامه لمهامّه داخل المستشفى، بل وعرضت عليه نفسَها مرارًا وتكرارًا، وكان ردُّه دائمًا الرّفضَ القطعي في الانخراط أو التورّط بأيّة علاقة غير شرعيّة. وهكذا ظلّ الدكتور ماهر حلمَها المستحيل ورغبتَها المكبوتة.

***

تقدّمت منه بدلال، واستدارت خلفَ المكتب، وحاولت الاقترابَ منه وهي تمدّه بملفّ أمل، لكنّه نهرها، وطلب منها أنْ تلتزم بآداب التّعامل واحترام المسافة بينهما عمليًّا وشخصيًّا.

امتعضتْ لردّة فعله كالعادة وهي تغادر المكتب، ولكنّ صدّه لها في كلّ مرّة لم يزدها إلّا تعلّقًا وشغفًا به.

إنّها مثالٌ لتلك المرأة المطّاطية الرّخيصة التي كلّما صددتها وقذفتَ بها بعيدًا بكلّ قوّتك اصطدمت بهوانها ووضاعتِها، لترتدّ راكعة بين قدميك في ذلّ ومهانة.

دقّ بابُ المكتب، وأطلّت منه فتاةٌ تستأذن في الدخول، وبعد أن سمح لها قدّمت له نفسها:

– أنا بينار صديقة أمل، منعوني من زيارتها بعد أنْ أخبروني عن حالتها الصّحية والنفسية، وطلب منّي طبيبُها الاتّصال بك والتحدّث معك قبل أنْ أغادر.

صافحَها الدكتور ماهر، وأشار لها بالجلوس قائلًا:

– أنا آسف جدًّا لحالة السّيدة أمل، في الواقع وصلني ملفّها منذ ساعةٍ تقريبًا، ولم تتسنّ لي الفرصة للتعرّف إليها، فحالتها الصحيّة لم تستقرّ بعد، ولا يمكنني بدْءُ الجلسات النّفسية معها، وحتى أتمكّن من مساعدتها بأسرع وقتٍ أحتاجُ إلى دعم عائلتها.

نظرتْ إليه بينار بأسف، وقد دمعتْ عيناها قائلة:

– ليست لديها عائلةٌ هنا، بعد هروب زوجها يمكنك اعْتباري عائلتها، أنا عائلتها الوحيدة هنا بألمانيا.

عقدَ الدكتور ماهر حاجبيه مستفهمًا، ثمّ استطرد:

– هل يمكنك أنْ تحدّثيني أكثرَ عن أمل، وعنْ حياتها، أو على الأقلّ علاقتها بزوجها كيف كانت؟ أحتاج إلى الكثيرِ من المعلومات؛ فذلك سيفيدني كثيرًا في فهْم التّراكمات النفسية التي أدّت إلى هذا الوضع الانْهياري الحادّ؟

تردّدت بينار بعضَ الشيء، ثمّ لمعت عيناها فجأة وهي تجيبه:

– أعتقدُ أنّني لن أستطيع إفادتك في هذا الموضوع بقدْر ما ستفيدك به أمل نفسها.. حسنًا، أعلمُ أنّها قد كتبت قصّتها مع آدم في شكل رواية أوْ سيرة ذاتية لا أعلم بالضّبط تصنيفها، وأفكّر لعلّها تساعدك إذا قرأتها.

اتّسعت عينا الدكتور ماهر فجأة، وقد بدا اهتمامُه لهذا الأمر:

– هل هي كاتبة؟

ابتسمت بينار، وأجابت:

– كلّا، ولكنّها مهووسة بقراءة الرّوايات والكتابة، تكتب مذكّراتها وخواطرها، وقد كتبت قصّتها مع عشقِها الكافر آدم كما كانت دائمًا تسمّيه، ولكنّها لم تنتهِ من كتابتها بعد، كانت دائمًا تقول إنّ القدر يلاعبها، ولا يزال يحملُ لها الكثير من المفاجآت في جُعْبته.

بدتْ شبهُ ابتسامة على شفتيه وهو يُضيف:

– أحتاجُ إلى قراءة هذه القصّة في أسرع وقتٍ ممكن لو سمحتِ، أنا متأكّد أنّها ستساعدني على تحليل الوضْع النفسي لأمل أكثرَ من المعلومات التي قد تجود بها في حالتها هذه، ومبدئيًّا لا داعي لإخبارها باطّلاعي على كتاباتها إلى أنْ يحين الوقت المناسب لذلك.

ابتسمت بينار ابتسامةً حزينة، وختمت:

– ستكون بين يديْك في أسرع وقت، وسأظلّ على اتّصال دائم للاطمئنان عليها.. وإذا احتجت لأيّ معلوماتٍ إضافيّة لن أتأخّر.

صمتت بعدها بينار قليلًا، وقد بدتْ عليها بعضُ الحيرة فأضافت متسائلة:

– ولكنّني لم أفهم قصدَك كيف أنّ قراءتك لقصّتها مكتوبة ستفيدك أكثر من سماعك لما تريده من المعلومات منها شخصيًّا؟!

ابتسم الدكتور ماهر وقد لمعتْ عيناه بالذّكاء والخبث معًا:

– في الوقع أنّني فضلًا عن كوني طبيب نفسي ناجح والحمدُ لله، فأنا كاتبٌ روائي، أكتب باللّغتين الألمانية وخاصّة العربية..، لقد أتممت دراستي في بلدي قبل أن أواصل الدراسة هنا في تخصصي وأحصل على عقد عمل، لم يقف ذلك حائلًا دون تحقيق حلمي ككاتبٍ روائي، بل لعلّ ذلك ساعدني كثيرًا على الغوص في خفايا النّفس البشرية أثناء الكتابة، وقراءتي لكتابة أمل ستكشف لي خفايا وأبعادًا لن يدركها القارئ العادي، ستكشف لي روحَ الكاتب ونفسيته.

سكتَ قليلًا عندما لاحظ الدّهشة والحيرة على محيّاها، فضحك في هدوء قائلًا:

– إنّها أمورٌ معقّدة لا تشغلي تفكيرك بها.

***

مع نهاية آخر جلسةٍ نفسيّة لذلك اليوم، حرص الدكتور ماهر على حمْل قصّة أمل معه إلى البيت لقراءتها، والتي كانت بينار قد أحضرتها له بعد ساعاتٍ قليلة.

كان يسكن في شقّة متوسّطة الحجم في "إليزابيت شتراسا"، وهو شارع حيويّ قريب من المستشفى.

دخل شقّته ووضع حقيبة أوراقه على الأريكة، ثمّ اتّجه مباشرة إلى خلع ثيابه والارتماء في أحضان المياه السّاخنة لإزالة تعبِ يومٍ كامل من العمل.

وبعد أنِ انتهى، صنع لنفسه قهوةً سوداء وأخرج قصّة أمل، ثمّ جلس على الشّرفة يدخّن سيجارة وهو يتأمّل غلافها الذي كان عبارةً عن صفحةٍ سوداء تتوسّطها زهرة، وكتب عليها العنوانُ "أناييس".

استرخى في جلسته، قلّب الصفحة، وكانت عبارة عن إهداء من آدم إلى أمل، وبدأ القراءة بتركيز..

***

الجزءُ الأوّل

أنابيس



المقدّمة

هنا بمركزِ المسنّين بألمانيا، السّاعة تشير إلى الثالثة مساءً، انتهتْ فترة عملي الصّباحية، وسلّمت ملفّات السيدات مع التقارير اليومية، وملاحظاتي الخاصّة عن حالة النزيلات هنا.

أجلْ هكذا يحلو لي تسميتهم، فهنّ أقربُ إلى نزيلاتٍ بفندق خمس نجوم منه إلى دار مسنّين، مقارنة بما هو الحال عليه في بلداننا العربية.

هنا الحياة مختلفةٌ على جميع الأصْعدة، والتعاملُ مع المسنين ممتعٌ للغاية.

أعملُ بهذا المركز منذُ شهرين تقريبًا، بعد أنْ أنهيت فترةً تكوينية عمليّة دامت ثلاثَ سنوات بمستشفى في مدينةٍ أخرى تقدّمت بعدها للعمل مع شركة توظيفٍ خاصّة، ومنها انتقلت للعمل هنا في "هامبورغ".

ويعتبرُ هذا المركز مِن أرقى المراكز الموجودة بألمانيا، متفرّع إلى عدّة اختصاصات: جسدية، فكرية ونفسية..

توجد به أحدثُ المعدّات الطبية والرّياضية بمختلف أنواعها، وبرامج التّنمية الفكرية للمسنّات اللواتي فقدنَ ذاكرتهنّ وأصبْنَ بالزّهايمر. بالإضافة إلى العناية النفسيّة لمن تشعرنَ بالوحدة ولم تتقبّلنَ بعدُ فكرة الابتعاد عن الأهل وذكريات الماضي.. حتى أنّني صرتُ مع الوقت أعرف قصّة كلّ نزيلةٍ منْهُن.

تحيطُ بالمركز حديقة كبيرة، زُرعت بها أجملُ الورود والزهور لعلّ أجملها في نظري هي زهور التوليب السّاحرة المستوردة خصيصًا من "هولاندا".

بعد الانتهاء من عملي، أردتُ الصّعود إلى غرفتي لأخذ قسطٍ من الرّاحة، ولكن السيدة "إيفات" طلبتني شخصيًّا من الإدارة كي أتبادلَ معها أطراف الحديث كالعادة.

السّيدة "إيفات" هي سيدةٌ راقية، لديها ابنٌ وحيد سافرَ إلى أمريكا، أمّا هي فقد رفضت بشدّة الذّهاب معه رغمَ محاولاته العديدة لإقناعها والتي باءتْ جميعُها بالفشل، وأصرّت على البقاء هنا في مركز المسنّين.

هي تقول بأنّ هذا الوضع يسعدُها حيث كوّنت صداقاتٍ جديدةً، فضلًا عن الرعاية الكاملة.

طبعًا لو كنتُ أنا مكانها ربما فضّلت شراء فيلّا صغيرة، وعيّنت معينةً منزلية تحسنُ الطّبخ، ومرافقة تأنسُ وحدتي، وانتهى الأمر، لكنْ لكلٍّ حريةُ الاختيار.

فالسيدة "إيفات" بالذّات بصحةٍ جيّدة، ولا تعاني من مشاكل صحيّة معقدة، بل بالعكس هي ذكية ومتفائلة، تعشقُ الحديث عن مغامراتها وترْويها بتفاصيلها بكلّ فخرٍ واعتزاز، ولعلّها وجدت في صمتي مستمعةً جيّدة لقصصها المثيرة، ومع مرور الوقت تعلّقتْ بي كثيرًا.

ولا أنكر أنّني أيضًا تعلّقت بها، فهي طيّبة على ما يبدو رغم لهجتها الآمرة أحيانًا...

***

قبل أنْ أصعد إلى غرفتي الموجودة في الطّابق الثاني من جناح إقامةِ المرضات بالمركز، لمحت السيدة "إيفات" جالسةً على كرسيّها الهزّاز في الحديقة.

بدتْ لي من بعيدٍ مُستاءة بعضَ الشّيء، وحالما اقتربتُ منها بادرتني قائلة:

- لماذا تأخّرت يا أمل؟ لقد طلبتك منذُ ساعة!

أجبتُها:

- أعتذرُ لقد انشغلتُ بكتابة بعض التّقارير اليومية عن بعض الحالات.

ثمّ أضفتُ بدهاء كي أمتصّ غضبها:

لقد فكّرت في المجيء إليك بعد الانتهاء من هذه الأعمال الرّوتينية؛ لأنّ الحديث معك طويل وممتع، وأنا أفضّل الاستماع إليك باهتمام وتركيز، والاستمتاع بقصصك ومغامراتك دونَ أن تكون لدي ارتباطاتٌ أُخرى، أو أعمال عالقة تشغلُ تفكيري.

ابتسمتِ السّيدة "إيفات" بذكاء، ثمّ أردفت:

- تعجبني طريقتُك الدبلوماسية في امتصاصِ غضبي يا أمل، أنت فتاةٌ شابّة، ذكيّة جدًّا، وجذّابة للغاية، ولكنّك غامضة.

سألتُها وأنا أتصنّع بعض الاندهاش لكلامها:

- غامضة؟!!

في واقع الأمر أنا لم أستغربْ وصفها لي بالغموض، فأنا فعلًا كذلك. لا أتذكّر يومًا أنّني تحدثت لأحدٍ عن نفسي هنا سواء كانت زميلة أو صديقة أو حتّى نزيلة.

لطالما كنتُ كالكتاب المغلَق، أو كقصّة مؤلمة، صفحاتُها خطّت بحبرٍ سرّي، يصعب على المتصفح المبتدئ اكتشافُها وقراءةُ ما بين سطورها، لكنّ السّيدة "إيفات"لم تكن قطّ مبتدئة، وأقلّ ما يقال عنها أستاذة في مدرسة الحياة المتشعّبة.

أكّدت حديثها وكأنّها تتعمّد انتشالي من شرودي.

- أجلْ أنت غامضة، وتجتاحك مسحاتٌ من الحزن بين الحينِ والآخر، أرى في ابتسامتك سحرًا ووجعًا، وأرى في نضرةِ عينيك عندما تضْحكين تلك المقاومةَ الشّرسة للرغبة في البكاء.

أراكِ تبذلين مجهودًا خرافيًّا في العمل، وتتنقلين كالفراشة بين السّيدات ترغبين في إرضاء الجميع.. حتى أوقات فراغك تمضينها هنا داخل المركز تعْتنين بي، وكثيرًا ما أراك في شرفة غرفتك أو في الحديقة تكتبين..

توقّفت قليلًا، ثمّ أضافت:

- تُعطينني مساحات شاسعة للكلام. وتهبينَ نفسَك مساحاتٍ عميقة للصّمت، وكأنّك تهربين من شيء ما بداخلك.

رمَقَتني بنظرات فاحصةٍ عميقة، وكأنّها تحاول قراءةَ طالعي، أو تصفّح قصتي، ثمّ أضافت:

- لقد اطّلعت على ملفّ سيرتك العملية بإدارة المركز. أنت متفوّقة وذكية، وكان بإمكانك النّجاح والتفوّق في مجالات أفضل من التّمريض بكثير. وهذا لا يعني أنّني أنقص من قيمة عملك طبعًا، فلماذا هذا الاختيار؟!

لقد قرّرت اليوم أن نتبادلَ الأدوار أنا وأنت، وسأعطيك مساحاتٍ غير محدودة للكلام، فقط ثقي بي، وأخبريني عنْ وجعك، وتأكّدي أنّني لن أخذلك.

***

لا أنكر أنّ طلب السيدة "إيفات" قد فاجأني، وأصابني نوعٌ من الارتباك، شعرت أنّها تعرّيني شيئًا فشيئًا بأسئلتها واستنتاجاتها.

فأنا فعلا لم أكنْ تلك الفتاة الصّديقة للمسنين، فقط كنت أحترمُهم وأحسنُ معاملتهم، ولكني لم أكنْ أستطيع إطالةَ الحديث مع أحدهم في الماضي.

كنتُ أجد حكاياتهم غيرَ متسلسلة، ومملّة، وأحيانًا أعتبرها مضيعةً للوقت لا أستفيد منها بشيء. كنتُ أؤمن أنّه لكلٍّ الحقّ في خوض تجاربه والتعلّم منها، لا استخلاص الدّروس من تجارب الآخرين، فلكلّ بيئته وثقافته وعصره ومشاعره وأفكاره.. وفي النهاية الكلّ مسئولٌ عن قراراته.

بلْ لعلّني كنت سيئةً جدًّا إلى حدّ اعتبار تاريخهم المتقطّع عبر خيوط الذاكرة هذيانًا يُشعرني بالملل.

تمامًا عكسَ ما أشعر به الآن، فقد أصبحت أستمتع بالحديث معهم، وأستخلصُ العِبَر من تاريخهم، وأحترمُ ذكرياتهم؛ حلوها ومرّها. ولكنّني في المقابل لا أحترمُ ذكرياتي في جزءٍ مُظلم منها، أو الأحرى آخر تجربة لي مع الحياة؛ فقد كانت تجربةً مريرة وقاتمة، يلفّها السّواد من كلّ جانب.. تجربة مظلمة.. مظلمة جدًّا. ولعلّ اختياري لهذا العمل بالذّات- رعاية المسنين- ما هو إلّا تكفيرٌ عن خطأ ارتكبته في حقّهم سابقًا، وشعور بالذّنب اتجاههم واتجاه نفسي، دفعت ثمنَه غاليًا جدًّا، ومازلت.

***

تسلّلت بعضُ الدّموع الساخنة على وجنتي. لقد أيقظتِ السّيدة "إيفات" بداخلي ذكريات لطالما عملتُ جاهدة على نسيانها وتجاوزها، ولكنّ فضولها وأسئلتَها المتكررة جعلتني هذه المرّة أقرّر مواجهة الماضي، وسرْدَ أحداثه، والاعتراف أمامها بكلّ ما يحزنني ويخجلني في نفس الوقت.

كما قرّرت أن أكون صادقةً في سرْد قصّتي بكلّ تفاصيلها السّيئة منها قبل الجيدة،، حتى لو خسرت احترامَ السّيدة "إيفات" لي بعدها.

فأنا فعلًا أحتاج إلى شخصٍ غريب أبوحُ له بما لم أستطعِ البوح به من قبل.

أحتاجُ أن أتحرّر من ظلمات الماضي، كي أستطيعَ مواجهة غربة الحاضر،

وغياهبَ المستقبل، أنا فعلًا أحتضرُ في صمت، أحتاجُ إلى صرخةِ موت، إلى حسابٍ عسير مع الذّات، تبعث بعده روحي من جديد.. في صرخة حياة.

***

اسمي أمل، ولدتُ ببلدٍ عربيّ لا داعي من ذكر اسمه؛ فكلّ البلدان العربية واحدة، وترزح تحت نفس الظّروف القهرية على جميع المستويات، مع اختلاف نسبِ المعاناة داخلها لا غير.

تربّيت في أسرةٍ متماسكة، وضعُها الاجتماعي فوقَ المتوسط: أختيْن جميلتيْن هادئتيْن، وأخ ثائر متمرّد على الأوضاع السّياسية، أمّ حنون مثقّفة مسئولة صعبة المراس بعضً الشّيء، وأب مسالم له الكلمة الفصلُ لا ينطق أحدٌ بعد إعلانه للقرارات النّهائية.. بمعنى آخر "لا نقاش مع الحكم" إنْ لم تستطع إقناعَه قبل اتّخاذه للقرار؛ فعليك الانصياعُ والطاعة.

بدأتْ تجربتي المؤلمة منذُ حوالي خمس سنوات حين تخرّجت من الجامعة بامتياز، وظننت أنّ مخططاتي الحياتيّة تسير على الصّراط المستقيم بنجاح، وأنّ "مالك" الشّخص الذي أحببته فترةَ الجامعة سيكلّل قصّتنا بالزواج، ولكنّه تزوّج من ابنة عمّه المقيمة مع والدها بفرنسا، ورضخ لرغبة والده دون نقاش، أو لعلّه وجدها فرصة لا تعوّض للسّفر إلى أوروبا، في خضمّ الصّراعات السياسية، واحتضار مستقبل الشّباب في بلداننا.

كان الخذلانُ موجِعًا في تلك الفترة، كان إحساسًا رهيبًا بمثابة ذبحةٍ صدرية شقت قلبي نصفين، نصفه سقط على الأرض كاتمًا الصوت،

ونصفه الآخر بقيَ معلّقًا يحتضر بين ضلوعي.. يتخبّط في أنينه.. يصارع من أجل أن يستمرّ نبضه.

أفكارٌ ومشاعر سلبيّة راودتني بين الحينِ والآخر، كفكرةِ الانتقام منه والثّأر لكرامتي، ولكنّي لم أتبنى هذه الأفكار ولم أعتنقْها، بلْ ولم أحاول حتّى تشجيع نموّها بداخلي.

إذْ أنّ أفضلَ طريقة للانتقام هي التجاهلُ والبرود.

ومِن الخطأ أنْ تعطي شخصًا مساحةً أكبر من إطاره الضيق.

فهذه الحياة كملعبٍ لكرة القدم، الكرة هي أحداثُها، وللقدر دورُ الحكم.. تلعب الأحداثُ فيها تارة لصالحك، وتارة أخرى ضدّك، وتبقى صافرةُ النّهاية بيد القدر.

هذا الحكمُ الذي قد يخلق فرصًا لفوزك بضربةِ صدفة قد تقلبُ موازين المشاعر رأسًا على عقب، فيسجّل القلب إمّا انتصاره أو انكساره.

***

كرهتُ البلد، بدأت أتمرّد على كلّ شيء..، الأوضاع الاجتماعية والسياسية والفكرية. ضاقت بي الأماكن واختنقت، وأصبحت فكرةُ الهجرة ومغادرة الوطن تسيطرُ على تفكيري.

إنّها الرغبة في الهروب من تواطئ الحواس ضدّي، مِن عطر قدْ تغرقني رائحتُه في الذكريات، أو أماكن تستفزّ ذاكرتي للقاءات ولّت وانتهت..

أو كلمات قد صنعتْ حروفها خصيصًا لأجلي، قد أسمعها صدفةً فتلقي بقلبي في قاموس الماضي.

طبعًا لم أفكّر في الزّواج من أيّ رجل مقيم بالخارج كما فعل هو، بالرّغم من توفّر فرص متعدّدة لذلك عن طريق الأقارب.

فأنا لا أعترف بالزّواج التقليدي، فالمشاعر الصّادقة والأحاسيس الثّائرة، التقارب الفكري وتلاقي الأرواح وغيرها؛ هي الفيصلُ بداخلي، وما عدا ذلك فهو حكمٌ على الزّواج بالإعدام رفضًا قبل بدئه.

التحقتُ بفرع لمكتب انتداب وسيط عن المكتب الرئيسي لألمانيا بمدينتي، وبدأت دراسة اللّغة الألمانية، ويعتبر النجاحُ بتفوّق والحصولُ على الشهادة في هذه اللغة شرطًا رئيسيًّا لقبول ملفّي بالخارج.

تكاليف باهظة.. ودوراتٌ تعليميّة مستمرة، وحصص ثابتةٌ وأخرى متغيّرة. وإثر اجتياز كلّ الاختبارات بنجاح، وإرسال ملفّك إلى المكتب الرئيسي، وبعد موافقتهم طبعًا؛ تتمكّن من الحصول على تأشيرة الخروج إلى ألمانيا، وبدْء التّكوين المهني في الاختصاص الذي يتناسب مع مؤهّلاتك، هكذا تجري الأمور.

لم أجدْ دعمًا ماديًّا كبيرًا من العائلة رغمَ موافقتهم على المبدأ، على الأرجح تعمّدوا ذلك لجعلي أتخلّى عن هذه الفكرة من تلقاء نفسي.

لكنّ الأمرَ لم يزدني سوى تمرّدٍ وتحدٍّ لبلوغ هدفي، فقرّرت البحث عن عمل مؤقّت لاستكمال مصاريف الدّراسة بمركز اللّغات، وبما أنّ فرص

العمل في مجال التخصّص الدراسي صعبة، بل تكاد تكون شبهَ مستحيلة كجلّ البلدان العربية الأخرى، خاصّة بعد اندلاع "ثورات الربيع العربي" أو"ثورات الشّهيد العربي" كما يحْلو لي تسميتها.

ذلك أنّ جلّ الشّباب العربي قد اسْتشهد نفسيًّا، ودُفن معه الأملُ في المستقبل. ولو لم يكن الانتحارُ كفرًا لوجدت المقابرَ الجماعية تؤثّث هذه البلدان.

وبعد محاولاتٍ كثيرة باءت بالفَشل لم أجدْ سبيلًا سوى البحث عن أيّ عملٍ خارج اختصاص دراستي لفترة مؤقّتة.

***

بعد أنْ أنهيتُ ساعات الدراسة الثّابتة بمركز اللّغات لذلك اليوم، جلستُ في المكتبة التابعة له لمراجعة الدّرس. ومع الشّعور بالملل فكّرتُ في متابعة عروضِ العمل على مواقع التّواصل الاجتماعي، حيث ظهرَ لي إعلان عملٍ في مركز اتصالات.

كتبتُ رقم الهاتف، واتّصلت به على الفور، كانت المفاجأةُ الأولى بالنّسبة لي عندما ردّت سيدة باللّغة الفرنسية، فوجدتني أجيبُها تلقائيًّا بنفس اللغة...

وبعدَ حوار قصير مقتضب دار بيننا، دعتْني المديرة إلى مقابلةٍ لإمضاء العقد مباشرة، فرحتُ كثيرًا للوهْلة الأولى، ولكنّني استغربت هذه السّهولة! كيف تقترح عليّ إمضاء عقد وأنا لم أجْرِ مقابلة عمل بعد؟!

فهي لا تعرف عنْ دراستي، ولا عن خبراتي شيئًا، سوى أنّني أتقنُ اللّغة الفرنسية بلكنةٍ متميزة، ولغتي الأمّ هي العربية كما أتقن الإنجليزية وبعضًا من اللّغة الإيطالية، وأدرس الألمانية حاليًا. فهل هذه المعلومات كافية لإمضاء عقدٍ مباشرة؟

المهمّ لم أتردّد، وأردت اغتنامَ الفرصة، وتوجّهت مباشرة إلى مركز الاتصالات.

***

أوقفتُ سيارةَ أجرة وأعطيتُه العنوان، بدأت أشعرُ بالقلق عندما توقّفت السيارة أمام مبنى فاخر واجهاته زجاجية قاتمةُ اللّون غير شفّافة، ألوان الجدران الخارجية للمبنى كانت زاهيةً متدرّجة في شكل خطوطٍ عريضة تجلب الأنظار، وتوحي بالأمل والصفاء.

ورغمَ ذلك انتابني شعورٌ بالقلق والانقباض، لا أعلم لماذا! وأرجحت ذلك حينها لتوتّري من هذه المقابلة الهامّة بالنسبة لي، والتي سيمكنني اجتيازُها بنجاح من بدْء العمل، ودفع القسط الثاني من المبلغ المطلوب لمركز اللّغات الألماني.. إذْ لم أكنْ أعلمُ حينها أنّ تلك الجدران تخفي وراءها عالمًا غامضًا.

تقدّمت بخطواتٍ ثابتة إلى الداخل حيث استلمتْني موظّفة الاستقبال، ورافقتني إلى مكتب المديرة مباشرة.

رأيتُ أنّ الأمور تسيرُ بسرعة وإيجابيّة إلى حدّ ما.

صافحتُ المديرة وجلست، أخبرتني على الفوْر أنّنا سنتّفق على بعض البنود داخل العقد، وبعد إمضائه سأتلقّى تدريبًا لمدّة أسبوع لعدم خبرتي في المجال، وبعدها أباشر العمل.

كانت المقابلة باللّغة الفرنسية لم تتكلّم خلالها المديرة أيّ كلمةٍ باللغة العربية، حتّى أنّني اعتقدت أنها شركة اتّصالات فرنسية وسيطة للشّركة الفرنسية الأمّ.

كان الرّاتب المحدّدُ مقبولًا، وهناك نسبةٌ على كلّ نجاح أحقّقه، أي أتقاضى مبلغًا معينًا إضافيًّا عن كلّ عميلٍ أقنعه بمنتجاتنا، هكذا فهمتُ حينها.

من أهمّ شروط العقد الالتزامُ التّام بقوانين الشركة: كمواعيد العمل، وتنفيذ الأوامر، وأهمّها على الإطلاق- وهو ما أكّدت عليه المديرة آنذاك- عدمُ النّطق بأيّ كلمة باللغة العربية خلال ساعات العمل، كما أنّها طلبت مني أنْ أختار اسمًا فرنسيًّا مستعارًا حسب رغبتي للتعامل به مع العملاء الفرنسيّين، ومع الزميلات أيضًا.

اتّفقنا، وبعد إمضاء العقد بدأتْ فترة التدريب، ساعاتُ التدريب هي نفسها ساعات العمل الرسمية، من السّاعة الثامنة صباحًا إلى الرابعة مساءً.

***

عدتُ إلى المنزل، وأخبرت عائلتي بعملي الجديد، واختصرت القولَ بأنّها شركة اتصالات فرنسية.. وعملي هو إقناعُ العملاء بشراء منتجاتها.

في صباح اليوم التّالي، وحوالي السّابعة والنصف، كنت متواجدةً داخل مقرّ الشّركة بناءً على طلب المديرة.

استقبلتني "لارا" التي ستقوم بتدريبي، ورافقتني في جولةٍ داخل الشركة.

يتكوّن المبنى من ثلاثةِ طوابق:

الطّابق الأرضي، وهو مقسّم إلى جزأين: قاعة الاستقبال العام، بمكتبها الفاخر النّصف دائري الرمادي اللّون، وجدرانها النّاصعة البياض. والجزء الثّاني هو قاعة الاستراحة "كافيتريا" تُباع فيها بعض المأكولات الخفيفة والمشروبات الغازية، وغيرها.. مجهّزة بطاولاتٍ وكراسي مريحة تقضي فيها العاملات فتراتِ الرّاحة.

ثمّ توجّهنا إلى الطّابق الأوّل، وهو الطّابق المختصّ بما يسمّى "قصاصات الشراء"، وهناك وجدت نفسي في ممرّ صغير يوصلني إلى القاعة الأولى، وهي قاعة مؤثّثة بأربعة حواسيب، اثنان منهم على اليمين، واثنان على الشّمال، جلسن وراءها فتياتٌ يضعن سماعات، يفصل بين الواحدة والأخرى جدارٌ بلّوري عازل للصّوت، وكلهنّ مشغولات بالاستعداد لاستقبال الاتّصالات بعد دقائق.

***

بدأت "لارا" تشرح لي أنّ هذه القاعة تسمّى قاعة "الاستقطاب"، وأنّ مهمّة العاملات هنا هي استقطاب العميل، وإقناعه بإعادة الاتّصال.

أمّا القاعة الثّانية من الطابق الأوّل فهي مستطيلةُ الشّكل، وتسمّى بقاعة "الاستقبال" وهي مقسّمة ومجهّزة بنفس الشّكل ظاهريًا مع اختلاف بعض التفاصيل، كعددِ العاملات بالقاعة وهو عشرة، خمسةٌ منهنّ على اليمين، وخمسة على الشّمال، ونوعية الحواسيب، وانفصال المكاتب عن بعضها من خلال جدار بلّوري محيط بها يدعم استقلاليّة وخصوصية الحديث خلال الاتّصال.

بالنّسبة للطابق الثّاني، أخبرتني "لارا" حينها أنّه اختصاص آخر للشّركة، وأنّ تفاصيله لا تهمّني في الوقت الحالي طالما أنّني سأعمل بالطابق الأوّل، وتحديدًا بقسم "الاستقطاب".

وطبعًا الطّابق الثّالث هو طابق الإدارة، هناك حيث أجريت المقابلةَ مع مديرة الشركة السيدة "نادين" في مكتبها الفاخر المجهّز بشاشات مراقبة لكلّ الشّركة، وأجهزة اتّصال وتصنّت، ومتابعة لكلّ المكالمات والاتّصالات التي تدور بين العاملات والعملاء.

***

السّيدة "نادين" تركت بداخلي انطباعًا متناقضًا يومها، فهي سيدة ذكية وعمليّة، تثمّن الوقت ولا تحبّ إضاعته، وتعمل على الاستفادة من كلّ دقيقة، لنقُلْ إنّها طموحة، ولكنّها تخفي جانبًا آخر من شخصيّتها بدا لي غامضًا حينها.

وأذكرُ أنّني سألتها خلال المقابلة.. لماذا وافقتْ على إمضاء العقد معي قبل أنْ تراني أو تطّلع على مؤهّلاتي؟ فأخبرتني حينَها بسرعة وتلقائيّة "لأنّ

صوتك ساحرٌ جدًّا، ولكنتُك باللغة الفرنسية مميّزة للغاية، كما أنّك تتقنين اللّغة بمصطلحات عميقة، بالإضافة إلى ذكائك وثقتك بنفسك في إدارة الحوار، وهذا يكفي بالنسبة لي".

في تمام السّاعة الثامنة اتّخذت "لارا" مقعدها وراءَ جهاز حاسوب في قاعةٍ صغيرة تابعة لقاعة الاستقطاب، جهّزت خصيصًا لتدريب العاملات الجدد.

جلستُ إلى جانبها على الكرسي الملاصق لها، وضعتْ "لارا" السّماعات في أذنيها، وطلبت منّي أن أفعلَ الشّيء نفسه بالسّماعات الإضافية، وأنْ أتابع المكالمات في صمتٍ وتركيز لأفهمَ طريقة العمل.

مرّت الساعة الأولى وأنا أتابع اتّصالات "لارا" مع العملاء، ولا أدري إنْ كانت تسمية عملاء أو حرفاء تنطبق عليهم أساسًا؛ إذْ كان جهاز الحاسوب مبرمَجًا على دليل الهاتف الفرنسي يقوم بالاتّصال بالأسماء آليًّا، وكلّما فتح الخطّ يظهر على الشاشة اسمُ الشّخص المتصل به، عنوانه ورقم هاتفه، فتبدأ "لارا" بالحديث مباشرة.

كانت اتّصالات مختلفة وعديدة لكنّ المحتوى واحد، فالحوارُ ذاته يتكرّر مع كلّ شخص يتّصل به الحاسوب، إذْ بدت لي كأنّها حفظت بعضَ الجمل باللغة الفرنسية وتعيد إلقاءها طوال الوقت كالببغاء في كلّ اتّصال.

أمّا عن محتوى الاتّصال فهو كالآتي:

"آلو، أنا من شركة "أميكو" الفرنسية هل أتحدّث مع السيد "....."، وتقرأ اسم المتّصل به الظاهر أمامها على الشاشة.

إذا كانت الإجابة سلبية، تخبره برغبتها في التحدّث مع الشّخص المذكور، أمّا إذا كان الردّ إيجابيًّا تواصلُ الحديث قائلة:

– لقد اختاركَ الحاسوب من خلال السّحب الآلي للأسماء كفائزٍ بجائزة الشّركة احتفالًا بمرور ثلاث سنوات على إنشائها.

ثمّ تواصل الحديث:

"يمكنك الاتّصال بالرقم التّالي للتنسيق مع المسئولة واختيار الجائزة".

وهنا تقوم "لارا" بإملاء رقم الاستقبال حيث تستلم العاملاتُ هناك في الغرفة المجاورة اتّصالات الفائزين للتّنسيق معهم، وبمجرّد أن يتصل فائزٌ من عملاء "لارا" بغرفة الاستقبال تحسب مكالمة ناجحة لها تتقاضى عليها مبلغًا إضافيًّا آخر الشهر.

الاستراحة الأولى كانت بعدَ ساعتين من العمل لمدّة ربع ساعة قضيناها في "الكافيتريا" بالطابق الأرضي، اشتريت قارورةَ ماء من العمّ سالم الذي يعمل هناك، وهو رجلٌ بسيط هادئ الطباع سريع الحركة في بيع المأكولات.

خاطبتُه بالفرنسية فأجابني بالعربية! ابتسمتُ له، وشعرتُ بالاطمئنان فقد كان العمّ سالم أوّلَ شخص يتكلّم معي باللغة العامية منذُ دخولي أو الأحرى اتّصالي هاتفيًّا بذالك المكان. رمقني بعدها بنظرة سريعةٍ ذات مغزى وكأنّه يقول لي "ما الذي جاء بك إلى هنا؟!!"

لا أعلمُ بالضّبط، ولكن مما لا شكّ فيه هو أنّ وجودي في ذلك المكان قد أحزنه بعضَ الشّيء، بالرّغم من أنني كنت تلقائيّة ومهذّبة معه!

عدْنا بعدها إلى العمل بسرعة، وضعْنا السّماعات، وواصلت "لارا" الحديثَ على نفس النسق طوال الوقت..

بعدَها تحصّلنا على استراحة أخرى لمدّة ساعة كاملة للغداء، وفي ذلك الوقت تحديدًا امتلأت "الكافيتريا" بالعاملات.

كنّ يجلسنَ حول الطّاولات الرخامية البيضاء، على كراسي بنفسجيّة اللون، ومريحة، صمّمت بطريقة مبتكَرَة تساعد على الاسترخاء، في شكل مجموعات صغيرة لا تتجاوز الثلاث عاملات.. ما شدّ انتباهي آنذاك هو الهدوءُ التّام والصّمت الذي يحدق بالمكان، ما عدا بعض المحادثات الخافتة المقتضبة بين بعضهن.

ابتسمتُ في سرّي، لا أدري لماذا تذكّرت "كافيتريا" الجامعة في تلك اللّحظة، حيث تعم الفوضى والضّوضاء، وتبعث النقاشات الحماسية والضّحكات الصاخبة من كلّ مكان، وصوت الأغاني الجديدة الذي يصدح في المكان، والتي نضطرّ إلى سماعها حسب ذوق العاملين بكافيتريا الجامعة، وأغلبها أغاني شعبيّة هابطة ذات إيقاع سريعٍ لا تمتّ للفن بصلة.

اخترت الجلوسَ على طاولة في ركنٍ بجانب الآلة الحاسبة حيث تبدو جميعُ الطاولات على مرمى من نظري.

***

كان المشهدُ متنوّعًا: هناك من العاملات مَن فضّلت شرب قهوة وتدخين سيجارة في صمت، ومنهنّ مَن كانت تأكلُ بشراهة، ومنهنّ مَن كانت تهمس

بهدوء لصديقتها كأنّها تبوح لها بأسرار أمن الدولة، وهناك مَن كانت منشغلة بمحادثةٍ هاتفية، وأخريات كنّ يسبحنَ في مواقع التواصل الاجتماعي عبر هواتفهِنّ، وهناك مَن أنهت غذاءها بسرعة واتّكأت برأسها إلى الوراء، وأغمضت عينيها، وهناك من تشابكت يداها أمامها على الطّاولة، وغاص رأسها بينهما في محاولة منها للاسترخاء، والشيء الوحيد المشترك في هذا المشهد هو وجودُ قارورة ماء بجانبِ كلٍّ منهن.

باختصارٍ منظرٌ مختلف لشابّات كان من المفروض أنّ النشاط والحيوية والانطلاق هو ما يسيطر عليهنّ، لكن الوضع كان يشي بالتّعب والإرهاق النفسي والجسدي على حدّ السواء.

انتهى يومُ التّدريب بالنسبة لي في تمام الرابعة مساءً، توجّهت بعدها مباشرة إلى مركز اللغة وتحدّثت إلى المسئولة هناك، وقدّمت لها نسخة من عقد العمل لأتمكّن من الالتحاق بالمجموعة المسائية لدروس اللغة بدل المجموعة الصباحية.. أيْ من السّاعة الخامسة إلى السابعة مساءً.

***

حالما عدتُ إلى المنزل استقبلتني والدتي متسائلةً عن سير الأمور معي، فأخبرتها أنّ كلّ شيء روتيني ولكنّه يسير بنسق سريع ومكثّف.

في الأثناء، كان أخي يتابعُ بتعصّب مباراةَ كرة قدم لفريقه المفضّل، لم أرغب في مشاكسته واستفزازه في ذلك اليوم، مع العلم أنّني كنت من

مشجّعي فريق آخر، وفي المباريات الهامّة التي يتنافس فيها فريقانا، كانت تقومُ داخل المنزل عاصفةُ صحراءٍ ولا تقعد.. لا سيّما كلّما ساء لعب فريقه المفضّل، أوْ كلّما أخطأ أحدُ اللاعبين في تمريرةٍ مهمّة للكرة.. وخاصّة إذا أضاع فريقه فرصةً لتحقيق هدف، هنا الكارثة.

كان يندمج مع المباراةِ كليًّا حتّى أنّه ينسى أحيانًا أنّني أجلس إلى جانبه، فتراه يتأهّب في اللحظات الحاسمة للقيام من مكانه، وركل الكرة مكانَ اللاعبين.. أذكر مرّةً أنّه كان سيقذف بكأس العصير على شاشة التّلفاز حين أخطأ لاعبٌ في تسديد ضربةِ جزاء، كانت فرصة فريقه الأخيرة للتعادل مع الخصمِ والمرور إلى الضربات التّرجيحية.

كان فريقه كثيرًا ما يُهزم أمامَ فريقي، وهنا تكمن متعة استفزازه ومشاكسته ولذّةُ التشفي بخسارته.. ورغمَ تراجع مستوى فريقه وهزائمه المتكرّرة وخذلانه لمحبّيه، إلّا أنّه ظلّ دائماً مشجّعًا وفيًّا له.

وفكّرت..

لو ظلّ الرجل وفيًّا مشجّعًا لزوجته في خيباتها الأسرية، متضامنًا معها في النّجاحات والإخفاقات كوفائه الدّائم وتضامنه مع فريقِه الكرويّ الخاسر، لتحقّقت بينهما معجزات استقراريّة، ورفعت بطولات عاطفية.

في الواقع، كثيرًا ما تأخذني قوانينُ لعبة كرة القدم إلى تشبيهها بالحياةِ الزوجية في بعض أوجهها. والأمثلة على ذلك عديدة:

فخلال المباراة عندما يعتدي أحدُ لاعبي فريق ما على أحدِ لاعبي الفريق المنافس، يُعلن الحكم عن مخالفةٍ أحيانًا مصحوبة بإنذارٍ شفهيّ أو بطاقة صفراء، وقد تصل الأمور في حالة تعمّد الاعتداء إلى بطاقةٍ حمراءَ تُجبر اللاعبَ المعتدي على مغادرة أرض الملعب، تمامًا كما يغادر الزّوج المعتدي على زوجتِه بالعنف المتعمّد بيتَ الزّوجية للضّرر إلى أنْ يأتي ما يخالف ذلك.

أمّا إذا تعدّى الزّوج حدوده مع زوجته وتوغّل في استفزازها واللّعب بأعصابها..، فعليه أن يستعدّ لهجوم معاكس؛ إذْ لن يرتاح عقلها قبل أنْ تبذل قصارى جهدها لردّ اعتبارها في شكلٍ هجمة مرتدّة.

وفي كرة القدم، قد يلجأ فريقٌ ما إلى تقنية إجهادِ الفريق الآخر..؛ فيفتح له المجال للتحرك والجري والتقدّم لاهثًا مع تعزيز دفاعه حتّى لا يتمكن من اختراق شباكه، إلى أن تأتي الفرصة المناسبة لقلب موازين اللّعب لصالحه والسيطرة على النتائج... وهكذا قد تفعل بعضُ الزّوجات، وذلك باستنزاف أموال أزواجهنّ وإنهاكهم ماديًّا وجسديًّا ومعنويًّا للسّيطرة على الاستقرار العائلي ومنع الهجمات العاطفيّة الخارجية غير المحسوبة والنّزوات الرجولية المدمّرة... فالرجل حسب اعتقادهنّ العقيم يظلّ تحتَ السيطرة طالما أنّه مفلسٌ!

باختصار..

إنّه ذلك الغباء البديهي عندنا نحنُ النساء باعتقادنا أنّ الخطر يهجمُ علينا من الخارج، في حين أن الخطرَ الحقيقي يكمن في دواخلهنّ ونزعاتهنّ المتمرّدة والمسكوت عنها.

كنتُ أشعر – حينَها – ببعض الصّداع، رغم أنّني لم أجْرِ أيّ اتّصال ولكنّي كنت أتابع محادثات "لارا" بتركيزٍ واهتمام كبيرين، حتّى أنّني استخلصت العديدَ من الأمور التي قد لا تعجبها.

بعدَ تناول طعام العَشاء مع العائلة انزويتُ في غرفتي، وبدأت أراجع أحداثَ اليوم، وكمّ المعلومات التي حصلت عليها خلالَ التّدريب، وبدأت آليًّا أنقد طريقتها في إدارة الحوار، خاصّة أنّ نتائج مكالماتها لم تكنْ مبهرة.

"لارا" واسمها الحقيقي "شيماء"، وهي فتاة انطوائيّة بعضَ الشّيء رغم محاولاتها الفاشلة في إظهار عكس ذلك، تعمل بالشّركة منذ ٦ أشهر، وتعتبر الأقدمَ بين عاملات الاستقطاب. لم تكن تتقن اللّغة الفرنسية جيدًا ما عدا بعض السّيناريوهات والحوارات المتكرّرة التي حفظتها عن ظهر قلب، الأمر الذي يظهر جليًّا كلّما حاول عميلٌ ما إحراجها ببعض الأسئلة، أو عند خروج أحدهم عن مسار الحوار فتصبح ردودُها متلعثمة ومرتبكة، وتعطي انطباعًا سلبيًّا بعدم التمكّن من الإقناع وعدم السّيطرة، الأمر الذي يفسّر إقفال العميل أو العميلة لخطّ الهاتف في وجهها بعدها مباشرة، أو تأنيبها ببعضِ الكلمات كي تكفّ عن الكذب وإزعاج الناس، وهناك بعضٌ آخر تصل به الأمور إلى شتمها قبل إغلاق الخط.

بالإضافةِ إلى العديد من الأخطاء الأخرى التي وقعتْ فيها " لارا" دونَ قصد، فهي تحاول جاهدة إنهاءَ المكالمات بسرعة للاتّصال بأكبر عددٍ

ممكن من العملاء، ولكنّها في النهاية- ومن خلال تلك الجُمل المقتضبة- تضيّع فرصًا كثيرة جدًّا في إقناعهم بإعادة الاتّصال.

***

في اليوم التّالي استيقظتُ حوالي السّاعة السادسة صباحًا، كنت أشعرُ بالنشاط والحماس، أخذت حمّامًا سريعًا ساخنًا، وارتديت ملابسي التي اخترتها بعنايةٍ بحيث يعكس تناسق اللونين الأخضر مع درجةِ البنفسجي الهادئ تحدّيًا جماليًّا لطقس الخريف.

وضعتُ بعض اللّمسات الجمالية الخفيفة، أمّا شعري فتركته منسدلًا ممتدًّا يكتسح ظهري بحريّة، فشعري بالذّات لا سلطةَ لي عليه، أشعرُ دائمًا أنّه متمرّد مثلي؛ يرفض الجمود والحدّ من الحرية: فمثلًا حين أتركه ناعمًا منسدلًا لا يلبث أنْ ينحرف مع أوّل هبّةِ رياح، ويتطاير معلنًا ثورته، وتموّجَه، ويصبح في شكل آخر تمامًا عكس ما أردت. وأذكرُ مرّة كنت مدعوّة لحفلة زفاف، ومع فستاني اللّيلي الأسود الطّويل فضّلتُ رفْعَ شعري إلى الأعلى، وقد أحكمت تثبيتَه بدقّة، لكنني فوجئت به ينسدل على كتفي وصدري لحظةَ التقاط صورة مع العروسين، وكأنّه يرفض الوحدة، وقد أنزل راية الاستسلام هذه المرّة معلنًا انتماءه لجسدي.

تناولتُ فطوري بسرعة، وحملت كتبَ الدّراسة، ثمّ توجّهت إلى الشركة.

مرّ اليوم الثّاني بنفس النّسق مع "لارا"؛ أتابعها بتركيز واهتمام، أطرح الأسئلة خلال فترات الاستراحة وهي تجيبُ، وفي أغلب الأحيان لا تكون لديها إجابات، وكلّما تعمّقت معها في حوار استفهامي باللّغة الفرنسية تعمّدت تجاهلي. ومع الوقت صرتُ أعلم تحديدًا أيّ الاتّصالات ستنتهي إيجابيًّا وأيّها ستظلّ في خانة الانتظار، وأيّها ستتوّج بالنّجاح، وذلك قبل انتهاء الاتّصال من خلال الحدس وقراءة أفكار المتّصل به، وردّة فعله:

فالذّكاء والفطنة وقراءةُ الأفكار وتوقّعُ النتائج هي أمورٌ منها ما يعود إلى الفطرة، ومنها ما يكتسب بالاطّلاع والدّراسة وجمْع المعلومات والمهارات والقدرة على استقبال الرموز والإشارات وحسْنِ ترجمتها.

وبالنّسبة لهذا العمل، فإنّ الاتّصال بالشّخص وإقناعه بإعادة الاتّصال يعتمدُ على التواصل الكلامي اللّغوي؛ حيث تلعبُ الكلمات وطريقةُ نطقها ونبرةُ الصّوت دورًا كبيرًا في الإقناع وتوجيه دفّة الحوار إيجابيًّا. كما أنّه لفهم نبراتِ صوت الشّخص المقابل وسرعة البديهة وردّ الفعل المناسب؛ دورٌ كبيرٌ في تفادي النتائج السلبية له.

ولا أعتقد أنّ "لارا" قد قرأتْ في علم النّفس، أو في فهم شخصيّة الآخر، وإلّا لما تعاملت بهذه الطّريقة الآلية المقتضبة.

في الواقع، لم أردْ مناقشة "لارا" في أسلوب عملها أو نقده، خاصّة بعد أن أخبرتها أنّ النتائج النهائية لمكالماتها خلال اليومين الماضييْن لم تكنْ مُبهرة حسب رأيي، الأمرُ الذي استاءت منه كثيرًا، وجعلها تغيّر أسلوب تعاملها معي تمامًا.

فهناك أشخاص لا يتقبّلون الرأي الآخر بصدرٍ رحْب، ولا يستطيعون التّفرقة بين النقد الهدام لمجرد النّقد المتأتي عن الانفعالات السّلبية كالغيرة والحقد والعرقلة، وبين النّقد البنّاء المبني على تحليل منطقي يظهر السّلبيات والأخطاء المتكرّرة، وهذا النّقد البنّاء عادةً ما يكون مصحوبًا بنصائح عملية تساعد على التّطوير من الأساليب والآليّات لبلوغ نتائج أكثر إيجابية.

لكنّ "لارا" اعتبرت تقييمي لعملها أمرًا سلبيًّا في غير محلّه، وأنّه ضرب من الغرور متأتٍّ عن عاملة مازالت في مرحلة التّدريب لم تبدأ العملَ بعد، ولم تثبت كفاءتها بعد، وكان تجاهلها لي ولأسئلتي واستفساراتي بعد ذلكَ نوعًا من التحدّي، وإعلانًا ضمنيًّا لبدء الحرب التّنافسية بيننا، وأنا ضمنيًّا قبلتُ التحدّي.

وكلّما حاولتِ استفزازي خلال التدريب، كنت أهديها ابتسامةً وردية باردة ملفوفة في نظرات استصغار وتقزيم، عاملة بمبدأ "لكلّ مقام مقال"؛ لإيماني بأنّ الانزلاق وراءَ هذه التّجاذبات الكلامية هو عبث.

***

في الأثناء، ربطتني صداقة مع "ريتا"، واسمها الحقيقي "رانية" وهي إحدى عاملات قسم "الاستقبال" أيّ أعلى درجةً في العمل من "لارا"، وهي بالفعل أذكى منها، ومستواها الدراسي والثقافي أفضل ولغتُها الفرنسية أكثر طلاقة.

"ريتا" جريئةٌ نوعًا ما، والحديث معها ممتع، هي فتاةٌ سمراء البشرة، شعرُها اللّيلي الأسود يرسم انسداله حدودَ الكتفين بدقّة، وقوامها رشيق.

أصبحنا نقضي فتراتِ الاستراحة معًا في الكافيتريا، ونتجاذب أطراف الحديث...

وفي الواقع في تلك الفترات الوجيزة التي قضيتها مع "ريتا" استفدت من نقاشاتي معها أضعافَ ما استفدتُه من "لارا" خلال أسبوعٍ كامل من التدريب.

***

مع انتهاء آخر يوم تدريب، اعتذرت عن درس اللّغة هاتفيًّا، وخرجت مع "ريتا" في نزهةٍ تسوّقية، وما أدراك ما التسوّق عند الفتيات!

دعونا نقول إنّه متعةٌ لا تضاهيها متعة، لذّة لساعات- في ولادة جديدة-: يتّزن فيها المزاج المتعكّر، تتحسّن فيها النّفسية السيئة، تنسَى فيها اللحظاتُ الحزينة الكئيبة، تفرحُ فيها الرّوح، وينتشي فيها الجسد،...

ولا أبالغ حين أقول إنّ لحظات الاستمتاع باختيار حقائب اليد.. والأحذية.. وتمييز ألوانها وموديلاتها وفقًا للّباس وتنسيق الإكسسوارات المناسبة والملائمة لصيْحات الموضة، وإنّ التجوّل كالفراشة بين أحدث ماركات العطور المزهرة...؛ هي لحظات انفصالٍ تامّ عن ضغوطات الحياة.

وقد يفوق إحساس المتعة بالتسوّق ومشاركة هذه اللحظات مع صديقةٍ حميمة بما قد تشعر به من المتعةِ عند الاستماع إلى كلماتِ غزلٍ من الحبيب..

بعد الانتهاء من هذه الجولة الممتعة شعرْنا ببعض التّعب؛ فتوجّهنا بأكياس مشترياتنا إلى أقرب مقهى وسطَ المدينة.

مقهى جميل وراقٍ في زخرفته، ولكنّه اختلط بالرّواد من كلّ صنف. شدّت انتباهي فتاةٌ تجلس على طاولةٍ في الجهة المقابلة، لا أعرف لماذا ارتدت ذلك الفستان القصير جدًّا مادامت لا تحتمل اغتصاب شباب المقهى لها بنظراتهم.

على الطّاولة المجاورة لنا جلستْ فتاةٌ مع صاحب العمل الجديد على ما يبدو، فقد قدّمت له ملفًّا كاملًا عن سيرتها الذّاتية العملية، بينما أجابها هو بابتسامةٍ خبيثة فتحت السّتار عن أسنان صفراء متآكلة، وبدعوةٍ على العشاء، بادلته الابتسامة في إغراءٍ وهي تشير وتطرق بسبّابتها على الملفّ؛ موافقةً على الخروج مع ذلك الجدّ المتصابي المراهق، الذي يتصيّد الفرص لإشباع نزواته وغرائزه الحيوانية مع فتاةٍ لم تتجاوزِ العشرين والتي اختارت دخولَ العمل من الشّباك، والصّعودَ سريعًا إلى القمة في الخفاء.

أحضرَ لنا النّادل أكوابَ الشّاي، وطلبنا حلويات مع قارورة ماء.

اغتنمت فرصةَ تواجدنا خارج مقرّ العمل، وسألت "ريتا" عن العمّ سالم الذي كان يرمقني بنظرات غريبة. وفي تلك اللّحظة أخبرتني حقيقةَ

شركة الاتّصالات وحقيقةَ العمل هناك. وعندها فهمت لماذا كان مُنزعجًا لوجودي،كان يحاول تحذيري لكنْ لقمة العيش منعتْه من أنْ يتورّط علنًا في الحديث عن خلفيّات تلك الشركة.

***

كانت هذه الحقيقةُ صادمةً بالنّسبة لي رغم شعوري الدائم بالقلق وعدم الارتياح في ذلك المكان، خصوصًا مع مسألة منع التّخاطب باللغة العربية فيما بيننا، رغم أنّنا في بلد عربي، وتلك الأسماء المستعارة، و...و...

كلّ ذلك جعلني- منذُ البداية- أرتابُ من المكان، وأشعر بالقلق، إذِ اتّضح أنّ شركة الاتّصالات هذه هي شركة وهميّة مزيّفة تحتال على الفرنسيين لكسب الأموال، وليست لديها أيّة منتجات، لا تبيعُ ولا تشتري، ولا تلعب دورَ وسيطٍ مع أيّة شركة أخرى.

باختصارٍ هي عبارة عن مقرّ استأجرته صاحبة الشركة، وبالتّنسيق مع وسيط لشركة اتّصالات فرنسي تقومُ بشراء خطوط هاتفٍ حمراء، قيمة الاتّصال على هذه الأرقام باهظة الثّمن، وتقدّر باثنين يورو للدّقيقة الواحدة.

جهّزت الشركة بقسم يتّصل عبر الحاسوب الآلي بأرقام دليل الهاتف الفرنسي.

تقوم عاملات "الاستقطاب" بالتّواصل مع الأشخاص، وإقناعهم بإعادة الاتّصال للحصول على الجائزة الوهمية، وعندما يعيدون الاتّصال

على الرقم الأحمر تتلقّى عاملات "الاستقبال" مكالماتهم تحاولنَ استدراجهم في الحديث بشتّى الطّرق ليبدأ عدّاد المكالمة في الارْتفاع كلّ دقيقة.

طبعًا آخر الشّهر تقوم هذه الشركة بإلغاء أرقام الهاتف القديمة، وشراء أرقام هاتف حمراء جديدة وهكذا دواليك... حتّى لا ينكشف أمرها.

أمّا عن الطابق الثّاني، أخبرتني "ريتا" أنّه يعمل بنفس الطّريقة مع اختلاف الاختصاص فحسب، وأنّ الرّاتب الشّهري هناك أكبر، ولكنْ عن هذا الاختصاص لا أحد يعلم شيئًا.

***

الفصلُ الثّالث

آدم



أخيرًا، أعلنتْ شركة الطّيران التّركية بمطار "دوسلدورف" الدّولي بألمانيا عن انطلاق رحلتها المتّجهة إلى مطار اسطنبول، وبعد نصف ساعةٍ بالضّبط كانت الطائرة تحلّق في السّماء.

اتّكأ آدم على المقعد، وأغمض عينيه للحظاتٍ ليتنفس بعضَ الهدوء والحريّة الزائفة، فلقد مرّت عليه لحظاتُ الانتظار في المطار وكأنّها سنواتٌ من الزّمن النفسي تتمطّط بلا نهاية.

ورغم أنّه حاول أن يحافظَ على هدوئه وثباته أمامَ شرطة الجوازات آنذاك، إلّا أنّ داخله ظلّ مهتزًّا مرعوبًا طوالَ الوقت، وكان يتملّكه شعورٌ بأنّ الجميع يعلم بجريمته.

بعد وقتٍ ليس بطويلٍ من إقلاع الطائرة طلب آدم من المضيفة كأسَ ماء بارد ليسدّ به ظمأ حلقه، ثمّ أخرج دفتر مذكّرات أمل الذي كانت قد اشترتْه بعد أن تعقّدت حياتها الزّوجية مع آدم منذ بضع شهورٍ لتُسْقط فيه همومَها وهواجسها. وبدأ يتصفّحه دون ترتيب أو تسلسل.

وقفَ عند صفحة كتبت سطورها بقلمٍ أسود على خلاف الصّفحات السابقة، عنوانها "الشكّ"، وبدأ يقرأ في صمت.

الشّك

بدأ الرّوتين يتسلّل إلى حياتنا بالرّغم من كلّ محاولاتي غير المُجدية لكسْره، فظاهرُ حياتنا الزوجية يبدو مميّزًا نحسد عليه، ولكنّ باطنه بدأ بأخذ مجرى الرّتابة والاستمرارية.

أنا لا أتحدّث عنْ كسر الرّوتين في شكله البسيط.. كتغيير الأثاث، وديكور المنزل، واختيار الورود التي يحبّذها، وطبخ الأكلات التي يفضّلها، ومفاجأته في الأعياد والمناسبات، ولفتات الاهتمام به في عمله، والبحث عن قاموس مصطلحاتٍ جديدة تليقُ به، وباللّحظات وغيرها؛ لأنّ كلّ هذا كان بمثابةِ أمرٍ بديهي.

كما أنّني لا أقصد بكسْر الرّوتين: أنْ أغيّر من شكلي وتسريحة شعري ونوعِ العطر الذي أستعمله واختيار ملابسي؛ لأنّني- وللأمانة- غيرُ وفيّة لدور الأزياء، وخائنةٌ لماركات العطور التي تتغيّر دائمًا بتغيّر حالتي النفسية والمزاجية، ويعتبر التّغيير والتنوّع في مجال الموضة هوسًا بالنسبة لي، شرط أن يرقى إلى مستوى الذّوق والجمال، وأحرص دائمًا على أن تكون إطلالتي ساحرة في رقيّها وتواضعها وبساطتها.

كما أنّني لا أقصدُ بذلك المعاملاتِ الاجتماعية والنّقاشات الثريّة لأنّني بطبعي أتفادى الدخول في جدالات بيزنطيّة لا رجاء منها، وأحبّذ تجاذب

أطراف الحديث والنقاشات المتنوعة. كما أنّني مستمعة جيدة وأحترم الرأي الآخر، وأقبل النّقدَ بصدر رحْب على أنْ يكون بنّاءً.. لا ذلك النّقد الهادم المنبعث من فكر مريض.

***

كلّ هذا- وغيره- لم أقصده؛ بل أقصد أنّه برغم كلّ الجنون الظّاهري الذي نعيشه وهذه السعادة التي تبدو علينا، إلّا أنّني في داخلي أشعرُ بتغيّره، وأنّه يمرّ بحالة من الفتور العاطفي فأصبحت كلمات الغزل تخرجُ منه آليًّا.. بلا معنى..، وحياتنا الحميميّة رغم تنوّعها وجنونها أصبحت بلا إثارة.. ولا إحساس.. وظلّ كلّ شيء يسيرُ في نسقِه الرّوتيني العادي، وأحيانًا في نسقٍ تصاعديّ مُربك ماعدا روحه العاشقة التي بدأت أفتقدها شيئًا فشيئًا.

وبتكرار هذه الحالة بدأتُ أشكّ، وفكّرت في البحث عن الأسباب، ولكشف الحقيقة قرّرت مراقبته.

***

قرأ كلماتِها بسرعة، ولم يشدّ انتباهه غير الجُملة الأخيرة التي قرّرت فيها زوجته أمل مراقبته.

بدأتْ دقّات قلبه تتسارع، وأفكارُه تتشتّت، والتّساؤلات تنهشُ تفكيرَه شّبه المشلول في ذلك الوقت.

تُرى كيف راقبته؟ وما الذي توصّلت إليه؟ ومنذُ متى كان لجميلته شياطينُ صغيرة تتراقص في ذهنها وتدعوها للدّخول في مغامرة غيرِ محسوبة النّتائج؟ تساءل في نفسه، ثمّ مرّ بسرعة إلى الصفحة الموالية.. وما إنْ قرأ تاريخ وساعةَ المذكرة بعنوان "المراقبة" حتّى اعتدل في جلسته كأنّه أمام قاضٍ يستنطقُ متّهماً في انتظار إصدار الحُكم عليه، وبدأ يلتهمُ السّطور بعينيه.



المراقبة

اليومَ عدتُ من العمل باكرًا.. في الواقع لم أستطعِ التّركيز، كنتُ طوال الوقت أفكّر في طريقة مثلى وآمنةٍ لمراقبة زوجي آدم، ومعرفة سرّ تغيّره، وأنا متأكّدة أنّ ذلك السّبب ليس من داخل البيت؛ وإنّما من خارجه.

بحثتُ في الإنترنت على رقم "شركة تحرّيات خاصّة"، واتّصلت بهم، وجاءني الردّ على الفور من موظّف الشركة، طلبت منه أنْ يشرح لي طبيعة عملهم لأنّ معلوماتي في المجال محدودة، وتقتصر على فيلم أمريكي كنتُ قد شاهدته حيث قامت البطلةُ بالتّعاقد مع شركة تحرياتٍ خاصّة لجمع معلومات عن زوجها.

أخبرني الموظّف أنّ شركتهم تعملُ على نطاق واسع عبْر القارات، وبشكل منتظم ومُتْقن، كما أنّها تعمل على نطاق محدودٍ في إطار الزّمان والمكان المتّفق عليهما حسب العقد، وأنّ وظيفتها تتمثل في القيام بالتحرّيات وجمع المعلومات اللّازمة للكشفِ عن تساؤلات العميل، والكشف عن الحقائق المطلوبة للمتعاقَد معه حسب المجال؛ اجتماعيًّا كان أو مدنيًّا أو جنائيًّا، وأضاف أنّ عملهم يعتمد على جمْع الأدلّة الماديّة والمستندات الرسميّة التي تمكّن العميل من استخدامها في رفع دعوة قضائية، وأنّها أدلّة وإثباتات معترَفٌ بها قانونيًّا.

وفهمتُ أنّ ذلك يتمّ حسب عقد يبْرَم بيني وبين الشّركة؛ بحيث أطلب أنا ما أريد من المعلومات والأدلّة، وتطلب الشّركة في المقابل مبلغًا ماديًّا تحدّده نظير خدماتها.

وافقتُ على الفور، وأخبرته أنّني أريد مراقبة زوجي، وأريد معرفة سرّ تغيّره؛ هل هي مشاكلُ عميقة في العمل؟ أم هي امرأة أخرى؟ أم ماذا بالضّبط؟

***

سألني الموظّف عن بعض التفاصيل، ثمّ حدّد مبلغًا ماليًّا للمهمّة في مرحلة أولى، ولمدّة شهر، على أنْ يكون هذا العقد قابلًا للتّمديد حسب رغبتي، وحسب النتائج الأوليّة، والتي قد أكتفي بها.

في الواقع، لم يكن المبلغُ المطلوب بسيطًا، ولكنّني لم أتردّد للحظةٍ واحدة، فنتائجُ هذه المغامرة قد تقلب حياتي رأسًا على عقب، والأمرُ بالنسبة لي يستحقّ التهوّر والمجازفة، واتّفقنا على موعد بالشركة لإمضاء العقد.

أمّا عن شعوري الآن فهو متناقضٌ للغاية؛ فمِن ناحية أشعر بالرّاحة لأنّني أخيرًا سأكتشف الحقيقة كاملةً بكلّ تفاصيلها أيًّا كانت، ومن ناحيةٍ أخرى أحتقرُ نفسي لأنني لجأتُ إلى هذا الأسلوب المنحطّ- المراقبة والتجسّس- لمعرفة ما يدور في الخفاء، ولكنّه بالفعل لم يتركْ لي خيارًا آخر.

***

الفصلُ الرّابع

الدّكتور ماهر



كان الدّكتور ماهر منسجمًا مع السّطور التي كتبتْها أمل وهي تسردُ فيها قصتها في صفحات اختارت لها عنوان "أنايِيس"...

عندما رنّ جرسُ الهاتف ليدور حوارٌ مطوّل مع صديقه المقرّب الأستاذ "نديم الرّاشدي" الذي يدير مكتبَ محاماة مستقلّ، ويعتبر من الوجوه البارزة في ساحةِ القضاء لتفانيه وذكاء مرافعاته.. إذ كان دائمًا ملمًّا بحيثيّات قضاياه، ولا ينطق إلّا بقوّة الأدلّة والإثباتات والبراهين. وفي أحيان كثيرة عندما يتأكّد من براءة موكّله، ورغم صعوبة موقفِه القانوني، فإنّه يلتجئ إلى استغلال الثّغرات القانونية وبعض الأساليب الذكيّة الخاصّة جدًّا لإثبات براءته.

طلبَ نديم من صديقه ماهر أنْ يخرجا للعَشاء معًا، وتبادل أطراف الحديث، لكنّ هذا الأخير كان يتلهّف شوقًا لمعرفة بقيّة ما كتبته أمل.. تلك الحالة المنْهارة داخل العناية المركّزة، المحاطة بجملة من الأسلاك كخيوطِ العنكبوت حسب تقريرها الطبي.

لذلك اعْتذر منه على أنْ يلتقيا في الغد، أنْهى المكالمة ثمّ أحضر دفترًا خاصًّا به، وقلمًا، وواصل انْدماجه في الرّواية، وهو يخطّ بعضَ الملاحظات السّريعة بين الحين والآخر أثناء القراءة.



الجزءُ الثّاني

أنابيس



عدتُ بعدها إلى المنزل وأنا أشعرُ بقاذفاتٍ صاروخية تشتّت ذهني، وجدتُ نفسي في مواجهة الحقيقة، أو لعلّها مواجهة مع ذاتي ومبادئي.

وكانَ السّؤال الوحيد الذي سيطرَ على تفكيري ليلتها هو:

هل أواصلُ العملَ بعد اكتشافي لحقيقة تلك الشّركة؟ أم أنسحبُ على الفور، خاصّة أنّ العقد ساري المفعول بتاريخ بداية أوّل يوم عملٍ رسمي لي؟

ليلةٌ عنيفة عشتها، تصادمت فيها مبادئي وتناقضت قراراتي بين بدْء العمل وبين تقديم الاعتذار على الفور، والبحث عن عمل آخر.. وانتهت تلك اللّيلة بتدخّل بعض الشّياطين الصغيرة بداخلي لحسم النّزاع لصالح العمل.

حيث وسوسَ لي الشيطان الأول:

– عن أيّة مبادئ تتحدّثين! إنّك لا تعيشين داخلَ المدينة الفاضلة، فالكلّ ينافق على طريقته، والكلّ يرقص على دفّه ومزماره من قمّة هرم المجتمع إلى أسفل قاعدته.

صوتٌ ملائكي يجيب:

– تلك هي مشكلتُنا نحن العرب، ننقد الجميعَ ونلعن الظروف، ونستاء من الأوضاع، ونتمرّد على الواقع المتخلّف؛ ولكنّنا لا نحاسب ذواتنا، ولا نبدأ بتصحيح مسارنا، ولا نغيّر من أنفسنا، والكلّ يرزح تحت بوتقة الجهل وقلة الوعي.

هكذا نحن، داخلنا مُتواطئ مع النّفاق بشكلٍ أو بآخر، بقصد أو دون قصد، وخارجنا ساخطٌ رافضٌ ينتظر تغيير الواقع بأنْ يأتي عبر مركبةٍ فضائية من كوكبٍ آخر مازال مجهولًا!

قطعَ حوارنا شيطانٌ آخر قائلًا:

– ألا تتذكّرين الاتصال الذي دارَ منذ أيام بين "لارا" وتلك العجوز الفرنسية العنصرية، التي شكت في أصول "لارا" العربية من خلال لكْنَتها المتلعثمة، وانْهالت عليها وعلى العرب سبًّا وشتمًا، ودعت عليهم بالانقراض أو الاحتراق لإراحة العالم من جهلهم وغبائهم وداعشيّتهم.

ثمّ إنك لن تتعاملي مع عربٍ مثلك، بل مع بلدٍ كان في يوم ما من الماضي يستعمركم ويستنزفكم ويقتلكم.

وإلى اليوم هُم لا يزالون كذلك، ولكن متخفّين تحت عباءة السياسات الخارجية المشتركة بين البلدين، هُم لا يسكنون أرضكم، ولكن يتحكّمون في وطنكم، إنّهم يستعمرونكم عن بعد، وهذه فرصتك للانتقام منهم على طريقتك.

صوتٌ ملائكي يجيب:

– ديننا يدعو إلى الصّدق وحسن المعاملة، لا إلى النفاق والاستغلال.

اقتحم الحوارَ شيطانٌ آخر، أو لعلّه كبيرهم:

لقد كنتِ مثالية وصادقة في حبّك لمالك طوال سنوات الجامعة، واليوم اختار ذلك البلد وفضّله عنك وعن حبّك،، وتركك تتخبّطين بداخلك تبْحثين عن الهروب إلى حدودٍ تتعدّى حدود ذكرياتك معه في هذا البلد.

***

صمتَ الصوتُ الملائكي بداخلي، وتذكّرت آخرَ حوار دار بيني وبين مالك يومَ أخبرني أنه قرّر الزواج والهجرة، كان يصطنع الحزنَ والتّأثر وهو يقول:

– حبيبتي سامحيني، وانتظريني أرجوكِ، أنا فقط سأتزوّج ابنة عمّي لأحصل على الجنسية الفرنسية وأرتّب أموري، وبعدها سأطلّقها وأتزوّجك، وأصطحبك معي إلى فرنسا لنكمل قصّتنا سويًّا.

يومها نظرت إليه باحتقار وبرود، وبداخلي براكينُ تتأهّب للانفجار في أية لحظة:

– أنتَ حقير، أنت لم تخذلني ولم تخذل قلبي فحسب؛ بل إنّك قد خذلت مشاعرك وأحاسيسك، وستخذل ابنة عمّك رغم أنها من لحمِك ودمك، تلك الإنسانة التي ستقف إلى جانبك.

– لكنّني أحبّك، وأريد إسعادك.

همسَ بصوت دافئ في محاولة يائسة لإقناعي بانتظاره..

أجبته ببرود:

– للأسف أنا لا أبني سعادتي على أنقاض قلبٍ آخر محطّم.

قاطعني قائلًا:

– كمْ أنت مثاليّة يا حبيبتي في عصرٍ أصبح النّفاق هو سبيلَ النجاح فيه.

– وكم أنت وغدٌ وسيّئ يا هذا، أنا ندمتُ على كلمة "حبيبي" التي أهديتُك إيّاها، بصدقٍ، في زمن النّفاق هذا...

إنّك لن تستطيع أن تخضع عقلَ المرأة إذا رفض.. فوحده جنونُ القلب يستطيع إرضاخها.

وقبل أنْ يجيب أيّ صوتٍ ملائكي بداخلي، جاءني صوت آخر يقول:

ماذا عن "لارا"، وعن ذلك التحدّي وتلك المنافسة، لقد كانت تتصيّد الفرص لاستفزازك، وما انفكّت تنعتك بالغرور، وكنتِ تنتظرين فرصة بدء العمل والجلوس مكانها لتلقّنينها درسًا في اللغات وكيفية "الاستقطاب"؟

ساعات من الصّراخ الدّاخلي المزمجر انتهى باتّخاذي لقرار بدء العمل في اليوم التّالي، واقتحام هذا العالم المجهول من أوسع أبوابه.

***

في صباح اليوم التّالي، وتحديدًا السّاعة الثامنة تبادلنا الأماكن حيث جلست على كرسي الاتّصالات واتخذت "لارا" مكانَ المتابعة في صمت إلى جانبي.

لم أكنْ أشعر بالتوتر أو القلق في ذلك اليوم، بل بالعكس يبدو أنّ بداخلي ميولًا نفاقيّة دفينة بدأت تجدُ طريقها أخيرًا إلى النور، أو لعلّ الهرمونات السلبية قد نشطت بكثرةٍ في جسدي في ذلك اليوم، حيث كنت متحمّسة للنفاق والكذب، واستقطاب أكبر عددٍ من الأشخاص مهما كلفني الأمر.

وضعتُ السّماعات وبدأت بالتّحاور مع أوّل اتّصال، حيث اتّصل الحاسوب برجل يدعى "فرديريك"

جاء صوتُه هادئًا متثاقلًا بعض الشيء..

– ألو صباح الخير، السيد "فريديريك" معي على الهاتف؟

– نعم. مَن معي؟

تعمّدت مباغتته بسرعة وتلقائيّة، ووضعته في إطار نفسي مُفْرح يتقبّل من خلاله الجائزة الوهمية كأمرٍ طبيعيّ، وتحصيل حاصل.

– صباحُك سعيد، أنا "أناييس" مندوبة شركة "أميكو" الفرنسية، ويسعدني إبلاغك أن السحب الآليّ عبر الحاسوب لشركتنا قد وقع اختيارُه عليك للفوز بجائزة الشّركة لهذه السنة، ألف مبروك.

أطلقَ السيد "فريدريك" صرخةَ فرحٍ قصيرة وواصل:

– أووه... شكرًا لك، هذا خبرٌ جيد. وما هي الجائزة؟ وبأيّ مناسبة وقع هذا السحب؟

أجبتُه على الفور:

– السّحب كان احتفالًا بنجاح شركتنا للعام الثّالث على التوالي، أمّا الجائزة فهي حسب اختيارك، إمّا مبلغ مالي يقدّر بألف وخمسمائة يورو، أو تذكرة سفر إلى بلدٍ تختاره حضرتك، أو شيء آخر من منتوجاتنا.

أجابَ بحماس:

– هذا رائع، ومتى يمكنني استلام الجائزة؟

– يمكنك الاتّصال فورا بالقسم المسئول عن توزيع الجوائز لاختيار جائزتك والتنسيق معهم، هل لديْك ورقة وقلم؛ سوف أملي عليك الرقم.

– أجل لحظة، نعم أتابع، تفضّلي.

أمليتُ عليه الرقم الأحمر للاستقبال، قمتُ بتهنئته من جديد، شكرني وأغلق الخطّ، وسجّلت مكالمة إيجابية، كانت "لارا" تستمع إلى حديثي بذهول،

وحاولت خلال المكالمة لفت انتباهي بالإشارات أنّه عليّ الإسراع في إنهاء المكالمة، لكنّني تجاهلتها، وبعد انتهاء المكالمة لم أتمالك نفسي من إهدائها غمزةَ تشفٍّ مع ابتسامة غرور، لقد بدأت اللّعبة، والخطّ مفتوح...

- ألو، مَن معي؟

- هل أتحدّث إلى السيدة "ماتيلدا"؟

- أجل. مَن معي؟

صوت سيدة مسنّة جاءني على الطّرف الثاني، تبدو حذرةً من الحديث مع الأغراب... وبصوت دافئ أجبتها لكسب ثقتِها:

- صباح الخير سيدة "ماتيلدا"، أنا "أناييس" من شركة "أميكو" الفرنسية، أرجو أن لا أكون قد أزعجتك؟

- أهلًا، تفضّلي.

أجابت بهدوء هذه المرّة.

هذا النّوع من السيدات المسنّات من الخطأ مباغتتهم أو مفاجأتهم، فنسبة تركيزهم واستيعابهم للأمور في هذه السنّ المتقدّمة تكون بطيئة بعض الشيء، سواء أخبار مُفرحة كانت أو محزنة، فاخترتُ تمهيد الأمور لها على طريقتي.

- سيدة "ماتيلدا"، كما تعلمين قريبًا يبدأ التجهيز لاحتفالات عيد المسيح ورأس السنة، لذلك فقد قرّرت شركتُنا بهذه المناسبة طرحَ جوائز احتفالًا باقتراب العيد، وقد كان اسمك واحدًا من بين هذه الأسماء الفائزة معنا، فألف مبروك.

سكتتْ لبرهة كأنّها لم تستوعب الأمرَ بعدُ، فأضفت مؤكّدة:

– نعم سيدة "ماتيلدا"، لقد فزتِ معنا بجائزة مهمّة قد تصل إلى ألف وخمسمائة يورو حسب رغبتك..، أنتِ فعلًا محظوظة جدًّا!

***

انبعثت منها صيحةُ سعادة جريئة بعضَ الشيء،كأنّها عاشقة مُنبهرة بفستان عرسها الأبيض وهي تجرّبه لأوّل مرّة أمام المرآة خفية، ثمّ قالت:

– هذا خبرٌ رائع، يناسبني جدًّا، فأنا أفكّر منذ مدّة في تحسين حديقة منزلي.

أعطيتُها الرقم الأحمر، وأكّدت عليها أنْ تعيد الاتّصال بالمسئولة عن الجوائز للتنسيق معها، شكرتني كثيرًا، وأغلقت الخط.

كنت أشعرُ بغيرة "لارا" الجالسة إلى جانبي، وبامْتعاضها المتصاعد مع ارتفاع نسبة الاتّصالات الإيجابية، من خلال حركة ساقيها المتوتّرة التي تحاول تهدئتها بين الحين والآخر، وحركة جلوسها غير الثابتة، بالإضافة إلى حركةِ فرقعة أصابع يديها المستمرة.

خلال استراحة الرّبع الساعة الأولى تصنّعت الهدوء واللامبالاة، وأخبرتني أنّه عليّ الإسراع في الحديث والاقتضاب في المكالمات، ولكنّني تجاهلتها.

نفسُ الأمر تكرّر في راحة الغداء، ولكن هذه المرة بلهجة أحدّ فضحَتْ غيرتها بوضوح، وكشفت عن روحِها السّلبية الحاقدة، مؤكّدة أنّ طريقة عملي مختلفة تمامًا عن ما علّمتني إيّاه طوال أسبوع من التّدريب، وأنّ هذا

الأمر لن يعجب المديرة، وأنّني قد أخسر عملي إنْ واصلت على هذا النسق البطيء نوعيًّا في استقبال اتّصالات الحاسوب.

***

كنتُ مستمتعة جدًّا وأنا أستمع إلى ثرثرتها الحمقاء، وتهديدها الغبي، وكانت ردودُ فعلي الباردة تقتلها، فقد كانت تحاول استفزازي واستدراجي إلى شجارٍ كلامي ينتهي بنا في مكتب المديرة قبل أن أنْهي يومي الأوّل، فقرّرت في نفسي أن أحقّق لها هذه الأمنية، ولكن في الوقت المناسب.

ابتسمتُ في داخلي وأنا أفكّر في القاعدة التّاسعة للكاتب "روبرت جرين" من كتابه "قواعد السّطوة" حين كتب "الانتصاراتُ اللّحظية التي تظنّ أنّك أحرزتها بالجدل هي في الحقيقة انتصارات سفيهة: فالامتعاض والضّغينة التي تتركها تفوق في قوتها وبقائها أيّ تغيّرات لحظيّة في آراء الآخرين معك من خلال أفعالك دون أن تتفوّه بكلمة، أعرض ولا تشرح".

خلالَ راحة الغداء لم أستمتعْ بالأكل مع وجودِها المتعمّد على طاولتي، الوضعُ كان رتيبًا في "الكافيتريا" كالمعتاد، والعمّ سالم يتقاسم دور البطولة مع الشابّ "شادي" وراء فترينة الأكل، ويتألق في تجهيز الوجبات بسرعة فائقة.

في لحظات الذّروة هذه، حيث جميعُ العاملات يرغبْن في الحصول على أطباقهنّ بسرعة، للاستفادة من كلّ دقيقة في هذه الاستراحة بالأكل والاسترخاء من ضغط الاتّصالات، والعمّ سالم لا يدّخر مجهودًا في تحقيق ذلك.

***

اقتربت "ريتا" من طاولتي، وسألتني عن سيْر العمل معي، فرمقتُها بغمزةٍ خفيفة فهمتْ معناها على الفور، وأخبرتها أنّ الأمور تسير على ما يرام، وتحت السيطرة.

انتفضت "لارا" في هذه اللحظة موجّهة الحديث إلى ريتا:

"إنّ أمل بطيئةٌ في استقبال اتّصالات الحاسوب، وأنا نصحتها كثيرًا، ولكنّها عنيدة ومغرورة"

ابتسمت ريتا واعتذرت للصّعود إلى قاعة الاستقبال، وبانسحابها مع نظرةٍ خاطفة نحوي دمدمتْ ريتا باللّغة الإنجليزية "اللعبة مفتوحة".

اتّخذت مكاني، وواصلت استقبال اتّصالات الحاسوب بمزيدٍ من الثّقة هذه المرّة، كانت اللعبة ممتعة، وكان العملُ بمثابة التدرّب على فنون الإقناع بالنسبة لي.

انتهى اليوم الأوّلُ من العمل وتوقّفت الاتّصالات بنتائج إيجابية للغاية، ما عدا بعض الاتّصالات التي كان أصحابُها على عجلةٍ من أمرهم، واعتذروا عن الحديث منذ البداية.

لم تكنِ الحالة النفسية لـ "لارا" بخير؛ فقد كانت النتائج عكسَ توقّعاتها، ولكنّها لاَ تزال تكابر متباهية بسرعتها في الردّ على أكبر عددٍ من الاتّصالات خلال اليوم الواحد، لم أتمالك نفسي من إغاظتها، وقلت:

"حسب رأيي أنتِ خسارةٌ على الشركة، فكثرةُ استقبالك لاتّصالات الحاسوب بلا فائدة، أغلبها تنتهي بالشّتم، أو غلق الخطّ في وجهك، أو رفض الجائزة، ونادرًا ما تكون إيجابية".

***

شعرتْ "لارا "بالإهانة، وقرّرت الصّعود إلى المديرة لتلقيني درسًا، بعد عشر دقائق بالضّبط مرّت بجانبي "لارا" وهي تبتسم ابتسامةَ شماتة وانتصارٍ لتخبرني أنّ المديرة في انتظاري بمكتبها.

تساءلت في نفسي هل يُعقل أن تكونَ المديرة بهذا الغباء!؟ وهل يعقل أنني قد أسأت تقدير شخصيّتها في أوّل مقابلة لنا قبل أسبوع؟

وصلتُ أمام مكتبها فتوقّفت لبرهة لأخذ نفسٍ عميق، ثمّ طرقت الباب ودخلت. كانت تجلس وراء مكتبها باسترخاء، وبطنها بدأ يتكوّر أمامها فهي حامل في شهرها الخامس، جلتُ بنظري في أرجاء المكتب، وجالت بعقلي بعضُ التّساؤلات دون أنْ أركّز النظر على شيء محدد.

لا أدري كيف تغذي جنينها من أموال التحايل!؟ ترى كيف أقنعتها شياطينُها بهذه الفكرة الجهنمية وبعث مثل هذا المشروع الوهمي؟

***

كانت منهمكةً بالاستماع إلى بعض الاتّصالات المسجّلة، وكانت تضغط على الأزرار، وتنتقل بين هذه الشّاشات وتلك، وما إنِ انتبهت لوجودي أمامها حتى خلعت السّماعات من أذنيها، واستقبلتني مصافحةً بحرارة، وعلى شفتيها ابتسامةٌ عريضة تزامنت مع لمعانِ عينيها اللتين تشعان ذكاء وفطنةً، مرحّبة بالفرنسية:

– "أنابيس".. اسمٌ رائع، واختيار موفّق.

– شكرًا.

لم تذكرْ اسمَ أمل، وخاطبتني طوال الوقت باسم "أناييس"، وكأنّها تقول لي أنا لا أعترف بشخصية أمل هنا في الشّركة، أنا فقط أحتاج إلى "أناييس"، ثمّ واصلت:

- "أناييس"، لقد تابعت جميعَ اتّصالاتك منذ الصّباح، وكنت سعيدة جدًّا بطريقة عملك، لقد كنت قريبةً من الأشخاص، وحضورك الصّوتي كان مميزًا في كلّ اتّصال، لقد أدرت الحوارَ بشكل رائع وبطلاقةٍ مذهلة، أنا فعلًا فخورة بك.

صمتتْ قليلًا، ثمّ واصلت:

لقدْ راهنت نفسي منذ اللّحظة التي سمعتُ فيها صوتك ولكنتَك الفرنسية على أنّك ستتألقين في عملك بسرعة.

أردتُ أن أقاطعها في سخريةٍ وتهكّم، كأنْ أقول لها عن أيّ عمل تتحدّثين؟ عن الكذب والنفاق؟ ولكنّني تمالكت نفسي، فهذا العملُ ليس إلّا محطّة قصيرة بالنسبة لي، وتجربة عرضية على هامش مسيرتي، أو هكذا اعتقدت حينها.

لذلك يا أناييس، ستكونين أنتِ أوّل عاملة تنتقل مباشرةً بقسم الاستقبال بعد أوّل يوم عمل لها.

...كنت أريدُ أن أسألها..

- ولكن...

وقبل أن أكمل جُملتي ضحكت السّيدة "نادين"، وقاطعتني:

– لقد جاءت "لارا"، وأخبرتني أنّك تطيلين الحديث في كلّ اتّصال، وأنّ هذا العمل لا يناسبك، فأخبرتها أنّني أوافقها الرأي، وأنّي أرى نفسَ الشيء بأنّ المكان لا يناسبك، وطلبتُ منها إخبارك أنني أنتظرك في مكتبي.

لقد أردتُ إخبارك أنّني قرّرت نقلك إلى قسم "الاستقبال" ابتداءً من يوم غد، وأنّ "ريتا" هي أفضل عاملة لديّ هناك، وهي مَن ستقوم بإيضاح العمل لك دونَ تدريبٍ، فأنت لا تحتاجين إلى تدريب، يكفي بأنْ تراقبيها غدًا وتبدئين العمل بعد غد مباشرة.

في قسم الاستقبال، كان المطلوب منّا هو استدراجَ الفائزِ بالجائزة الوهمية بطريقةٍ ما للخوض في أحاديث جانبيّة، الأمر الذي سيعود على الشّركة بأرباح مالية وافرة جرّاء تلك الدقائق الطويلة من المكالمات باهظة الثمن.

***

مرّ شهرٌ على هذا النّسق، كنت أستغلّ المسنّين الذين يتّصلون طمعًا في الجائزة، وأبني لهم قصورًا من الخيال، وأخوض معهم بشتّى النقاشات والأحاديث.

كنّ يشعرن بالوحدةِ والملل، ويجدن في تبادل أطراف الحديث معي متعةً وأنسًا، وكنت أستغلّ هذه الفرص لتحقيق أرقامًا قياسية نسبيًّا في طول المكالمات، ومازلت أذكر تلك السيدة المسنّة التي روت لي ذكريات طفولتها، وكانت مصابةً بالزهايمر المتقطّع، وظلت تعيدُ على مسمعي الأحاديث والروايات، وكانت أحيانًا تبكي، وأحيانًا أخرى تضحك.. وكثيرًا ما كانت تترك الخطّ مفتوحًا، أو تقوم ببعض الأعمال وتعود صدفةً لتجدني في

انتظارها على الخطّ، بينما كنت في الأثناء أراسلُ صديقاتي من هاتفي الخاصّ، والخطّ مفتوح معها.

نعمْ، كنت سيئةً في تلك اللحظات، سيئة جدًّا، أمّا المديرة فكانت منبهرةً بنتائج عملي.

عملت بهذا الطّابق إلى أنِ استقبلت ذاتَ يوم اتّصالًا من سيدة عربيّة مقيمة بباريس، كانت تبكي منهارةً تلتمس منّي مساعدتها في الحصول على الجائزة المالية، وأخبرتني أنّها مريضة بالسّرطان، وتحتاج إلى هذا المبلغ بشدّة لتوفير بعض الأدوية الباهظة التي لا تقدَّم مجانًا.

اعتذرتُ منها على الفور، وطلبت منها أنْ لا تتّصل بهذا الرّقم ثانية، وأغلقت الخطّ، لم أستطع استغلالها فهي مريضةٌ وتحتاج إلى المال، ومجرّد تبادل الحديث معها سيكبّدها فاتورة هاتف خيالية، وهذا ما حاولت تفاديه.

***

شعرتُ بالانزعاج من هذا القسم، وطلبتُ من المديرة نقلي لكي أتجنّب مثل هذه المواقف المحرجة التي تضعني في مواجهةٍ مع ضميري الذي كان يتمرّد أمام بعض الحالات.

رحّبت المديرة بالفكرة، وكأنّها كانت تنتظر هذه اللّحظة، أو تخطط لها تدريجيًّا؛ حيث قامت بنقلي إلى الطّابق الثاني، هذا الطّابق المجهول بالنسبة لبقيّة العاملات، والذي بدأت فيه قصتي، قصّة عشق في الظّلام من وراء الستار.

في الأثناء، كانت نتائجُ دراسة اللغة الألمانية ممتازة، ولم يتبقّ سوى بضعة أشهرٍ على اجتياز الاختبار النّهائي الذي سيمكّنني من الحصول على تأشيرة سفر، وعقد تكوين عملي بألمانيا.

يسمّى الطّابق الثاني من الشّركة بطابق "العرافة"، وهو عبارة عن أرقام تتّصل بها عاملات الاستقطاب بذاك الطّابق، وإخبار الشّخص أنّه فاز بجلسة لقراءة الطّالع مجانًا.

عندَ موافقة الشخص يتمّ تدوين تاريخ ميلاده، ثمّ تحويل الاتّصال مباشرة على قسم العرافة لتخبره عن طالعه بالاستناد إلى بعض المعلومات والبيانات التي تظهر تباعًا على شاشة الحاسوب من خلال برمجة دقيقةٍ ومعقّدة، وذلك في شكل ملفّ كامل كاسم الشّخص ولقبه وعنوانه، وتاريخ ميلاده وبرجه، بالإضافة إلى معلوماتٍ دقيقة عن ذلك البرج، والكثير من التّفاصيل المعلوماتية التي لا أعرف كيف يتوصّل إليها الحاسوب في ثوانٍ..

***

تحاول العرافة كسبَ ثقة ذلك الشّخص ليعيد الاتّصال مرّة أخرى، وتحاول إطالة الحديث معه كالعادة، تقريبًا نفس عملية التّحايل التي تقع في الطّابق الأول تتكرّر في الطابق الثاني نظريًا، لكن عمليًا الأمور تختلف كثيرًا.

ففي الطّابق الثاني كنّا ننسلخ عن شخصياتنا تمامًا منذ اللّحظة التي تطأ فيها أقدامنا غرف العرافة، وهي عبارة عن غرفٍ صغيرة، كلّ غرفة منها منفصلة تمامًا عن الأخرى، يكون الحاسوب فيها مجهّزًا بآلية الصّوت والتحكم فيه من خلال الضّغط على الأزرار، أمّا الإضاءة داخل هذه الغرف فهي خافتة؛

بل تكاد تكون مظلمة، والشّبابيك فيها مُغلقة تمنع أشعّة الشمس، أو أيّ أصوات خارجية من التسرّب واختراق هدوء الغرفة وتشتيت التركيز خلال قراءة الطالع.

باختصار، كان الدّخول إلى هذه الغرفة في الصّباح كدخول القبر، أخلع شخصيتي تمامًا كما أخلع ملابسي داخل غرفة الاستحمام، وأرتدي شخصيةً أخرى لا أعرفها، شخصية مزيّفة اسمها "أنابيس"، تتقمّص دور العرّافة حينًا، ودور المحلّلة النفسيّة أحيانًا أخرى.

كنت- كلّ يوم- أترك "أمل" أمامَ باب غرفة العرافة، أنسلخ منها تمامًا، وأخطو داخل العالم المزيف بخطوات "أنابيس"، نعم.. فكلّ شيء داخل الغرفة هو زيفٌ وكذبٌ، ولا أساس له من الصحة.

***

اسمٌ مستعار، صوت مركّب، حتّى صورة أنابيس على موقع العرافة مختلفة عنّي جذريًّا، وأكبر سنًّا بعضَ الشّيء كي توحي بالجديّة والخبرة، معلومات شخصيّة مزيفة، لغة أجنبية؛ حيث كانت كلّ اللّغات مسموحٌ بتداخلها في الكلام عند الضّرورة إلّا اللغة العربية بالذّات؛ فهي ممنوعة.

عملٌ يستنفذ طاقتَك ومجهودك في كلّ لحظة، وتركيز كليّ طوال الوقت في طرح الأسئلة وبلورة الإجابات، ثمّ إعادة توظيفها في شكل معلومات تُساق إلى الشّخص من جديد في شكل معطيات يفاجأ بسماعها.

هذا العمل قد تجاوز الإرهاقَ الجسدي كالصّداع المتكرّر وآلامِ الظّهر إلى الإرهاق النفسي جرّاء هذا الانفصام اليومي للشّخصية. إذْ وجدَت نفسي

أتعايشُ مع شخصية "أناييس" في الصّباح بأدقّ تفاصيلها، وشخصية "أمل" في المساء.

تطلّب منّي هذا العمل الكثيرَ من التركيز والانتباه إلى كلّ نفسٍ وكلمة، وكلّ معلومة تذكر.

كنت أغوصُ في أعماق كلّ شخص متّصل، وأضع نفسي مكانه... كنت أبحث عن مداخل ومخارج النّفسية فيه، ونقاط قوّة وضعف الشّخصية بداخله..، للتمكّن من السيطرة عليه وكسب ثقته ليعيد الاتّصال مرّة ثانية.

وأكاد أجزم أنّ نصفهم كانوا أغبياءَ بالفطرة، وإيمانهم مهزوز، ولديهم استعدادٌ نفسي بداخلهم لتقبّل أيّة معلومة تخصّ مستقبلهم دون نقاش.

وأنّ النصف الآخر كانوا أذكياءَ جدًّا، ولا يؤمنون بالأبراج وقراءة الطّالع، ولكنهم كانوا يعيشون لحظاتِ انهزام نفسيّ يحتاجون فيها إلى دعم معنوي، ووجدوا في كلماتي بلسمًا لأرواحهم المتعَبة، وتشجيعًا لهم على تخطّيً أزماتهم النفسيّة، واستنشاق عبير الأمل.

ببساطةٍ كنتُ أكذب عليهم، وكانوا يصدّقونني، كنت أبيعُ لهم كلمات أمل، وكانوا يشترونها بأسعار باهظة.

أمّا الاستثناء، فقد كان اتّصالًا من شابّ يدعى "آدم".

آدم، الذي جعل من التّربة الافتراضية القاحلة المزيفة جنّةً صالحةً للحبّ.

***

الفصلُ الخامس

آدم



بعدَ رحلةٍ فوق السّحاب دامت قرابةَ ثلاثِ ساعات وخمْسٍ وأربعين دقيقة، سافر خلالها آدم بين صفحات مذكّرات أمل، حطّت به الطائرة في مطار "اسطنبول أتاتورك" الدولي.

وبعد إتمام إجراءات الوصول استأجرَ سيارة من مكتب لكراء السّيارات بالمطار، واتّجه بها إلى النّزل الفخم الذي كان قد حجزَ به مسبقًا قبل إقلاع الطّائرة من مطار "دوسلدورف" بألمانيا.

وهناك دلفَ إلى جناحه الخاصّ، وكانت السّاعة آنذاك تشير إلى السّادسة من مساء اليوم التالي للحادثة.. وبعد أن رتّب ملابسه في الخزانة، وضع أوراقه في خزنتها المشفّرة، وطلب من خدمة الغرف إحضارَ طعام العشاء إلى غرفة الاستقبال بالجناح.

***

في الأثناء دخل إلى غرفة الاستحمام حيث شغل الجاكوزي بالبخار، وارتمى داخل المياه الساخنة، التي تندفع بشكل لولبي، والتي تعمّد آدم أن يحدّد لوحة أرقامها على أقصى سرعة لتقوم بتدليك عضلاته وإرخائها، فقد كان يحتاجُ إلى هذه اللحظات ليزيل عنه عناءَ الأحداث ووساخة تصرفه الإجرامي الأحمق.

وبعد الانتهاء، واصل آدم تصفّحَ الدّفتر حيث توقّف هذه المرّة عند عنوان "خيانات زوجي"، وبدأ يقرأ بتوتّر...

خياناتُ زوجي

لم يطلِ انتظاري طويلًا؛ إذْ بعد ثلاثة أيّام من إمضاء العقد مع شركة التّحريات الخاصّة- وتحديدًا اليوم- هاتفني السيد "سيمون"، وهو رئيس المخبرين المعنيّين بملفّ مراقبة آدم، وطلب لقائي في الشّركة.

وعندما وصلتُ قدّم لي مشروبًا باردًا، وطلب منّي الانتباهَ وعدمَ التوتّر لأنّهم توصلوا إلى بعض المعلومات الهامّة.

بدأ قلبي يدقّ بسرعة؛ بل ينتفض، ويكاد يخرج من بين ضلوعي، ولكنّي تعمّدت الهدوء والسيطرة على نفسي.. فأنا مَن بدأت اللعبة، وأنا مَن سوف تنهيها.

شغّل السيد سيمون شاشةً كبيرة ملتصقةً بالحائط، وبدأ الشّرح...

"هنا بدأنا مراقبةَ زوجك منذ خروجه من باب منزلكما أوّل أمس ليلًا"

وبدأتُ أنظر إلى الشّاشة وكأنني أشاهد فيلمًا سينمائيًّا؛ صوتًا وصورة، والسيد سيمون يشرح:

"لقد وضعنا ميكروفونًا في سيارته، وشريحةَ مراقبة في هاتفه الجوّال الثاني الذي تركه في السيارة عند دخولِه إلى المنزل، وذلك بعد اختراقه من قِبَل زميلنا المهندس "مارك" أخصّائي الإلكترونيات والاتّصالات بالشركة كخطوةٍ أولى"

***

رأيتُ آدم يخرج من المنزل باتّجاه السيارة. أذكر حينها أنّه أخبرني عن موعدٍ مهمّ له يتمثّل في عشاء عملٍ مع عملاء جُدد للشّركة، وأنّه سيفتقدني كثيرًا، ثمّ قبّلني وخرج.

وواصلَ السيد سيمون شرحه:

"هنا كنتُ أراقبه من سيارتي الخاصّة بكاميرا أخرى بعيدة المدى"

ركبَ آدم سيارته.. ثمّ أضاف سيمون:

"وهنا، انتقلتُ إلى الكاميرا المزروعة في المرآة الأمامية التي تتوسّط لوحة القيادة في الأعلى"

كنت أشعرُ بالذّهول لهول ما أرى، أحدّق بعينيّ غير مصدّقة، وكأنّني بالفعل في قاعة سينما تعرض فيلمًا بوليسيًّا بتقنيات حديثة ومتطوّرة.

بدأ السيد سيمون يُسرع قليلًا في اللقطات لكي يصلَ إلى ما اكتشفه، ثمّ توقف عند لحظةٍ ما وأبطأ الكاميرا، وقال:

"هنا، تبدأ الرحلة، سيقوم زوجك بتأكيدِ موعدٍ غرامي مع صديقته"

ثمّ ضغط على زرّ التحكّم في الشاشة عن بعد، لأرى "آدم" يُخرج هاتفًا جوّالًا- لم أكنْ أعلم عنه شيئًا- من الصّندوق الداخلي للسيارة؛ حيث يحفظ أوراقه ونظارته الشّمسية وغيرها، وأجرى اتّصالًا هاتفيًّا:

- نعم حبيبتي، هذا أنا.

- ...... يستمع ثمّ يسأل:

- هل وصلتِ إلى الفندق؟

- .... أطال الاستماع بعضَ الشيء وهو يبتسم:

- دونَ شكّ ستبدين رائعة، فهذا اللّون يليق بك.

- ....يبتسم:

- لنرى إنْ كنت تستطيعين امتلاكي لليلةٍ كاملة.

- ...يستمع ثمّ يضحك، ثمّ يستمع ويضحك، ثمّ يقول:

- أتراهنيني؟ حسنًا، لنرى إنْ كنت تستطيعين الفوزَ في هذا التحدّي. (ثمّ يضحك).

- ....يستمع ثمّ يقول:

- لن أتأخّر، أنا في الطّريق إليك، ولكن بعد أن أمرّ على الشّركة؛ لديّ اجتماع مهمّ.

- ....يستمع ويبتسم بخبث، ثمّ يقطع كلامها بسرعة:

- حسنًا اهدئي، اهدئي حبيبتي، كنت أمزحُ سأكون عندك بعدَ عشْر دقائق من الآن. وأضاف:

- كم تبدين شرسةً وأنت تفتقدينني يا قطّتي.

أرسلَ بعضَ القُبُلات عبر الهاتف، ثمّ أنهى المكالمة مبتسماً.

كنتُ أستمع لنبراتِ صوته وهو يغازلها بسعادةٍ وشوق، كنت أتمزّق من سماعي لكلّ حرف ينطقه، شعرتُ بجسدي يخونني، وينتفض من مكانه رغمَ محاولاتي العنيدة والمتكرّرة للتماسك والالتزام بالهدوء، لاحظ السيد سيمون توتّري؛ فأوقف التّسجيل على الفور، وسألني:

– هل أنتِ بخير سيدة أمل؟

أجبتُه باقتضاب:

– أجل أنا بخير، واصلْ من فضلك.

بعدَ دقيقة من إنهائه لهذه المكالمة الغرامية المشتعلة، مسك هاتفَه مجدّدًا، اعتقدت أنّه سيعيد الاتّصال بها ليخبرها مثلًا أنه افْتقدها بسرعة، لكنّ السيد سيمون قرأ أفكاري وأبطأ التّسجيل قائلًا:

"هنا سيقوم زوجُك بالاتّصال مع امرأةٍ أخرى تتواجدُ في منزلها الذي يبعدُ بضع أمتارٍ فقط عن موقعه الحالي".

وضغطَ على الزّر مرّة أخرى لمواصلة التسجيل..

– ألو، ألو مونيكا، هل تسمعينني؟

– ... يستمع إليها ثمّ يجيب:

– أجل أنا أسمعك بوضوح يا عزيزتي، آسف لقد كنتُ مشغولًا بعض الشيء، ويومي كان متعبًا ومثقلًا بالأعمال.

– ...يستمع بخبث ثمّ يقول:

– أنا أيضًا افتقدتّك، ولكن ليس كثيرًا. (ثمّ يضحك)

– ... يستمع ويضحك ثمّ يضيف:

– أنا أمامَ منزلك الآن، ألنْ تستقبليني إذًا؟

– ...يستمع، يبتسم، ثمّ يضحك كثيرًا ويقول:

– افتحي الباب إذًا لنرى كيف سيكون انتقامُك منّي.

أنهى المكالمة وأوقف السّيارة في شارعٍ منعزل بعضَ الشّيء أمام منزلٍ صغير ألمانيّ الطراز، ذي طابقين، تحيط به حديقةٌ صغيرة مزهرة.

غيّر السيد سيمون الكاميرا الخاصّة به، نزل آدم من السّيارة، فتح الصندوق الخلفي لها، أخرج باقة زهور، وذهب باتّجاه الباب، وقبل أنْ يرنّ الجرس فتحتْ له فتاةٌ الباب، وارتمتْ في أحضانه مستقبلةً له بكلّ حرارة.

هنا، أوقف السيد سيمون التّسجيل عند عناقها له أمام الباب، وقام بتقريب الصورة.

هتفتُ باستغراب.. "إنها مونيكا، إنّني أعرفها، لقد قدّمها لي آدم في إحدى الحفلات، وأخبرني ليلتها أنّها خطيبة صديقه"

***

دخلَ آدم، وأغلقت مونيكا الباب وراءه، وانقطع التّسجيل، ودون أن أشعر صرختُ في وجه السيد سيمون متسائلة عن سببِ انقطاع التّسجيل، فأخبرني أنّ آدم لم يحمل معه الهاتف الذي يحتوي على شريحة المراقبة، لكنّه التقط لهما بعضَ الصّور الفاضحة من شرفة المنزل، وبعض النوافذ المفتوحة، ووضعها أمامي على المكتب.

أمسكْت الصّورَ بيدين مرتعشتين، نظرت إلى بعضها بسرعةٍ دون تركيز، واستأذنت منه في الدخول إلى الحمّام، شعرت بحالةٍ من الغثيان المفاجئ، ودوار شديد في رأسي، فقد كانت تلك اللحظات من أسوأ اللّحظات التي قد تعيشها زوجةٌ عاشقة مخدوعة، لم أستطعْ تصنّع الهدوء؛ فالصّدمة كانت قاتلة.

***

بعد انتهائه من قراءة المذكّرة ضرب آدم بكفّ يده على جبينه، واغرورقت عيناه بالدّموع، مفكّرًا في نفسه... "إذًا، هي كانت تعلم كلّ شيء، ومع ذلك لم تتفوّه بحرفٍ واحد.. لقد كانت تعاني وحيدة من خياناتي وأنانيتي، ورغمَ ذلك كنت أعودُ إلى المنزل فأجدها في أوْج أناقتها وجَمالها تنتظرني بابتسامةٍ ساحرة".

أشعلَ سيجارة، وسحبَ منها نفسًا عميقًا، ثمّ واصل القراءة.



الفصلُ السّادس

الدّكتور ماهر



عندما ظهر اسمُ آدم في أحداث القصّة..، أغلق الدكتور ماهر الدفترَ لأخذ قسطٍ من الراحة، متعلّلًا بالجوع، ورغبته في تناول وجبة العشاء.

أمسكَ هاتفه واتّصل بمطعم لبناني، وطلب بعضَ الأطباق المفضّلة لديه، استغرب بعد إغلاق الخطّ من كمّيّة الأكل التي طلبها، لا يعلم حينَها إنْ كان ما يشعر به نهمًا للأكل، أم نهم لمزيد القراءة ولذّة استراق لحظات خاصّة لحالة لديه يدرس مكنوناتِها.

ولا يعلم إنْ كان دخولُ اسم آدم في تلك اللحظة هو ما دفعه للتوقّف للحظات ليتأمّل ويستمتع بالأحداث من بعيدٍ كقارئ أو ككاتبٍ بعيدًا عن كونه طبيبًا نفسيًّا يدرس حالتها، أم هو الجوع كما أراد أن يوهم نفسه؟!

***

في الواقع، اختلطت عليه الأمورُ نوعًا ما، فأمل هي الحالةُ الأولى من نوعها التي يواجهها الدكتور ماهر في مجاله العمليّ، ويتعرّف إلى مكنوناتها من خلال كتاباتٍ شخصية صادقة لها.

ثمّ تمدّد على الأريكة، ووضع موسيقى هادئة محاولًا مواصلة القراءة، وتدوينَ الملاحظات.

وهناك.. على تلك الأريكة خامَرَه فجأة إحساسٌ دفين بالحزن، أحسّ بوخزة خفيفة في أمعائه، وانقباضٍ طفيف في قلبه، شيء ما ضغط عليه.. شيء ما طَفَا على سطح ذاكرته في جزءٍ من الثانية.

إنّها ذكرى "غادة"، الفتاة التي أحبّها سنوات الجامعة.. سنوات تبادلَا فيها كلّ شيء..، الحبّ والجنون والعهود والوعود..

سنوات خلّدت ذكراهما في كلّ ركنٍ من أركان الجامعة، حفرتْ فيها أحرف اسميْهما على كلّ جدار من جدرانها، ونقشت مواعيدهما الغراميّة على طاولات المدرّجات.

لم تكنْ غادة آنذاك حبيبتَه وزوجته المستقبليّة فقط؛ بل كانت طفلتَه المدلّلة، وملهمة كتاباته السرية، كانت النّبضَ السّريالي الذي يهمس له بالحروف، في عالمٍ روحيّ أخّاذ، تخطّى الواقع بمراحل، لا يمتّ للمنطق بصلة.

وكانت غادة تؤكّد له بأنْ لا معنى لحياتها بدونه...، بأنّها تحيا داخل جسدٍ بلا هوية في بُعده.

بعد التخرّج كلّلت علاقتُهما بحفلة خطوبةٍ جميلة داخل أجواء عائلية ساخنة..، حضرها الأقارب والأصدقاء.

سافرَ بعدها ماهر إلى ألمانيا بحثًا عن مستقبله شبه المعدوم في بلده كجلّ الشّباب..، وطلب منها: الوفاء، والحب، والثّقة.

أنْ تفي بوعودها له.. أن تظلّ على قيد حبّه.. وأن تثق به..

ووعدَها بالعودة والزّواج منها في أقربِ فرصة.. لقد ظنّ ماهر أنّ جنّة ألمانيا ستفتح له أبوابها على مصراعيها، وتحتضن أحلامه دون كوابيس.

ولكنْ هيهات.. إنّها الغربة يا سادة، حيثما وطئت أقدامُكم خارج أرض الوطن.

***

مرّت السّنة الأولى بعقباتها وعثراتها، ذاقَ فيها شتّى أنواع التّعب والإرهاق والأرق.. بين الدراسة صباحًا، والعمل مساء، والأبحاث ليلًا، إلى جانب الحديث مع غادة.

كانت غادة راحتَه وملاذَه الآمن في تلك الغربة، كانت المتنفّسَ الوحيد، والصّدرَ الحنون الذي يلجأ إليه كلّما اشتدّ به الحنين إلى الوطن والأهل والروح...، الروح التي بقيت هناك تحرس غادة وتحتضنها وتخافُ عليها، وتتغزل بها.

كان يحادثها كلّ ليلة، يتواصل معها صوتًا وصورة عبر مواقع الإنترنت، ويخبرها بكلّ شيء.. بكلّ تفاصيل يومه.. ويؤكّد لها حبّه ووفاءه، ويطلب منها أن تنتظره..

بعدَ سنة ونصف، سافر ماهر في أجازة لزيارة أهله، ورؤية غادة التي اشْتاق إليها كاشتياق غريق يحتضر لجرعة أكسجين.

وهناك.. فوجئ بها قد تزوّجت.. نعم لقد تزوّجت غادة من رجلٍ آخر منذُ شهرين، وهي المدّة التي كانتْ قد انقطعت فيها أخبارُها آنذاك سوى من بعض الرّسائل المتقطعة.. وقد أوْهم نفسَه، وعلّل ذلك بالظّروف العائلية والنفسيّة والصحية التي كانت تُخبره بها.. لكن الحقيقة هي أنّها كانت ترتّب وتجهّز لحفل زفافها.

تزوّجت غادة بكلّ بساطة.. بكلّ قسوة.. بكلّ برود؛ لتتركه يحتضر في اليوم ألفَ مرّة وهو يتخيّلها بين أحضان رجلٍ غيره. طفلته المدلّلة التي كان

يحلم كلّ ليلةٍ باللحظة التي ينغلق فيها الباب عليهما تحتَ سقف واحد..، داخل غرفة واحدة..، على سرير واحد...

كمْ رسم لتلك الليلة من صور وسيناريوهات رومانسية! ليلة عاشها في خيالِه مئات المرّات، ولم يعشْ منها في الواقع سوى مرارة نبأ زواجها.

اختارت غادة رجلًا آخر، لديه منزل وسيارةٌ وعمل قارّ ورصيد بنكي.. رجل جاهز للزواج.. فلمَ الانتظار على حدّ تفكيرها!؟

لقد قرّرت أنْ تعيش ليلتَها في الواقع لا في الخيال، ومنذ أنْ ضربت هي بحبّه وأحلامه عرضَ الحائط؛ ضربَ هو بالحبّ والعشق ارتفاعَ سقف الغربة.

كانت تلك الصّدمة العاطفية هي البدايةَ الفعلية لماهر ككاتبٍ روائيّ؛ إذْ قرّر أنْ يفضحها فكانت غادة بطلةَ أوّل رواياته...

ثمّ قرّر أن يخونها، فكانت لكلّ رواية يكتبها بطلةٌ وقصّة وعشق وغدر وانتقام...

ثمّ قرّر أن يتجاوزها، فكتب عن التأمّل والفلسفة الوجودية، عن الأمل والمستقبل، عن كلّ شيء، وعن لا شيء... لتنتهي رواياته ببعضِ الأسطر المفتوحة التي كتب فيها..

"حقَنَتني بداءِ الغدر والهجر، ثمّ رحلتْ دون أنْ تسكبني ترياقَ النّسيان، لأعيش بعدَها متبلّد المشاعر، مشلولَ الحواس.. شبه إنسان"

وفي روايةٍ أخرى انتهتْ بـ:

"إنّك لن تربحَ من التّناسي وتحدّي الذّاكرة سوى خسرانِ رهان النسيان..."

ومنذُ ذلك اليوم، أغلقَ ماهر على قلبه، وعكفَ على دراساتِه وأبحاثه وعمله وكتاباته...، كان يحارب ضدّ الوقت يجهدُ نفسه في كلّ دقيقةٍ ويملؤها بالإنجاز، فقد كانت لحظةُ الفراغ بالنّسبة إليه تعني الغرق في الحزن على غادة، وفي مرارة الخذلان.

نفضَ ماهر غبارَ الماضي عن ذاكرته، وقد استغرب هذا الهجومَ غير المتوقّع لذكرى غادة التي مرت عليها سنوات طويلة.. اعتدل هذه المرّة في جلسته على الأريكة، وكأنّه يهدّد بنسف أيّ تطاول للذّكريات على حاضره إنْ هي تراءت في مخيلته.. أحكم مسك رواية "أنايِيس" بين يديه، وواصل القراءة بتركيز.

***



الجزءُ الثّالث

أنابيس



حادثني صوتُه الرّجولي الهادئ الحزين مستفسرًا عن مستقبله العملي، خاصّة وقد كنّا حينها على أبواب سنةٍ جديدة، وفي هذه الفترةِ بالذّات تتعمّق الرغبة في البحث عن المستقبل واستشفاف معالمه.

آدم كان من النّوع الذكي الذي لا يؤمن بالعرّافات، لكنّه كان يمرّ بلحظات من اليأس والإحباط، بعد تفوّقه في مجال دراسته الهندسية، وفشله في الحصول على عملٍ يناسب مؤهلاته.

حتّى أنّه فاجأني بقوله إنّه لا يؤمن بالأبراج والحظّ، لكنّه يريد من باب الترويح عن النّفس الاستماع لما سأقوله.

أعجبني ذكاؤه حينها، ولكنّني تعمّدت مراوغته، وإقناعه أنّ الأبراج تحمل في طياتها حقائق قد تثبت مع مرور الوقت.

كان أوّلُ اتّصال له لا يُنسى، دام أكثرَ من ثلاث ساعات، أخبرتُه فيه الكثير عن صفاته وشخصيته، كان مستمعًا جيدًا، يثير الأسئلة والنّقاشات، ثمّ يستمع مراقبًا في هدوء لكلّ ما أنطق به، كان يفتح لي المجال للاستمرار في الحديث، بينما يستمتع هو بالاستماع، كان يقاطعني أحيانًا لطرح سؤال بإيجاز، أو تأكيد معلومة ذكرتها.

لكن الجدير بالذّكر أنّ صوتَ "آدم" بين أوّل الاتّصال وخلاله وآخره قد مرّ بتغيّرات انفعالية تلقائية مختلفة؛ فقد بدأ هادئًا وحزينًا، ثمّ انتقل خلال المحادثة إلى هادئ ثابت غير مهتمّ ليمرّ بنبرة صوت متهكّمة ساخرة بعضَ

الشيء مليئة بالفضول وحبّ الاستطلاع، لينتهي صوته بضحكات من القلب ونبرة تحدٍّ.

أذكر أنّه استفزني آخر الاتّصال بلكنته الفرنسية المثيرة قائلًا:

– وكأنّ صوتك يأتيني من أعماق البحار أيّتها "العرّافة" الغامضة.

أجبته متسائلة:

– وهل تعتبر العمق والغموض صفاتٍ إيجابية أم سلبية؟

– هذه الأمور أصنّفها حسب الأشخاص والمواقف، لكنّ هذا لا يمنع أنّ صوتك غير مزعج.

خلال عملي في قسم الاستقبال تعرّضت إلى الكثير من الغزل، فقد كان الجميع تقريبًا يعلّق على جَمال صوتي ورقّته وهدوئه، وهناك مَن قال إنّه يبعث الطمأنينة والهدوء النفسي ويشعر بالأمان.

كنت أستمعُ إلى هذه الإطراءات، وأبتسم شاكرةً ذوقهم الرفيع.. ولكن مع آدم

وصلتني نزعةُ كبريائه، وكم أنّ الكلمات عزيزة بداخله لا تخرج للمدح إلّا بصعوبة، شعرت بالفضول أو بالاستفزاز، لا أعلم لماذا سألْتُه وأنا أتصيّد الفرصة لردّ الفعل:

– بمعنى؟

ضحكَ ضحكة خافتة مستفزّة، وأضاف:

- بمعنى أنّ صوتك هادئ، وتأنسُ إليه الحبال السمعيّة بسرعة.

وعلى الفور أجابته نزعتي النرجسية:

- أعلمُ بأنّ صوتي هادئ ومميّز. وإطراؤك ليس بالأمر الجديد بالنسبة لي، شكرًا على كلّ حال.

- أرى أنّ إطرائي لصوتك قد أزعجك، لماذا؟

أجبته ببرودة:

- أبدًا على الإطلاق، فالمرأة تسعدُ بكلمات الإطراء، وتستمتع بالمشاكسة الغزلية، وقد تتعدّد الأسباب في ذلك، ولكنّ النتيجة واحدة.

سأل في فضول:

- وكيف ذلك؟

- أقصدُ هناك من الفتيات مثلًا مَن تعرف أنّها جميلة، وصوتها ساحر، ومع ذلك تستمتع بلحظات الإطراء إرضاءً لغرورها الأنثوي.

- هذا أكيد، وماذا أيضًا؟

- وهناك مَن تستكين للحظات المدح والغزل إشباعًا لنقص أنثويّ تشعر به محاولة بذلك إقناع نفسها بالعكس.

- تقصدين لديْها مركّب نقص في جمالها أو صوتها، وتحاول تجاوزه، فهمت. وماذا أيضًا؟

– وهناك منهنّ مَن تجدُ في الغزل والكلامِ المعسول سدًّا لذلك الفراغ العاطفي والفتور الرّومانسي الذي تعيشه.

– هذا أكيد، وماذا بعد؟

– وهناك منهنّ مَن يتمنّعن عنْ سماع كلمات المدح والغزل، وهنّ بداخلهنّ راغبات.. هذا النوع من الفتيات تقول لك كلمة "يكفي"، وهي تقصد بها "واصل".

ضحكَ ضحكة خبيثة ذات مغزى، ثمّ سأل:

– وأنت أيّتها العرّافة.. أيّهنّ تكونين؟ (ثمّ أضاف)

أنا أرجّح أنّك تلك النّرجسية التي تستمتع بالغزل إرضاء لغرورها.

جاءت كلماته مستفزّة للغاية، ورغم ذلك ولأوّل مرّةٍ ينتابني شعور أنّ هذا الاتّصال مع "آدم" هو الأوّل، ولكنّه لن يكون الأخير.

أجبته بنبرة واثقة:

– لعلّني أدْهاهم على الإطلاق، أنا تلك التي تفتحُ لك المجال للغزل لتكتشف جموح خيالك الرّومانسي وحدودَ قاموسك العشقي، وكلّما خلعت بلفظٍ ورميتها به، كلّما تعرّت مشاعرك وأحاسيسك لتصبح مجرّدًا شفّافًا أمامها؛ فيسهل عليها غزو قلبك واستيطانه متى شاءت.

انفجر آدم ضاحكًا بعفويّة من أعماق قلبه، ثمّ أضاف بعد أن استعادَ هدوءه، ولكنّ بنبرة متحدّية ومثيرة هذه المرّة:

– قلبي وطنٌ مستقلّ، وذو سيادة يا عرّافتي، ومن الصّعب غزوه واستيطانه.

ضحكت لأوّل مرّة بعفوية، فمجرّد قوله بأنّ قلبه وطنٌ يصعب غزوه هذا يعني أنّه قد شعر بالقلق على هذا الوطن، أجبته بعفوية وهدوء مستفزّين:

– أسطولي الحربي كبيرٌ وعظيم، ولن يتحرّك لغزو وطنٍ صغير يخشى حدوده، ويرتعب من خوض الحروب والمعارك، وختمتُ كلامي بضحكةٍ خافتة.

ضحك بعدها "آدم" بصوتٍ رجولي ساحر:

– ما اسمك يا عرّافتي؟ لقد نسيت اسمك؟

– اسمي أناييس، لا أعتقد أنّك قد تنساه بعد الآن.

ضحكَ وأضاف:

– سأتركك الآن يا "أناييس"، وأعدك بإعادة الاتّصال في أقرب وقت، فسقفُ الحديث معك عالٍ وممتعٌ للغاية.

أجبتُه بروتينية:

– أشكرك على ثقتِك في شركتنا، يومُك سعيد.

وأغلقت الخطّ.

***

بعد الانتهاء من العمل كالعادة توجّهت إلى مركز اللغة الألمانية، وهناك التقيت صدفةً "بأحمد" صديق "مالك"، أخبرني بأنّ صديقه دائمًا ما يتابع أخباري من بعيد، ويبلغني سلامه، فأجبته:

– لا أريد منه سلامًا ولا كلامًا، أنا لا أنظر إلى الماضي، ولا أبكي على الأطلال.

عقدَ أحمد حاجبيه في استغراب، وأضاف:

- كمْ أنت قاسية يا أمل!

ضحكتُ بمرارة وقلت:

- أنا لست قاسية، ولكنّ صديقك لم يحترم علاقتنا، ولم يتحمّل حتى عبء إنهائها بطريقة تليق بما كان بيننا، بل ولم يتركْ لي المجال حتّى لأودّعه وأودّع ذكرياتي معه، وتزوّج زواجَ مصلحة لا غير، وأجبرني على دفن ذكرياته.. بل على وئدها حيّة، لا أريد سماعَ رسائله، وأخبره أن يكفّ عن ملاحقتي بأخباره؛ فهي لم تعدْ تعنيني، ولم تعد حياتُه تهمّني.

أجاب في خجل:

- أعتذرُ منك يا أمل، فما على الرّسول إلّا البلاغ، ومالك ما انفكّ يسأل دائماً عن أخبارك، ويقول إنّ ما فعله كان تضحيةً لبناء مستقبله والزّواج منك.

انفجرتُ ضاحكة في هستيريا مريرة:

- هكذا إذًا، يقرّر الزواج من ابنة عمّه، ويخون العهدَ والحبّ؟ يخذل الإنسانة التي أقسم لها بالوفاء؟ ليبرّر فعلته بقسوة الظّروف والتعلّل ببناء المستقبل، هذه اللافتة الزّائفة التي علّق عليها عجزه وكسله وخضوعه بدل الوقوف كرجل أمام تلك الظروف ومواجهتها.. أتعلم يا "أحمد" أخبرْه فقط أنني قد انتهيت منه منذ تزوّج، والآن دعني ألتحق بالدرس.

انتهت الحصّة بسرعة، فقد بدأتُ أعشق هذه اللّغة، وأتعمّق في مفرداتها، رغم ثقلها؛ فاللغة الألمانية تختلف عن اللغة الفرنسية جذريًّا، فالأولى لغةٌ غليظة النّطق، أمّا الأخيرة فهي لغةٌ موسيقية تنتشي لسماعِها الأذن، كلماتها رقيقة كأنّك بنطقها تعزفُ على أوتار الحروف، إنّها لغة الفن والرقي.

ولأوّل مرّةٍ أعود إلى المنزل غير منهكةٍ نفسيًّا ولا جسديًّا، كنت أشعر بطاقةٍ خفيّة بداخلي لا أعرف مأتاها، لكنّ الغريب أنّ مكالمة "آدم" لم تمرّ من بين مئات المكالمات الأخرى بسلام داخلي، كما أن اسمه ظلّ عالقًا بذهني طوال المساء..

***

كنت أجلسُ مع عائلتي على طاولة العشاء، وأتذكّر استفزازه لي، فأعقد حاجبي امتعاضًا، ثمّ أتذكّر ردودي؛ فأبتسم متشفّية، إذْ لأوّل مرّةٍ يتمكّن شخص من استدراجي إلى حوارٍ شخصي عاطفي، في الواقع لم أكن متأكّدة إنْ كان هو مَن استدرجني أم أنا مَن استدرجتُه، فقد كان صوتُه الهادئ الحزين مليئًا بالإثارة والغموض.

وظلّت نبرة صوته في تلك اللّيلة ترنّ في أذني، وصوتُ ضحكاته العفويّة يعزف على أوتارها.

كان "آدم" من مواليد برج الأسد، وهو من أقوى الأبْراج، وأروعها في نظري.. فهو يتمتّع بشخصية قويّة مميزة ومتناقضة، شخصية متفجّرة متحمّسة وقياديّة تملؤها الثّورة والجنون والأنانية، إنّه برج ظاهره ناريّ وداخله سلمي،

رومانسي وعاطفيّ إلى درجة الخيال، بحيث تشعرُ معه بلذّة الانصهار بين تلك الثّنائيات السّاحرة، شخصٌ عمليّ يعشق المثابرة والمغامرة والتحدّي من أجل بلوغ أهدافه، وعندما يحبّ يأسر حبيبته بجنونِ عشقه.

***

غلبني النّعاس ليلتها وأنا بين أخذٍ وردّ، يغرقني الفضول والتّفكير في اسم آدم، وحدسي يؤكّد لي أنها البداية، وأنّ ذلك الاتّصال ما هو إلّا مقدّمة تافهة لجوهر عميق.

فكم من قصص حبّ، و.. كانت بداياتها ومقدّماتها تافهة، ينطق فيها الحدس كلمة العشق بداخلهم منذُ اللحظة الأولى، لكنّ الناس لا يأبهون ولا ينصتون إلى ذلك الهمس الدّاخلي الخافت.

مرّ أسبوع قبل أنْ أستقبل اتّصال "آدم" للمرّة الثانية، كان صوتُه متعَبًا هذه المرّة، أخبرني عن بعض العراقيل العمليّة، فأخبرته أنّه سيبلغ هدفه، وأنّه سيتلقّى عرضًا يناسب مؤهّلاته وطموحاته، ولكن عليه بالصّبر وعدم فقدان الأمل والبحث المستمرّ في مجاله الهندسي.

كنت أحاولُ استيعاب نفسيّته الحزينة المضطربة في تلك اللّحظة، ولكنّه كان متردّدًا قلقًا بعض الشّيء، وكانت أنفاسُه غير منتظمة متوتّرة، حتى أنّه أغلق الخط بعد نصف ساعة على أن يتصل مرّة أخرى.

وفي اليوم التّالي، وباستقبال أوّل اتّصال جاءني صوت "آدم" متثاقلًا متناعسًا، قائلًا:

– صباح الخير "أناييس"، هل نقول آنسة أم سيدة "أناييس"؟

فهمتُ مغزى سؤاله غير المباشر عن حالتي المدنيّة، وأردت مراوغتَه قائلة:

– يمكنك مناداتي كما يحلو لك، فهذه الألقاب غير مهمّة بالنسبة لي.

– حسنًا "أنايس"، كيف حالك؟

كان صوته مثيرًا جدًّا لم يستيقظ كليًّا بعد، أجبته مشاكسة:

– لا تفكّر بي كثيرًا حتى لا يهجرك النّوم.

ضحكَ قليلًا ثمّ أضاف:

– أظنّ أنّ وطني قد تمرّد أخيرًا، ويفكّر في إعلان صفارات الإنذار معلنًا عن دق طبول الحرب، فماذا عن أسطولك الحربي؟

إذًا، لقد كان يجاهد نفسه لمنعها من الاتّصال طوال الأيام الماضية، وفشل في ذلك، وهذا ما يفسر توتّره يوم أمس، ولم يخطئ حدسي حينها، أجبته مازحة:

– أحتاج بعض الوقت لتوفير الأسلحة الحربيّة المتطورة بعيدة المدى، فهذه حربٌ عبر الزمان والمكان، والخصم فيها برج الأسد الذي لا يُستهان به.

وانفجرنا ضاحكين في نفس اللحظة،

قال:

– حدّثيني ماذا تعرفين عن شخصيتي يا "عرافتي"، أريد سماعك.

بدأتُ أسرد له بعضَ الصّفات المتعلّقة ببرج الأسد، وانتهت المكالمة على ذلك.

مرّ شهر تواترت فيه اتّصالات "آدم" يوميًّا، كنّا نتناقش فيها في شتى المواضيع، في الأثناء طلب مني أن نتواصل مساءً خارج أوقات العمل عبرَ حسابه الخاص "الفايس بوك".

قمتُ بفتح حسابٍ جديد باسم "أناييس" بنفس صورة العرّافة، وهي صورة لفتاة في أواخرٍ العشرينيّات، بينما كنت أنا في الثانية والعشرين من عمري حينها، وكانت صورة "أناييس" لفتاة قمحيّة البشرة ذات شعر بنيّ مجعّد قصير ومرتب، صورة جذّابة نوعًا ما، بينما كنت أنا بيضاء البشرةِ بعينين عسليّتين، وشعر طويل مُنسدل هادئ أحيانًا، ومتمرّد متموّج أحيانًا أخرى، بحيث لم يكنْ هناك أيّ تطابق، ولا تقارب بين الصورتين.

تواصلت علاقتنا مساءً على الفايس بوك، وأصبحت كتاباتنا على "الماسينجر" تتعدّى الثّالثة صباحًا، لا نفترق إلّا لبضع ساعات من النوم.

حدّثني آدم خلالها كثيرًا عن عائلته وأصدقائه، وآلمني جدًّا حديثه حينها عن علاقة والديه التي كانت متوتّرة للغاية، وتحديدًا بين والده المسلم العطوف المحبّ، الذي كان يسعى جاهدًا لبناء عائلة متماسكة، والاستقرار في كنَفِ أسرة متكاتفة هادئة، وبين والدتِه الفرنسية المتحررة التي كانت ترى في الأسرة والمسئوليات والالتزامات تحديدًا لحريتها، ومبعثًا لحياة زوجية رتيبة لا جديد فيها، فكان بحثها الدّائمُ عن المغامرات العاطفية

وجموحُها اللامتناهي مبعثًا لارتباك العائلة، واهتزاز أواصر اللُّحْمة والثقة بين أطرافها، ولا شكّ في أنّ ذكر آدم لتلك التفاصيل الحميمة داخل عائلته قد أخجله وآلمه؛ حيث بدا لي متأثّرًا بتلك الذّكريات القابعة في أعماقه، والتي من الصعب على طفل عاشَ تطوّراتها وأحداثها أن يتمكّن من تجاوزها ونسيانها بسهولة، بل إنّ آدم أخبرني بذلك صراحة، بأنّه قد فقدَ الثقة في الجنس اللّطيف عمومًا، وبأنّني الاستثناء الوحيد في حياته... ومنذ ذلك اليوم التقتْ أرواحنا في عالمٍ خياليّ افتراضي تعدّى الإحساس فيه كلّ ثوابت ومسلمات العالم الواقعي.

كنت أتابع صفحته بشغفٍ كبير. كان في تعليقاته وكتاباته متمكّنًا ناقدًا لاذعًا وساخرًا على حدّ السّواء.

***

كثيرًا ما كان "آدم" يشعر بالغموض نحوي، وكثيرًا ما كنتُ أكذب عليه مكرهة، كنت جبانة جدًّا لأبوح له بالحقيقة؛ حقيقة الشركة المتحايلة الوهمية التي أعمل بها، والاتّصالات التي أنافق فيها الأشخاص مقابل راتبي.

تطوّرت علاقتنا بسرعة الصّاروخ، حتى صار "آدم" كتابًا مفتوحًا أمامي، أعرف عنه كلّ التفاصيل الدّقيقة، نشأتْ صداقة متينة بيننا لعبتُ فيها دور الطبيبةِ النّفسية لمشاكله وجراحه، بينما لم يعرف هوَ عنّي شيئًا سوى الحقيقة المزيّفة "أناييس".

***

كان "آدم" في أواسط العشرينيّات، ذا أصولٍ عربيّة، شديدَ الوسامة كممثّلي هوليود، كانت ملامحُه ساحرة بمزيجها الشّرقي والغربي، مزيج أبٍ عربيّ وأمّ أوروبية فرنسية.

كانت تفاصيله مملوءةً رجولة وجاذبية، عينان سوداوان، حاجبان كثيفان محدّدان، رموش سوداء كثيفة، أنف دقيق متناسق، مع شفتين أقلّ ما يُقال عنهما قاعدة حربيّة لانْطلاق غزوات حارقة ومدمّرة، وجسد رياضي طويل يطمئن بالاحتواء في اللحظات الحرجة.

كانت صورُه التي بعث لي بها توحي بالثّقة في النفس إلى درجة التّواضع، لا إلى درجة الغرور- رغم بعض النّرجسية والكبرياء- الأمر الذي زاده غموضًا ساحرًا وجاذبية، إنّه حلم أيّ فتاة.

كنّا نتعامل مع بعضنا البعض كصديقيْن حميمين، كتوأم روح، كَوَتِينيْن، كنّا نعيش في حالة من الحبّ؛ بل أعماق حالة الحبّ دون أن نشعر.. أو لعلّنا كنّا نشعر؛ ولكنّنا تجاهلنا أمر التصريح بذلك الحبّ علنًا.

كأنّنا نعيش داخلَ رواية وحدنا أبطالُها.. كلّ ليلة نقضيها سويًّا، كانت صفحة من صفحاتها، وكلّ أسبوع يمرّ هو فصلٌ من فصولها، ولا أحد يستطيع التنبّؤ بأحداثها ولا بنهايتها. كنت على يقينٍ حينها أنّني في مواجهةِ بطلٍ خطر يتْقِن نسجَ الصّفحات والفصول في إغراء الرجولة الصّامتة، وكنت أستقبل حياكته في إغراءٍ أنثوي صارخ.

مرّت أشهر على هذه العلاقة التي ما انفكّت تتطوّر يومًا بعد يوم، يحكي تفاصيل يومه، وأحكي تفاصيل مزيّفة تناسب شخصية أناييس.

***

ذاتَ مساءٍ كان متوترًا بعض الشيء، سألته عن السبب فقال إنّ بداخله أحاسيس ومشاعر يرغب في البوْح بها علنًا، علمت على الفور أنّه يقصد إعلان حبٍّ صريح، أو قد يتعدّى ذلك.

شعرتُ بالخوف والرّهبة لأوّل مرّة، شعرت أنّني قد بدأت لعبةً غير محسوبة العواقب تورّطت في قصة حبّ افتراضية، قصّة عشق موجع، كفر بكلّ العالم ليسكن عالما افتراضيًا خاصًّا به، شعرت بحرارةٍ تجتاح جسدي، وتسارع دقّات قلبي، لقد تورطت، نعم إنّني أحبّه بجنون..

لم أكنْ أؤمن بالحبّ الافتراضي، فالحبّ بالنسبة لي واقعٌ أو لا يكون، ولكني استيقظت على حقيقة صادمة قد عشتها.. ليس للحبّ قوانين عقلانية ثابتة، وليس للحبّ زمان أو مكان.

يوم يغزوك الحبّ سيكفر بكلّ القواعد والقوانين العشقيّة والتقاليد والمسلمات، وسيختزل الأزمنة في زمنٍ واحد اسمُه زمن الحبّ، وسوف يختصر العالمَ بأسره ليستوطن كيانَك، ويسكن جزءًا منه اسمه القلب.

طلبتُ منه أن يمهلني فرصةً قبل أن يبوح بأيّ شيء كي أَلملمَ نفسي وأنفاسي التي تكاد تنقطع.

أصبحت أسئلة آدم محرجةً جدًّا، وزادت شكوكُه بعد أن منعته من أن يعبر لي عن حبّه مباشرة. زادت غيرته التي كانت في البداية جميلة مُغرية مملوءة رجولة إلى غيرةٍ ملؤها الشّك.

أصبح يكره عملي، ويكره أنْ أستقبل اتّصالات خشية أنْ أعجب بأحد غيره كما أعجبت به، رغم أنّه في البداية لم يكن يمانع عملي، وكان يحترمه، في حين كنت أقول في نفسي آنذاك.. "للأسف، سيأتي اليوم الذي تحتقر فيه عملي، وتحتقرني أيضًا".

أصبحتُ أعيش في دوّامة كبيرة بين شخصية أنابيس المزيّفة التي أحبّها آدم، وبين شخصية أمل الحقيقة التي أحبّت آدم، وشتّان بين الشخصيتين.

كنت أتألم بداخلي كلّ يوم، وأفكّر في مصارحته بالحقيقة في كلّ دقيقة، ولكنّني أعجز.. أجبنُ أمامَ هذا الاعتراف الذي قدْ أخسر به آدم إلى الأبد، وقد يكتفي بنظرةِ احتقار لعلاقتنا لن أتحملها.

صراعٌ دامٍ أعيشه كلّ ليلة بين شخصيتين، بين قلب يحبّ ويخشى الخسارة بعد قول الحقًيقة، وبين عقل عنيد تمرّد وتعبَ من الغشّ والأكاذيب التي تورّط بها دون قصد.

مرضتُ بعدها لفترةٍ دامت أسبوعًا انقطعت فيها عن العمل والدّراسة وجميع مواقع التواصل الاجتماعي، أصابتني حمّى شديدة وهذيانٌ مع صداع كاد يفتكُ برأسي حينها، أخبرتني أمّي بعدها أنّني كنت أهذي باسم "آدم" طوالَ الوقت، وأحاول الاعتذار منه.

سألتني عنه كثيرًا.. مَن هو؟ مَن يكون؟ ما علاقتي به؟ لماذا أعتذر؟، و...

لكنّي لم أثلج صدرَها بإجابة شافية؛ فقد كنت أعرفُ أنها لن تفهمَ ولن تتفهّم، لن تقبل ولن تتقبّل هذه العلاقة المزيّفة على الأقلّ من جهتي.

***

بعدَ أسبوع عشتُه في سُبات الحيرة والقلق والخوف، وجدتُ مرضي فرصةً مناسبة للابتعاد قليلًا عن آدم، وإعادة مراجعة حساباتي العاطفيّة كما يقولون، ولكنْ دون جدوى.

إذْ كنت أحتضر كلّ دقيقة في غيابه، لقد أدمنتُه إلى درجة أنّ سماع صوته أصبح بمثابة جرعةٍ مهدئة لألم البُعد.

ببساطة.. لقد تمكّن من احتلالِ أعماقي، وعرف كيف يدهشني، ويباغتني بأسلوبه المميز، ويبهرني بقاموسه العشقيّ الذي شكّل كلماته خصيصًا من أجلي، حتى أنّنا صرنا نتخاطب أحيانًا بمصطلحاتٍ مشفّرة لا يفهمها أحدٌ سوانا. نعم، لقد استطاع أن يدسّ لذّة سرطان عشقة في مجرى كلّ خليّةٍ من خلايا جسدي وروحي بكلّ ثقة.

وكنتُ كلّما قرّرت منعَ نفسي من استقبال اتّصالاته وجدتني أنتظر مكالماته بشغف، وحاولت الهروبَ مرارًا وتكرارًا، لكنّي فشلت.

كانت ردودُ فعلي اللاشعورية لصالحه دائمًا، وكان داخلي يتألم لأنّني مجرّد خيال مزيف في حياته.

عدتُ بعدها للعمل بانتظام لأستقبل صوته من جديد، صوته الذي أعاد إليّ الرّوح التي أوشكت على مفارقة جسدي، كان صوتُه متعَبًا جدًّا يشي بأنه لم ينمْ جيدًا لفترة من الزمن، أو أنّه مرهق للغاية، بدأ الحديث مباشرةً ودون مقدمات:

- اشتقت إليك يا "حبّي".

لقد نطقها دون تردّد... لقد أتعبه عدمُ البوح بها تمامًا، كما تعبت أنا لحظةَ بوحه بها، فأنا لا أستحقّ هذا الحبّ الجارف الذي أحاطني به لمدّة شهور، وأشعل بغزله ورومانسيّته كلّ جزء بداخلي حدّ الاحتراق.

كنت أستمعُ إلى كلامه، وأشعر بأنفاسه وهو يسحبُ نفس سيجارته وينفث دخّانها بتوتر في الهواء، وأتخيّل دوائرَ ضبابها وهي ترسمُ مستقبل علاقتنا المجهول.

كنت أخشى أن يعاملني كتلك السّيجارة التي أشعلها وأسكنَها جسدَه، وبين ضلوعه للحظات، ثمّ رماها بعد أن احترقت وانتهت صلا حيتها.

كنت أخشى أنْ تصدمه الحقيقة لدرجةِ أن لا يغفر لي ويتركني أحترق ندمًا وشوقًا..

كنتُ متعَبة ومرهقة جدًّا، وكم تمنّيت أن يقول حبيبتي إلى "أمل"، وليس إلى "أنايیس".

***

شعرتُ بعد سماع سيلِ كلماته الجارفة بتوقّف دوران الأرض، وحركة تعاقب الكواكب، لقد اهتزّ الكونُ بأسره، وسكنَ للحظات، وهو يُخبرني بشوقه إليّ، وقلقه على غيابي، وبأنها كانت فرصة ليختبرَ مشاعره، ويتأكّد من أنّه يريد الاقترابَ منّي أكثر،، ووضع أسسًا جديّة لارتباطنا.

ذبذباتُ صوته كانت تُحدث اضطراباتٍ كهرومغناطيسية في جسدي.. تتزامن مع غصّة في قلبي، كأنّ عشقنا كفر، والسعادة هي مجرّدُ لحظات نختلسُها من القدر تتلاشى بمجرّد تفكيري بأنها خيال وزيفٌ سوف أستفيق منها لا محالة.

ما أقسى الشعورَ بأنّك قصّة مزيفة في حياة شخصٍ أنت مَن نسج خيوطها، كأخطبوط تعددت وتمدّدت أذرع أكاذيبه، ثمّ بدأتْ تتقلّص وتلتفّ حول خياله الزائف لتخنقه.

لم أستطعْ مواصلة الحديث معه.. فقط اعتذرت منه، وأخبرته بأنّني أصبْتُ بوعكة صحية ألزمتني الفراش لأيام.

***

مرّت أسابيع، بعدها حاولت فيها الهروب وتفادي اتّصالات "آدم" قدرَ المستطاع، متعللة بإنذارات شفهيّة وصلتني من المديرة تحذّرني من إقامة علاقة خاصّة مع عميل، وهو بالفعل ما حدث فقد كانت المديرةُ تراقب الاتّصالات وتتابعها، وخشيت أن أبوح لآدم بحقيقة الشركة فيرفع دعوى قضائيّة ضدّها انتقامًا منّي إن افترقنا. هكذا فكّرت، وحذّرتني تحسبًّا لما قد يحدث.

يومها أردت أن أقول لها إنّني لم أصارحه؛ فقط كي لا أفقدَ حبّه واحترامه لعلاقتنا، أمّا عن شركتها المتحايلة فلتذهب إلى الجحيم.

بدأ الشكّ يتملك آدم أكثر، خاصّة بعد أن كثرتْ غياباتي عن العمل في المدّة الأخيرة مع اقتراب الاختبار النّهائي للّغة الألمانية، وكنت أحتاج بعضَ الوقت لاستجماع نفسي واسترجاعها والتركيز في مستقبلي.

لقد كان لجوئي إلى هذا العمل المؤقّت ليس إلّا وسيلةً مادية لدفع مصاريف الدراسة منذ البداية وليس هدفًا في حدّ ذاته، وكذلك كان "آدم"، ولكنّه تطوّر بسرعة ليصبح صداقة متينة تنسيني خذلانَ مالك لي، لتنتهي بقصّة حبّ افتراضية مدمّرة من طرف واحد.

فـ "آدم" يحبّ "أنابيس"، ولكنّ "أنابيس" في الواقع غير موجودة، و"أمل" تحبّ آدم، ولكنّ أمل بالنّسبة لآدم غير موجودة،!!

معادلة صعبة، وقاتلة...

انعزلت عن الجميع في تلك الأيام، ونجحت في الاختبار بتفوّق. لم يمضِ وقتٌ كثير حتى تمّت مراسلتي وإعلامي بحصولي على تأشيرة السّفر إلى ألمانيا مع عقد تكوين مهنيّ كممرضة بمدينة "دوسلدورف".

كان اختياري لتلك المهنة نابعًا من إحساسي بالذّنب اتجاه المسنّات اللواتي حاولت استدراجهنّ بالحديث، وإيهامهنّ بأشياء لا أساس لها من الصّحة سوى اللعب على أوتارهنّ الحسّاسة وذاكرتهنّ الخائنة.. وشعرت أنّ وقوعي في حبّ آدم في ذلك المكان بالذات هو لعنتهنّ التي حلّت على قلبي المسكين،

الذي يبدو أنّ الخيارات المتاحة أمامه ظلّت محدودة جدًّا تتأرجح بين الفقد واللا حبّ.

فتحت الماسينجر ليلتها لتنهالَ عليّ رسائل آدم كالمطر، ودون توقف، بعضها مشتاقًا وبعضها مغتاظًا.. تارة يكتب برومانسية، وتارة أخرى يهدّد بالرحيل إن لم أجبْ على رسائله، ويتساءل عن عدمِ تواجدي في العمل، لكنّه سرعان ما يرقّ قلبه من جديد ليبثّ شوقه وحنينه.

كنت أشعرُ بحرقته وعذابه، وأستشفّ ما لم يقلْ بين السطور، فقد كان آدم بالنسبة لي واضحًا كنقطة في نهاية جُملة حسمتْ معنى الصداقة، وأعلنت عن بداية جُملة جديدة معناها الحبّ، بينما لم أكنْ أنا بالنسبة إليه سوى نقاطٍ متتالية تائهة مبعثَرَة متردّدة غارقة في عشق داخل نقطة استفهام غامضة لا غير.

***

كانت رسائله كبركانٍ تحرقني كلماته حينًا، وتجرفني حمَمُ أحاسيسه حينًا آخر، كانت كعاصفة الصّحراء في أرض الرّمال المتحركة، تعصف بي مرّة بشكوكه وتغرقني مرّات في بحور عشقه، ولعلّ أهمّ تلك الرسائل هي إعلان حبّه ورغبته في مقابلتي والتّخطيط للزّواج منّي.

في البداية كانت صدمةً بالنسبة لي، لكنْ سرعان ما تلاشت آثارها...

ففي الكثير من العلاقات العادية، قد تجمع بين الطّرفين قصّة حبّ طويلة العمر بسنواتها وأحداثها ومشاعرها، ولكنّها للأسف لا تنتهي بعرضٍ صادق للارتباط الرسمي والزواج.

بينما في هذا العشق النّادر الذي يبدو- في ظاهره- غريبًا، وتفاصيله لا يقبلها العقل، تقبع- في باطنه- أحاسيسُ ومشاعرُ وتفاصيل من العمق، بحيث لا يخضعك فيها سوى القلب.

وفي تلك الليلة، وبعد صراع عنيف داخلي، قرّرت أن أكونَ أمل لا غير، قرّرت أن أتخلّص من شخصيّة أناييس المزيّفة إلى الأبد.

كتبتُ له ردًّا مطوّلًا شرحت له فيه كلّ شيء بأنّ أناييس العرافة ليست أنا، وإنّما هي شخصية وهمية قد انْتحلتها، وأنّ عقد عملي كان يمنعني من البوح بأيّ معلومات عن خفايا الشركة المتحايلة، وأنّي تورّطت في الشركة كما تورّطت في علاقتي معه بشخصية "أناييس"، وأنّ الشركة ليست بفرنسا كما كان يعتقد.

أخبرته في النهاية أنّ الحقيقة الوحيدة هي مشاعري الصّادقة تجاهه دون أن أخبره أيّة تفاصيل أخرى، وطلبت منه في النهاية أن يغفر لي.

بعثت له الرّسالة، وحالما تأكّدت من أنه قد قرأها قمتُ على الفور بحضر المحادثات معه وإلغاء حسابِ أناييس على الفايس بوك.

أذكرُ أنّني أخرجت دفترَ خواطري وكتبتُ كثيرًا ليلتها، كتبت كما لم أكتبُ من قبل، كانت الكلمات تنهمرُ مع دموعي بغزارة الجمر الذي يحترق بمعانيها الصادقة.

أعلم أنّني كنت أنانية للغاية حينها، فأنا لم أترك له المجال ليفهم ويختار؛ إمّا البقاء أو الرحيل، ولكنّني أحتضر أمام احتمال كرهه لي ولذكرياتنا بعد معرفة الحقيقة، ففضّلت الانسحاب والرحيل بهدوء.

في اليوم التالي، استقلت من شركة الاتّصالات، وبدأت بتجهيز نفسي للسفر، وللأمانة فقد كانت فرحتي بتحقيق أوّل خطوةٍ خطّطت لها غير مكتملة، إذ كانت مشاعري تجاه آدم تتعمّق ببعدي عنه يومًا بعد يوم، حتى أصبح هاجسًا يطاردني في اليقظة والحلم.

ففي حين ظننت أنّني قوية، وأستطيع السيطرة على مشاعري، وتحمّل نتائج أفعالي وقراراتي، وظننت أنّني مثلما هزمت ذكرياتِ مالك الذي خذلني سأتجاوز ذكرياتِ آدم الذي خذلته؛ حدث العكس.. فقد خذلتُ نفسي وقلبي في النهاية.

***

لم يعدْ يفصلني عن موعد السّفر سوى ساعات، بدأت أجهّز حقيبتي التي ملأتها بمجموعة من ذكرياتي المؤلمة، وبعض من الآمال المنتظرة، وكثير من الوجع، لم أستطع النوم ليلتها بعد سهرة عائلية ثريّة بالنصائح والدعوات، رسمت بالضحكات والابتسامات حينًا، وعطّرت بالدموع والحزن لفراقي حينًا آخر.



الفصلُ السّابع

آدم



عاد إلى حالته الهستيرية المنفعلة، وأخذَ يلتهم السّطور في جنون ليقرأ مذكّرةً عنوانها "الانتقام"..

الانتقام

مررتُ بأوقات عصيبة للغاية شهدتْ خلالها حالتي النفسية تجاذباتٍ كثيرةً بين فكرة وأخرى، بين شعور وآخر، وبين قرار وعكسِه، حتّى بدأتُ تدريجيًّا أستعيد توازني، وأنظر إلى الأمور بشكل مختلف.

قرّرت أنْ أسقيه من نفس كأس الحنظل التي سقاني إيّاها.. قرّرت أنْ أجعل طبول الغيرة تدقّ مشاعره دقًّا كلّ ليلة، وتغزو أحلامه، قرّرت أن أستمتع بمشاهدةِ روحه تنزف أمامي وتستغيث دون أنْ أكترث.. بكلّ بساطة قرّرت أنْ أنتقم منه، ولكنْ على طريقتي فالانتقام لعبة الكبار، وفعلًا بدأت اللعبة.

***

اتّفقت مع صديقتي الحميمة "بينار" أن تساعدني على تطبيق خطّتي، وطلبت منها أن تلعب دور العاشق الولهان معي كلّ ليلة، أنْ تبعث لي برسائلَ غرامية، وأغانٍ رومانسية، وباقات ورود بإمضاء مجهول حتّى تزداد شكوك آدم.

وحتّى تكتمل اللّعبة انضمّ زوجها إلى المسرح، وبدأت أتّفق مع بينار كلّ يوم على الخطوات المتّبعة، ثمّ بعثت لي برسائلَ سمعية بصوتِ زوجها كنّا قد اتّفقنا على محتواها مسْبقًا.

كانت اللعبة مثيرةً وممتعة بالنّسبة لي، كنت أراه يشتعلُ بنار الغيرة والشّك، كان داخله يلتهب ويحترق حدّ التّرمد، يشتعل ثمّ ينطفئ كشمعةٍ احترقت لا حولَ لها ولا قوّة. وظلّ هكذا حتى انقلبَ حاله رأسًا على عقب، وأصبحَ يتواجد كثيرًا في المنزل لا يخرج سوى للعمل، ويتعمّد مراقبتي في صمتٍ وكتمان بينما داخله كان يغلي كالبركان.

كنت أبالغ في استقباله بابتسامةٍ ساحرة وقُبُلات حارة، ثمّ أتجاهله تمامًا، فتزيد شكوكه، وكلّما اشتاقَ إليّ وحاول التقرّبَ منّي كنت أتعمّد البرودَ، وأنشغلُ عنه بأيّ أمر آخر، بل في الحقيقة كنت أتحاشى قربَه ومواجهته في هذه اللّحظات الحميميّة حتّى لا أرتمي بين أحضانه باكية معاتبة.

وكنتُ في كلّ مرّة أتلذّذ فيها برؤيته يتعذّب ويتمزق غيرةً وشكًّا، أختلي بعدها بنفسي وأبكي كثيرًا لأنني مازلت أحبّه وأعشقه! حتّى أنّني فكّرت مرارًا في مصارحته بالحقيقة ولم أستطع.

كنت أعيشُ في اضطرابٍ وتمزّق داخليّ عنيف، أتخبّط داخل مثلث برمودا القاتل؛ فلا أنا أستطيع العودةَ إلى الوراء وتجاهلَ كلّ الخيانات التي اكتشفتها والتصرّف كأنها لم تكنْ، ومواصلة العيش معه داخلَ هذه الحرب النفسيّة وأنا أحبّه، ولا أنا أستطيع مواجهته وتجاوزَ الأمر والعيشَ بكرامة مجروحة، ولا أنا أقوى حتى على العيش بدونه.

ببساطةٍ فقدت السلامَ الدّاخلي والتّسامح مع نفسي....

فعندما تكتشف المرأةُ خيانة زوجها لها تقفُ في لحظات صمتٍ مدمّرة، تتشاور فيها مع شياطينها وعليها أن تتّخذ أصعبَ قرار قد تواجهه في حياتها؛ فإمّا أن تصارحه بكلّ شيء وتتّخذ قرار الانفصال لتثأر لأنوثتها المخدوعة؛ وإمّا أن تسامحه وتعيشَ بكرامة مجروحة- وفي هذه الحالة عليها توقّع مزيدِ الخيانات والعيش في ذلّ وهوان- وإمّا أن تصمت للأبد، وتبتلع كلّ شيء بداخلها وكأنّ شيئًا لم يحدث لتعيش في النّهاية في صراع نفسي دامٍ، يعمّقه الشّك، ويقتلها فيه صمت الغيرة مع كلّ نفَسٍ تستنشقه.

***

وبعد جدالٍ طويل مع كرامتي وكبريائي ومشاعري وكلّ كياني، قرّرت أن أنهي هذه اللعبة القذرة وأكتفي بذلك الحدّ، وأنْ أغفرَ له خيانته، وأنْ أعطيه فرصةً ذهبية لن تتكرّر لاسترجاع ثقتي وكسبها من جديد، واخترتُ لذلك القرار ليلةَ احتفالنا بعيد ميلادي حتّى نردم الماضي ونبدأ من جديد.

فكّرت أن أجعل من تلك الليلة بدايةً جديدة، أخبره فيها بحملي الذي لا يزال سرًّا في أحشائي، حيث أخبرتني طبيبةُ النّساء والتوليد في الزيارة السابقة أنّني أحمل بنتًا.. لكن تتالي الأحداث وتوتّرُ العلاقة بيني بين آدم منعني من إخباره وإفساد تلك اللّحظة الرومانسية وإغراقها في مستنقع التّجاذبات الكلاميّة والخيانات والحرب النّفسية المفتوحة على مصراعيها بيننا.

واخترت لابنتي اسمَ "أنابيس" عندما تولَد؛كي تدوّن قصّة عشقنا في حروفها كلّما ناديناها به، في الواقع.. ورغم كلّ شيء شعرتُ أنّ ابنتي "أنابيس" سوف تكون طرفًا ثالثًا مهمًّا في حياتنا، ولا يمكنني تجاهلها أو اتّخاذ أيّ قرار أناني بالانفصال وحرمانها من والدها منذ ولادتها.

لقد مرّت الأسابيع الماضية بسرعة البرقِ لكثرة الأحداث فيها، كنت أشعر بالسعادة كلما نظرت إلى بطني، وتحسّسته وأنا أعرف أنّ قطعة منه تنبض بداخلي، وفي نفس الوقت كنت حزينة جدًّا لأنّني لا أتقاسمه هذا الإحساس الرائع.

تألّقت ليلتها بفستانٍ أزرق ملكيّ ساحر، تفوح منه رائحةُ الزهور البرية النادرة، كان شعري الأشقرُ الطويل مبعثَرًا بشراسة، رشقت على جانبٍ منه وردة فضية لامعة، كنت أتابع الرقص الهادئ معه بخطواتٍ مُرتبكةٍ على غير عادتي، وكانت نظراتي اللامعةُ العاشقة تغتصب مشاعره وتثير رغبته في الاختلاء بي.

***

عندما انتهتِ الحفلة وعدْنا إلى المنزل لم أشأ الحديثَ في أيّ شيء.لم أردْ إفساد تلك اللحظات؛ فقد كانت غرفةُ النوم بأضوائها الخافتة وموسيقاها الصامتة تستدعي كلّ مشاعرنا وأحاسيسنا لليلة ساخنة، صمتتْ فيها الأحرفُ والكلمات، ونطقت فيها لغة الجسد.

كان جسدُه في حالة اشتياقٍ قصوى،كتمثال أسطوري صارخ، لكنّه غيرُ جامد. كان مفعمًا، ممتلئًا بالحركة والحياة.

كان إحساسُه ليلتها حارقًا، مندفعًا كمضخّات الماء المتفجرة بقوة دفع كهربائي، وضغطٍ مشاعريّ يحبس الأنفاس.. وانتهت بثوانٍ طويلةٍ انفصلتُ فيها عن العالم المحيطِ بي، ودخلت في غيبوبة متقطّعة اللذّة.. انتهت بضخّ آخر قطراتٍ من سائل مياه الحبّ بطريقةٍ تردّدية، في شكل نبضات مرنةٍ بدأت تهدأ حدّتُها تدريجيًّا لتعيدني إلى العالمِ المحيط بي في هدوء، وحينها- فقط- عاد إليّ الإحساسُ بالأصوات والأضَواء، بالزمان والمكان، وانتبهت إلى أنّني غارقة في أحضانه محترقة بأنفاسه.

في الصّباح، دخلت المطبخَ أجهّز له الفطور، محاولةً ترتيب أفكاري لمصارحته بكلّ شيء، اتصلت بالسّيد سيمون لأخبره بقراري، وبأنّني سأنهي الموضوع، وأبدأ مع زوجي من جديد.. ولكنني فوجئت به يخبرني أنّ آدم قد هاتف مونيكا منذُ ربع ساعة يعتذرُ على موعد ليلة أمس، ويحدّد معها موعدًا جديدًا لسهرة الليلة.

لم أنطقْ بحرف.. فقط شكرتُه وأغلقت الخط.

شعرتُ ببرودٍ يجتاح جسدي وروحي، وتجمّدت أحاسيسي ومشاعري؛ بل تحجّرت.

حاول آدم التقرّبَ منّي ومداعبتي فلم أشعر بنفسي إلّا وأنا أنفجرُ في وجهه طالبةً منه الطلاق، وبعد شجارٍ عنيف قبّلني عنوةً، وحمل حقيبته وغادر المنزل في هدوء.

في الغدِ اتّصل بي السيد سيمون ليخبرني أنّ آدم قد تواعدَ الليلة الماضية مع مونيكا، وقطع علاقته بها، لم أكدْ أغلق الخطّ حتّى وصلتني رسالة على "الماسينجر" من حساب مجهول.. دخلت لأرى محتواها فوجدتُه "مالك" ذلك الوغد الذي فضّل ابنة عمّه منذ سنوات، والذي جنّ جنونه منذ أن تزوّجت بآدم، وما انفكّ يحاصرني برسائله، مرّةً بشدّةِ ندمه وحبّه، ومرّة يهددني بالانتقام مني وهدم حياتي الزّوجية إن لم أجبْ على رسائله وأتجاوب معه.. لقد فقدَ عقلَه ذلك الأبله.

لم أخبرْ آدم بأمر مالك فقد انتهيتُ بحظْره على الفور، ولكنّه أصبح يبعث برسائل من حسابات جديدةٍ ويزعجني، إنّه مثل الكلب الذي ينبح على طائرة محلّقة في السماء.

مرّت الأيام والليالي كئيبةً باردة في غياب آدم، بدأت أشتاق إليه من جديد، وحاولت الاتصال به دونَ جدوى، لقد كان كبرياؤه أقوى من عاطفته.

***

بعد أنِ انْتهى آدم من قراءةِ هذه المذكّرة، قلبَ آخرَ صفحة من دفتر مذكّرات أمل، وقرأ آخر أسطر بعنوان "الحنين" كانت قد كتبتها قبلَ مجيئه إليها الليلة الماضية، واعتدائه عليها،كتبتها قبل حلول الكارثة مباشرة.

***

الحنين

"لنْ يهزمَ البعدُ حنيني إليك يا حبيبي.. سأنتظرُك كلّ ليلة.. ويومًا ما سوف تعود"

***

أغلق الدّفتر، وانفجر باكيًا بحُرقة وندم ساخطًا على نفسه، وفكّر أنّه قد قتلها ظلمًا، فهي لم تخنْه، لقد كان يتلقّى رسائلَ من مالك الذي كان حبيبها أيّام الجامعة، يخبره فيها بأنها تحبّه، ومازالت على علاقةٍ به، وأنّه لن يتخلى عنها إلى المات.

وفي ليلة الواقعة اتّصلت به زوجةُ مالك لتطلبَ منه أن يهتمّ بزوجته التي تحاول افْتكاك زوجها، فجنّ جنونه، وشكّ بالأمر واتّجه إليها في حالةٍ مضطربة تقوده الغيرةُ والشكّ وحبُّ الامتلاك الأعمى ليُفاجأ بتلك الأجواء ويفقد السّيطرة على نفسه، لقد أصبح مريضًا بها، مهووسًا بحبّها.

أجهش آدم بالبكاء بعد الانتهاء من قراءة مذكّرات أمل.. لم تكن دموعُه سهلة النّزول، لكن أمل أبكتْه مرّتين؛ الأولى عندما فقدَ أثرَها منذ سنوات عندما استفاق على حقيقة أنّها خدعته بشخصية مزيّفة، واختفت بعدها.. والثانية عندما اعتقد أنّه قتلها دون قصدٍ وخسرها للأبد...كان تارة يعزّي نفسه في موتها، وتارةً أخرى يقبل عزاءه فيها.. أحسّ بجُبنه ووحشيته.. لقد قتلها مرّتين؛ مرّة بقتل روحها وأخرى بقتل جسدها.

أخذَ يضرب رأسه بكفّ يديه وهو يتألّم، اشتاق إليها كثيرًا، كان آدم يتمنّى لحظة واحدة معها، يركع فيها أمام قدميها، ويعتذر منها طالبًا الصّفح.

كان يتمنّى لو أنّ الأيام تعود به إلى الماضي كي يمحو كلّ نقطةٍ سوداء رسمها في قلبها الأبيض. لقد ندمَ ندمًا شديدًا على كلّ ما فعله، ولكن بعد فوات الأوان.

لا يعرف ليلتها كيف استسلمَ للنوم.. أو كيف غلبه النعاسُ من شدة الإرهاق والتعب!

***

الفصلُ الثّامن

الدكتور ماهر



رنّ الجرس فوضع الدكتور ماهر القصّةَ جانبًا ليفتح الباب، ويستلم الأكل من ساعي المطعم، وخلال تناوله للطّعام أجاب على بعض رسائله الإلكترونية، وظلّ مهتمًّا جدًّا بإكمال القصة ليلتها قبلَ أن يخلد إلى النوم.

تساءل الدّكتور ماهر في نفسه عن ما إذا كانت لتجربة الغربة التي ستخوضها أمل في ألمانيا تأثير على التّراكمات النفسية بداخلها، وعادت به الذّكريات إلى أوقات عصيبة عاشها داخل مجتمع كان بالنسبة إليه غريبًا في ثقافته وعاداته وانفتاحه، لا سيّما لحظات انكساره عند تلقّيه لخبر وفاة والده وهو منكبٌّ على المذاكرة والمراجعة لرسالة الماجستير في علم النفس.

***

في تلك الفترة كان يمرّ بصعوبات ماليّة ولم يتمكّن يومها من العودة بسرعة إلى أرض الوطن لتوديع جثمان والده وحضور مراسم دفنه، كانت تلك الحادثةُ قد عمّقت أحساس الغربة بداخله ولعن قرار مواصلة الدراسة بأوروبا، ظلّت صورةُ والده تلاحقه كلّ ليلة لفترةٍ من الزمن، كان يبكي رحيلَه في صمت، ويعكف على الدّراسة ليلًا ونهارًا ليتمكّن من التفوّق والحصول على عمل مرموقٍ يثبت فيه كفاءته، ويساعد عائلته ماديًّا.

عائلتُه التي بنتْ آمالًا كثيرة على دعْمه باعتباره العائل الوحيد لها بعد وفاة والده.

بعد انتهائه، وضع بقية الأكل في الثلاجة، وصنع لنفسه كوبًا جديدًا من القهوة، واتّخذ له مكانًا مريحًا في شرفة المنزل، وسافر مع أسطر رواية أمل من جديد..



الجزءُ الرّابع

أناييس



حوالي منتصف النّهار من اليوم التالي، كانت الطائرةُ تحلّق فوق البحر الأبيض المتوسط في حركة بطيئة للارتفاع، واختراق السّحب البيضاء، التي حجبت رؤية زرقة السماء المنعكسة على زرقة المياه.

عبر النافذة، تأمّلت منظر السّحب الذي يشبه أكوامَ الثلوج المتراكمة الناصعة البياض، داعب المنظر مخيّلتي، فقد بدتِ الطائرة وكأنّها تسبح فوق سريرٍ قطنيّ ينتقل بك بين الواقع والحلم، فأغمضت عينيّ قليلًا، وتذكّرت آدم، لقد اشتقتُ إليه كثيرًا، ليتني صارحته منذ البداية.

أخرجتُ دفترَ خواطري الذي لا يفارقني من حقيبةِ يدي، وكتبت:

فلننظرْ إلى دواخلنا للحظات، إنّنا طيّبون بالفطرة، ولكن إنْ أمعنّا النّظر وتأمّلنا قليلًا؛ فسنجد داخل كلّ منّا زاويةً صغيرة مُظلمة قد تجد طريقها إلى النّور في لحظات الإحباط والضعف والخذلان، فتنعكس على خارجنا من خلال تصرّفاتنا أو ردود أفعالٍ سلبية قد لا تعبر عن طبيعتنا بالأساس، وإنّما هي كنوعٍ من التمرّد.. أو كثورة أضاعت مسارها وفشلت في تحقيق أهدافها.. فالثورة التي تنبثق من الظلام تموتُ في الظلام.

والمشاعر التي تبدأ بالنّفاق مصيرُها العدم.

الحياةُ سهلة وبسيطة، ولكنّنا نعقّدها، ونجعل منها كتلةً من الهواجس. نحن نخاف ونشكّ بالفطرة.. ونظلّ نبحث عن الأمان والاستقرار والنّجاح حتى ينقلب بحثُنا إلى دائرة مفتوحة يغلقها هاجس الموت.

عجلةُ الزّمن لا ترحم ولا تعتق، تجعلك تنخرطُ فيها آليًّا في جدليّة فلسفية تظلّ من خلالها تبحث عن ذاتك.

***

مرّت صفحاتُ الماضي أمامي في ومضاتٍ خاطفة، تلتها بعضُ الدمعات الحارقة في لحظات، إنها تلك اللحظات التي تحاول فيها الهروبَ من نفسك فتجدك تتّجه نحوها وتغوص فيها. تختنق هي بداخلك، وتحتضر أنتَ خارجها، وعندما تحاول – عبثًا – أن تبتسمَ وداخلك منقسم، تخترقك الذّكرى، وتمزّق أنفاسك، فتفرح مرّة بالابتسامة، وتحتفل بالدّموع مرة أخرى.

استفقت على صوتٍ يعلن عن وصول رحلة الطائرة إلى مطار "دوسلدورف الدولي"، ويشكر المسافرين على ثقتهم في خطوط "لوفتنزا الألمانية".

***

على خطّ الوصول كانت هناك فتاةٌ في انتظاري تحمل لافتةً كتب عليها اسمي، إنّها مبعوثة المستشفى "بينار" التي كانت في استقبالي، وهي فتاةٌ تركيّة الأصل، ملامحها جذّابة، عينان سوداوان محدّدتان بقلمٍ أسود داكن، يحاذيه شعر أسود ناعم مُنْسدل على كتفيها، بدتْ نحيفة الجسمٍ رغم المعطفِ الرّمادي الذي كان يلفّ جسدها.

استقبلتني بابتسامةٍ عريضة، وصافحتني بحرارة شعرتُ حينها ببداية صداقةٍ سوف تتطور لاحقًا.

وبعد أن تأكّدت من بياناتي هاتفتِ المستشفى وأخبرتهم بوصولي، توجّهنا بعدها إلى إدارة المستشفى حيث قامت "فراو شنايدر" بتجهيز أوراق حضوري، وموافقتي على تعليمات وشروط الإقامة داخل المبيت المخصّص لنا؛ حيث تقاسمت الغرفة مع "بينار" لمدّة ثلاث سنوات.

***

تعتبرُ هذه السّنوات الثلاث حقبةً مستقلّة من حياتي، وصعبة على جميع الأصعدة:

كانت الدّراسة معقّدة، بذلت كلّ جهدي لاستيعابها واستيعابِ أسماء الأمراض المتشعبة والأدوية المركّبة، واحترام مواعيد الحقن والأدوية وغيرها، مع كيفية التعامل مع المرضى وامتصاص غضبهم أحيانًا، ورفع معنويّاتهم وتهدئتهم عند الضّرورة وتفهّم حالتهم النفسية المتعبة.

كما وجدت مشكلةً في الأكل؛ حيث كانوا يأكلون لحومَ الخنزير بكثرة، ورغم أنهم يجهزون أصنافًا أخرى من المأكولات للمسلمين بأنواع لحوم البقر والدواجن يسمّونها "حلال"، إلّا إنها كانت حيوانات لم يتمّ ذبحها على الطريقة الإسلامية؛ فبقيت النتيجة واحدة.

إذْ يقال إنّ تلك الحيوانات تصعَق كهربائيًّا، ثمّ يتمّ سلخها وتقسيمها، أمّا اللحوم المفرومة، فهي عبارةٌ عن خليط لحوم بما فيها الخنازير، توضع حيّة في آلة عملاقة تفرمُها خلال دقائق مهما كان كبرُ الحيوان. لذلك لم أتمكّن سوى من أكل الوجبات النباتيّة والسمكية، بينما كنت أتناول أطباق اللّحوم إمّا في مطعم تركيّ أو لبناني أو مغربي صحبة "بينار" بين الوقت والآخر.

***

لم أجدْ صعوبات من النّاحية المادية كباقي الزميلات؛ حيث كانت عائلتي تدعمني في البداية، فبالرغم من أنّه لم يكن مسموحًا في بلدنا بتحويل عملةٍ صعبة إلى خارج البلد؛ إلّا أن عائلتي وجدت حلًّا بديلًا، فقد كان الأصدقاءُ والأقارب المقيمون بأوروبا يبعثون لي ما أحتاجه من المال، ويستلمون تلك المبالغ من عائلتي حالَ وصولهم إلى هناك في زيارةٍ أو لقضاء إجازة.

مرّت سنوات التّكوين بسرعة، كسبت فيها الكثيرَ من المعارف والخبرات والأصدقاء، وخصوصًا بينار صديقتي وأختي في الغربة، حيث توطّدت صداقتنا كثيرًا. وبعد نجاحنا وحصولنا على شهادة التّمريض سمح لنا باختيار المجال الذي نريد العملَ فيه سواء في مستشفى أو دار مسنّين أو خاصّ أو غيره.

بالنّسبة لي اخترت الخاص، وفضّلت العمل في هدوء، أيّ أن أتابع حالةً معيّنة وأعتني بها، بينما بدأتْ بينار البحثَ عن عمل في مستشفى.

***

في الأثناء، انتقلت للسّكن مع بينار في شقّةٍ صغيرة وسط المدينة تقاسمنا غرفَها وإيجارها؛ لأنّ عقد الإقامة في المبيت كان قد انتهى بانتهاء التّكوين وحصولنا على الشهادة.

قبل بدْء رحلة البحث عن عمل قرّرت القيامَ برحلة بطالة إرادية، نعم ففرصُ العمل هنا متوفرة بكثرة لكلِّ مَن يريد العمل بجدية، لكنّي في تلك الفترة شعرتُ بالإرهاق بعد أن استنزفت سنوات التّكوين طاقتي.

دامتْ هذه الرحلة شهرًا، زرتُ فيه عديد المناطق السياحية بألمانيا، وكنت أتسوّق بشراهة تجاوزت مرحلة الضّروريات والكماليات إلى الدّخول في أدقّ التفاصيل، والتّنسيق بين الملابس والإكسسوارات في أجمل صيحاتها.

كنت أستمتعُ بالنوم دون أن ينتشلني صوتُ المنبه من أحلامي، وأحيانًا كثيرة أفتح عينيّ في الصباح الباكر ثمّ أستسلم للنوم ثانية بكاملِ إرادتي؛ حيث أصبح للسّرير في تلك الفترة إغراءٌ لا يقاوَم.كم كرهتُ صوت المنبه في الصّباح الباكر في تلك الفترة! كان يُشعرني وكأنّني في قاعدة عسكرية تنطلق منها صفاراتُ الإنذار مُعلنةً عن بداية مناوراتٍ ضدّ النّوم والتثاؤب والكسل.

ومِن بين الظواهر التي شدّت انتباهي خلال تجوّلي بتلك المدينة هي ظاهرةُ التسوّل، والتي تنقسم إلى: متشرّدين تجدهم أمام محطّات القطار الرئيسية حالتهم مزْرية، يضعون صحنًا أمامهم يستجدون المالَ في صمت، يجمعونه لتعاطي المخدّرات أو شرب الخمر؛ ومتسوّلين تجدهم وسط المدينة في الشوارع الرئيسية حيث المحلات التجارية يمارسون هواياتهم مقابل بعض المال: الغناء، والرسم، والرقص، والنحت، والعزف.

بحيث يقف المارّة للحظاتٍ يستمتعون بذلك الإنجاز، ويضعون بعضَ المال مع كلمات التشجيع، ويواصلون السّير.

***

ما أجملَ التحضّر حتّى في وجهِه المعتِم بهذا البلد، تذكّرت مشهدًا عشتُه يومًا ما في بلدي حيث مررتُ أمام سيدةٍ كانت دائمًا تجلس إلى جدارٍ كأنها تحاول منعَه من السقوط حين اقتربت منها سمعتُ منها دعواتٍ تهزّ الرّوح، فتوقّفت لا إراديًّا لأعطيها ما تيسّر من المال؛ لكنّني للأسف لم أجد بحقيبتي سوى ورقةٍ من فئةٍ نقدية كبيرة، فاعتذرتُ منها بأدبٍ وأخبرتها أنّي سأعود بعد قليل.. وما إنْ خطيتُ أوّلَ خطوة حتى لحقني وابلٌ من الشّتائم والكلام البذيء، صُدمت يومها.

أمّا اللّحظات الفارقة في تلك العطلةِ بالنسبة لي فقد كانت لحظات كتابة الخواطر، التي تجتاحني فيها الكلماتُ في حين غفلةٍ كلّما وجدت نفسي في مكانٍ هادئ جميل، وأحيانًا قليلة وسط الموسيقى الصّاخبة، أو في قلب ضوضاء ال "ألت شتاد" المدينة العتيقة ل"دوسلدورف".

هكذا هي الكتابة.. حالةٌ غريبة من الاغتيال اللّفظي تجعل كلّ حواسك تهتزّ للحظات فيسرع قلمُك بإنعاشها قبل أن تموت انحباسًا أو اختناقًا بداخلك، فتصاب بالاكتئاب الكتابي.

وهو ما حصلَ لي عند زيارتي لـ "جسر الحبّ" بمدينة "كولونيا" الألمانية.

يمتدّ هذا الجسر من أمام كاتدرائيّة كولونيا عبر ضفّتي "نهر الراين"، وتعتبر هذه الأخيرة من أجمل الكاتدرائيات بأوروبا؛ حيث تغصّ بالزائرين والسائحين من جميع أنحاء العالم، يشعلون الشموع ممتزجة بدعواتهم وأمنياتهم.

وهناك، لم يكن العشاقُ وحدهم مَن يعبرون الجسر والنهر، بل معهم آلاف العابرين والمسافرين والقطارات، في حين تعجّ الجهة الجنوبية له بمئات الآلاف من الأقفال الحديدية.

ذلك الجسر الذي حمل قصصَ العاشقين على ظهره، وبين ثناياه أقفالُ المحبين المغلقة، التي نقشت عليها أحرفُ أسمائهم، وتواريخُ عشقهم لتبقى ذكرى خالدة عبْر الزّمن.. ويزداد عدد الأقفال كلّ يوم بتزايد المحبّين، حتّى أصبحت هذه العادةُ في المجتمعات الأوروبية أشبه بالخطوبة في مجتمعاتنا العربية.. إذْ يقال أنّ تثبيت قفلٍ هناك ورميَ مفتاحِه في النهر هو بمثابة التّعاقد والثّبات على الحبّ والإخلاص بين الحبيبين.

لكنْ مَن يعلم بخفايا النّفوس..؟

لعلّ منهم مَن كانوا يشكون في ثبات ذاكرتهم التي قد تخونهم في يوم ما، إمّا بإرادتهم أو رغماً عنهم، فجعلوا من تلك الأقفال مَراجعَ لقصص عشقهم.. أو لعلّ شعورهم الدّفين بأنّ عشقهم ليس إلّا وهمًا وسرابًا وخيالًا، هو ما جعلهم يتعمّدون تأكيدَه وإقناع أنفسهم بأنه واقع وحقيقة مستمرّة، من خلال تدوينه في شكل علاماتٍ على قفل ماديّ مغلَق في حافّة جسر معلق في الفضاء.. بين الأرض والسماء.. قد يصمدُ بتلك الأقفال عبر الزمن، وقد يتمرّد كالقدر وينهار بها إلى غياهب النّسيان واللّا عودة.

ذكّرني ذلك المكان بآدم؛ فقد كان كالجسر الشّاهق في علوّه وغروره الجميل.. كانت ثقته بنفسه تشعرني بالارْتباك أحيانًا، وبالأمان والانتماء أحيانًا أخرى.

كنت أشعرُ بالخطر وأنا أتطلّع إلى ذلك الجسر، أشعرُ بالخوف من المجهول، لكنني في الآن ذاته أستشعرُ صلابته وشجاعته وقوّةَ تحمّله.. وفكّرت في نفسي كيف بقي ذلك الجسر صامدًا وهو مثقَل بكلّ ذلك العشق!؟ أو لعلّه يبدو صامدًا وهو في الحقيقة يقاوم السّقوطَ الجزئي أو الكلي، جرّاء حمْلِ أطنان من أقفال العشْق وقصصها المرهقة.

تُرى ماذا عن آدم؟ هل مازال مخلصًا صامدًا يقاوم أمام كُفر عشقي؟ أم أنّ العشق أثقله وأنهكه فسقطَ جريحًا وحيدًا في نهر الذّكريات؟ أو لعلّه أسقط عشقي في نهر النّسيان ليبقى هوَ متشفيًا في كبرياء، تمامًا كما أسقط "جسر الفنون" بباريس جزءًا من أطنان أقفال العاشقين في نهره، ليظلّ هو صامدًا في شموخ.. مَن يعلم!؟

***

طوال سنوات التّكوين هذه لم أستطعْ نسيان "آدم"، لم أستطع نسيانَ تلك العلاقة التي بدأت بلعبة تحدٍّ بيننا، وانتهت بصرخةِ قلبٍ كسير، وخزت شظاياه أطرافَ الرّوح وأعماقها.

فما أصعبَ أن تدخل لعبةً تخسر فيها قلبَك، ما أصعبَ أن يسرق نبضه في غفلةٍ منك. فتواصل حياتك بقلبٍ ميّت إكلينيكيًّا مع إيقاف التّنفيذ، ويتنفّس اصطناعيًّا عبر خيوط الذّكريات الماضية.

بعد انتهاء الشّهر، وقّعت عقد عملٍ مع شركة خاصّة لتوظيف الممرضات، وبدأت العمل على الفور حين اتّصل السيد "مارك" بالشّركة،

يطلب ممرضةً مرافقة لزوجته المسنّة لمدّة شهر لتعويض ممرضتها الأصلية إلى أنْ تعود من الأجازة، وبعد أنْ وضحت لي طبيعة عملها بتفاصيله، قمت بتعويضها خلال المدّة المذكورة.

وبعدها، انتقلتُ للعمل في مكان ثانٍ وثالث، وقد كانت لكلّ عائلة عملت معها روحها وأسرارُها، هناك مَن عملت معهم بتوقيت عملٍ إداريّ؛ ثمان ساعات في اليوم، وهناك مَن كنت أسكنُ معهم كممرّضة مرافقة.

هكذا مرّت الأشهر الأولى، أتفانى في عملي، الكلّ يحترمني، وسرعان ما يأنسون لوجودي بينهم ويأسفون لفراقي عند انتهاء مهمّتي، ولكنّ الأمر لم يكنْ بيدي؛ فعملي معهم ينتهي بانتهاء فترة العقد المبْرَم بينهم وبين الشركة التي أعمل لديها.

ومرّت الشّهور إلى أن طلبتْ منّي إدارةُ الشركة تعويضَ ممرّضة لديها حالةُ وفاة طارئة اضطرّت إلى السّفر إلى بلدها لمدّة شهرين، كان المطلوب منّي آنذاك هو الاعتناء بالسيدة "كاترين" التي تجتاحها غيبوبةُ السّكري باستمرار، والعمل على استقرار حالتها الصّحية، ومرافقتها...

وكان دخولي إلى هذا المنزل في شهر نوفمبر بالنّسبة لي هجمةً من هجمات القدَر التي لا تنسى.

***

يقع منزلُ السّيدة "كاترين" في "هولت هاوزن" بمدينة "دوسلدورف"..

منزلٌ راقٍ، يتوسّط حديقة رائعةَ الجَمال، تتحدّى أزهارها ألوان الفصول بتناقضاتها، وتلك الأشجار المتّصلة المتسلسلة المحيطة بسور الحديقة، كانت تعطي انطباعًا من بعيد بأنّها تحمي خلفها قلعةً جميلة صغيرة من العصور الوسطى. أمّا الباب الحديدي الخارجي للمنزل فكان أسودَ مزخرفًا، بُنيت إلى جانبه مزهريّتان عملاقتان نقشت عليهما أسماء وزخرفات فضية، وهناك ممرّ طويل بين الباب الرئيسي والباب الدّاخلي للمنزل، زُرعت على جانبيه أشجار قصيرة، وثبتت بأرضيّته أضواء تنير ذلك الممرّ في الليل، وتعطي المكان سحرًا ورونقًا أسطوريًّا أخّاذًا..

ووراء المنزل يوجد حمّام سباحة صغير، وغرفة "جاكوزي" صُنعت خصّيصًا من الخشب الخالص، يتكوّن المنزل من طابقٍ أرضي به غرفة استقبال كبيرة متفرّعة الأركان والأثاث؛ من غرفة جلوس وأكل وشرب الشاي، بالإضافة إلى مطبخ كبير وحمام.

ومن طابقٍ علويّ مقسّم إلى جناحين، بكلّ منه ثلاثُ غرف نوم، تحتوي كلّ غرفة على حمّام خاص، وشرفة زُينت بمحابس الورد وبعضٍ النباتات الأخرى.

وتقع غرفتي في الجناح الأوّل بجانب غرفة السيدة كاترين، شرفتُها مطلّة على حمّام السباحة، بينما تطلّ شرفاتُ الجناح الثّاني على الحديقة.

استقبلتني السيدة "كاترين" باحتفاء، وطلبت من المعينة المنزلية تجهيزَ كوبِ قهوة مع بعض الحلويات، بينما طلبتْ لنفسها كوبًا من المشروب بنكهة الأعشاب الطبيعية.

جلسنا نتجاذب أطراف الحديث كنوع من التعارف بيننا، بعد أنْ وضعتُ حقيبة ملابسي داخل غرفتي، وعدتُ إليها.

في البداية، كانت أسئلتها روتينيّة تتمحور حول سنّي ومستواي الدراسي وخبرتي العملية، وكنت أجيبها بتلقائيّة مع بعض التحفّظ، لكن سرعان ما استطابت الحديث معي بعد أن علمت أنني أتحدّث اللغة الفرنسية بطلاقة، وفرحت كثيرًا، بما أنّها كانت مدرسةَ لغة فرنسية قبل مرضها.

***

لمعت عينا السّيدة "كاترين" وهي تتحدّث عن ذكرياتها بفرنسا، وبدأ الحنين إلى أيام مضت يطرق أبوابها، أو أبوابنا... فبمجرّد ذكر فرنسا حتّى تململت ذكريات آدم بداخلي.

طلبتْ منّي أن نترك اللغة الألمانية جانبًا، ونتحاور باللغة الفرنسية.

كانت تتحدّث كطفلة مدلّلة حصلت على لعبتها المفضّلة، شعرت بسعادة لتلك المشاعر الإيجابية، التي بدتْ جليّة على وجهها الأبيض وقد غمرته حمرةٌ زادتْه جمالًا، كان شعرُها الذهبي الفاتح معقودًا إلى الوراء، تتخلّله خصلاتٌ من شعيرات الوقار البيضاء التي تحاول اكتساحه على مرّ السنين.

السّيدة "كاترين" سيدة أنيقة في ملابسها، وفي جلستها، بصراحة كلّ المسنّات الألمانيات اللواتي قابلتهنّ طيلةَ تواجدي هنا كنّ متفاوتاتِ الأناقة بنسب وأذواقٍ متفاوتة ومختلفة.

تمامًا عكس المسنّات في بلدي، أعتقد أنّ الفكرة تتلخّص في اختلاف نظرة المرأة الأوروبية عن المرأة العربية للحياة، ففي حين ترى الأولى عند تجاوزها لعقدها السّادس بداية الاستمتاع بالحياة بعد عملٍ واجتهاد دامَ لسنوات طويلة؛ ترى الثانية في تلك السنين استسلامًا للمرضِ والوهن والخمول.

أعجبتِ السيدة كاترين بلكنتي الفرنسية كثيرًا، وبعد وقت ممتع قضيناه معًا صعدت إلى غرفتها لمراجعة أدويتِها.. وبسؤالي لها عن سكّان مملكتها، أخبرتني أنّها تزوّجت من فرنسي يدعى "فكتور" عندما كانت شابّة، أحبّته كثيرًا، وأنجبت منه بنتًا تسمّى "روزالي"، وبعد سنوات انفصلَا، وعادت مع ابنتها للاستقرار بألمانيا حيث تزوّجت من والد ابنها "فيليب" الذي توفّي منذ بضع سنوات.

يمتلك ابنُها فيليب مكتبةً لبيع الكتب وسط المدينة، ولديه شقّة مستقلة، لكنّه يأتي لزيارتها بانتظام.. أمّا ابنتها "روزي"- كما يحلو لها مناداتها- فقد اختارت السّفرَ إلى فرنسا، والانضمام إلى عالم عارضات الأزياء منذ سنة، وتأتي لزيارتها في الإجازات وبعض المناسبات الخاصّة.

مرّ الشهر الأول- شهر نوفمبر- بسلام، لم يكنِ العملُ متعِبًا؛ فهي سيّدة منظّمة جدًّا، محافظة على روتينِها الغذائي، وتبتعد تلقائيًّا عن كلّ ما من شأنه أن يوتّرها، ويرفع ضغطها.

***

وفي المرّة التي أغمي عليها فيها ظللتُ أتابع حالتها الصّحية ليلة كاملة حتّى استعادت توازنها، وتحسّنت حالتها، واستقرّت تمامًا.

أخبرتني صديقتي "بينار" ذاتَ مساءٍ أنّها تريد شراء ملابس لسهرة رأس السنة، وتحتاج إلى مساعدتي؛ إذْ كان لبينار صديقٌ ولد بألمانيا من أصولٍ تركية تحبّه كثيرًا، وأخيرًا اتّفقا على الارتباط في السنة الجديدة.

بعد أن استأذنت من السيدة كاترين أمضيتُ المساء معها، نتجوّل بـ "كونيكسالي" شارع الملوك الرّاقي بمحلاته التجارية العالمية، التي بدأت لافتاتُ التّخفيضات على واجهاتها تغمزُ للمارين من بعيد، وتغريهم بالشراء.

ومن هناك، اشترتْ فستانًا قصيرًا أسودَ اللون، مزركشًا بخيوط الدّانتيل، وكان مثيرًا للغاية، بحثنا بعدَها عن حذاءٍ وحقيبةِ يدٍ مناسبة له وبعض الإكسسوارات.

كانت اللّحظات ممتعة، كنت أرى السّعادةَ على وجهها، وكانت روحها تغمر الجميع عشقًا، فكّرت في هذا الإحساس لا إراديًّا، وكمْ كانت بينار جميلةً ومليئة "بأدرينالين" الحبّ.. تلك اللّحظات التي تنتقي فيها ملابس سهرة لليلةٍ مميّزة سترتبط فيها بحبيبها.

***

عادتْ بي الذّاكرة إلى ثلاث سنوات مضتْ قضينا فيها- أنا و" بينار"- ليلة رأس السنة نعمل في المستشفى طوالَ الليل؛ حيث وردتْ علينا كوارثُ طبيعية بالجملة، حالات من الإغماء وحوادث لا حصرَ لها جراء السياقة

الممنوعة تحت تأثير الكحول، وخاصة المتعاطين للمخدرات الذين يتناولون جرعاتٍ إضافية، لكن هذه السنة مميزة بالنسبة لصديقتي؛ إنها عاشقة، وستقضي السهرة مع خطيبها.

مجرّد التّفكير في الحبّ جعل قلبي يخفق من جديد، وشعرتُ ببعض الحزن لهذا الركود العاطفي الذي أعيشه، وهذا القرار باختيار اللا حبّ بعد آدم.

لم أستطعْ مسامحة نفسي على خداعي له، والاختفاء من حياته، لقد أحبّني كثيرًا، وطلب مني الزواج بناءً على علاقة روحية افتراضية جمعتنا، إنّها علاقة لن يفهمها الكثيرون.

ورغمَ أنّني حاولت- أحيانًا- البحثَ عنه، وتقصّي أخباره، ولو خفية، للاطمئنان عليه إلّا أنني فشلت، فشلت في تحسسها كما فشلت في تجسسها، فقد قطع أيّ خيطٍ قد يوصلني إليه في يوم من الأيام ردًّا على ما فعلته.

***

عدتُ بعدها إلى منزل السيدة كاترين في حالةٍ شبيهة ببداية اكتئاب من هذا الفراغ العاطفي الإرادي لأجد ابنها فيليب هناك.

كنتُ قد تعرفت على فيليب خلالَ زيارته لوالدته في الأيام الماضية، وتناقشنا في بعض الأمور الأدبيّة باللغة الألمانية، وأحيانًا باللغة الفرنسية، وقد دعاني لزيارة مكتبته؛ بعد أن علم أنني مولعة بقراءة الكتب والروايات، وأحيانًا أكتب بعض الخواطر والمذكرات.

كان جادًّا في عمله، يحمل بداخله طموحاتٍ كثيرة يعمل على تحقيقها، لعلّ أهمّها أن يكون لاسم مكتبتِه فروعٌ في أرجاء المدن الألمانية.

كانت المكتبةُ متوسطةَ الحجم، ذات طرازٍ حديث رغم بساطتها، غاية في النظافة والترتيب، يشعر كلّ مَن يدخلها بالراحة، والرّغبة في المطالعة واقتناء الكتب، ملأت جدرانُها برفوف من الخشب البنيّ الناعم، وصفّتْ عليها الكتب والرّوايات حسب الاختصاص، أرضية المكتبة من الرخام الأبيض اللّامع، تمتدّ في وسطها- طولًا- سجادةٌ حمراء من مدخل المكتبة وحتّى آخر رفّ فيها، يتلألأ سقفها بالأضواء المنعكسة على الكتب.

على طاولةٍ مزخرفة وسط المكتبة صُنعت في شكل سفينة خشبية، وضعَت كتب وروايات بعروض مغرية، ما شدّ انتباهي هو رائحةُ الزّهور التي تجتاحني كلّما زرت المكتبة للمطالعة تعطيني انطباعًا بالتنزّه في حدائق غنّاء أثناءَ القراءة، وتنبعث من أركانها موسيقى صامتةٌ مهدئة للأعصاب.

جهّز ركنًا منها بطاولاتٍ وكراسي مريحة لأصدقائه، يفصلُها نصفُ جدار خشبي مزخرف بثقوب منقوشة عن بقية القاعة.

كنت أجلسُ مع السيدة كاترين في الحديقة صباحَ يومٍ من أوائل شهر ديسمبر، عندما دخلت المعينة المنزلية بالهاتف، وبعد أن أنهتِ السيدة كاترين المحادثة انفرجت أساريرُها، وظهرت عليها الغِبطة، أخبرتني على الفور أنّ ابنتها "روزالي" قادمة لزيارتها مع صديقها الجديد، وأنّهما سيمضيان العيدَ وحفلةَ رأس السنة معها.

كانت السيدة كاترين لم ترَ ابنتها منذُ بضعة شهور، ويعتبر عيد المسيح مناسبةً خاصّة جدًّا لاجتماع العائلة، وتناول العشاء، وتبادل الهدايا، وزيارة الكنيسة.

***

مرّت الأيام بسرعة، وتمّت التحضيرات لتلك المناسبة على أحْسن وجه، من خلال مجموعة من التّعليمات التي أعطتها السيدة كاترين للمعينة المنزلية من تنظيف المنزل، وتزيين ركن شجرةِ عيد الميلاد، وأطباق الطعام التي عليها إعدادها.

صباحَ ليلة عيد الميلاد، ذهب فيليب إلى المطار لاستقبال شقيقته، وإحضارها إلى المنزل بسيارته.

تألّقت السيدة كاترين- كعادتها- بفستانٍ كلاسيكي أخضر قاتم، ربط في نصفه حزام رمادي مطرّز، زادها أناقةً، وحدّد معالم خصرها النّحيل في محاولة لإبراز تضاريسها التي مازالت تقاوم صامدةً رغم تأثيراتِ العوامل المناخية والفسيولوجية على مرّ الزمن.

لم يطلِ انتظارُنا طويلًا حتّى رنّ جرس الباب لتفتحه المعينة المنزلية، ويدخل فيليب بحقائب السفر، ووراءه دخلتْ فتاة في أوائل العشرينيّات؛ طويلة، رشيقة القوام، شعرُها قصير مموّج أشقر، وعيناها خضراوان، كانت ترتدي حذاءً رياضيًّا أبيضَ، وبنطلونًا من الجينز الأزرق الممزّق على مستوى الرّكبة والفخذ، تتدلّى منه بعضُ الخيوط اللامعة، و"تيشرت" أبيض، كُتب عليه "باريس" باللغة الفرنسية، ومعطفًا قصيرًا مفتوحًا.

دلفتْ بسرعة، وحضنت والدتها قائلة:

- تبدينَ في صحّة جيّدة يا أمّي.

أجابتها السيدة كاترين مبتسمة:

- الفضلُ يعود لأمل؛ ممرّضتي ومرافقتي الجديدة، إنّها تهتمّ بي كثيرًا، إنّها فتاة رائعة وجادّة في عملها.

نظرتْ روزالي باتّجاهي، ومدّت يدها مصافحة مبتسمة:

- تشرّفت بمعرفتك يا أمل، شكرًا على اهتمامك بصحة والدتي.

وقبلَ أن أردّ تحيتها ببعض الكلمات المنمّقة التفتت بسرعة وقدّمت صديقها لوالدتها، لم ألحظ دخولَه في البداية حيث كنت أتابعُ لقاءها بوالدتها، قالت في شموخِ مَن امتلك كنزًا نادرًا:

- أقدّم لكِ صديقي "آدم".. فرنسيّ الجنسية، من أصول عربية، تعرّفت عليه في أحد عروض الأزياء حيث كان يرافقُ والدته.

كانت تتكلّم بحماس، بينما حُبست أنفاسي وأنا أرى آدم.

تأكّدت حينها فقط من مقولة "لا فونتين":

"غالبا ما نصادفُ قدَرَنا يتربّص بنا في الطّرق التي نتّخذها مهربًا!"

***



الفصلُ التّاسع

الدّكتور ماهر



كان الدّكتور ماهر يقرأ بتركيز تامّ.. يعيش مع مشاعر أمل، واختلاجاتها أوّلًا بأوّل، أعجب بجرأتها في اتّخاذ قراراتها، وروح التمرّد والمغامرة بداخلها.

وأحيانًا كثيرة يعيدُ قراءة جزءٍ ما، أو يبتسم لوصفٍ أو تشبيه، لاحَظَ أنّها كانت تبحث عن التميز والتفرّد في علاقتها، وأنّها تعشق هالةَ الغموض تلك التي تزيدُ في مشاعرها اتّقادًا، وفي علاقتها إثارة؛ لذلك السّبب تعمّدت تجاوز ذكر تفاصيل كثيرة في علاقتها بآدم لتحتفظ بذلك الشغف وتلك المساحة الغامضة ليتخيّل كلّ قارئ مدى عمقها وأسرارها.

تذكّر للحظةٍ أنّ تلك الكاتبة الهاوية التي أسعدته للحظات، وحملته عبْر سطورها إلى عالمها الخاص؛ ترقدُ في العناية المركزة، تعاني تدهورًا صحيًّا وانْهيارًا نفسيًّا، شعر بالقلق والامتعاض، ودون أن يشعر اتّصل بالمستشفى، وسأل زميله عن حالة أمل، وبعد أنْ أنهى المكالمة شعر بالارتياح لاستقرار حالتها نوعيًّا، محاولًا تجاهل صوتٍ بداخله يسأله: لماذا فعلت هذا وأنت لم تبدأ جلسات العلاج معها عمليًّا بعد!؟

***

قطعَ شروده برنامجٌ وثائقي على شاشة التلفاز، يتحدّث- بسخاء- عن مدينة دوسلدورف الألمانية، إذْ كثيرًا ما ينجذبُ ماهر إلى مثل هذه البرامج الوثائقية، والتاريخية، وخاصّة ناشيونال جيوغرافيك، وغيرها. وكان يجد متعةً كبيرة في اكتشاف عالم الحيوان، ومتابعة أحدث الأفلام.

رفعَ صوتَ التلفاز قليلًا وهو يترشف قهوته:

.../////

"دوسلدورف" هي عاصمة ولاية شمال الرّاين، وستفاليا في غرب ألمانيا، وعاصمة محافظة دوسلدورف، وإحدى أكبر مدن البلاد، وهي ثاني أهمّ مركز اقتصادي وعالمي في ألمانيا، بعد فرانكفورت، وتتمركز في منطقة "الرّاين- رور" التي تعدّ من أكثر المناطق كثافة بالسكان في أوروبا. يشقّ المدينة نهرُ الراين، وتشتهر بالأزياء، وبكثرة المناسبات والمعارض التجارية التي تقام فيها؛ ففي شهر تمّوز من كلّ سنة يزورُ مدينة دوسلدورف أكثر من ٤،٥ مليون شخصٍ لحضور معرض المتعة المقام على ضفاف نهر الرّاين، والذي يعدّ من أشهر المعارض التّرفيهية التي تنظم فيها.

إضافةً لذلك، احتلّت دوسلدورف المرتبة الأولى على مستوى ألمانيا، والسادسة على مستوى العالم من حيث جودة المعيشة، وذلك وفقًا للمسْح الذي أجرته مؤسّسة ميرسر في عام ٢٠٠٩م.

تزخر دوسلدورف بالعديدِ من الانشطة، مثل عالم "وارنربرذرز" للسينما الترفيهية، والتي تضمّ العديدَ من المطاعم والمتاجر والألعاب المثيرة، وتنطلق منها رحلات سياحية في نهر الراين.

ومِن أكبر الأحداث الثقافية التي تُقام في دوسلدورف في كلّ عام؛ هو "كرنفال دوسلدورف" الذي تنطلق فعالياته في ١١ نوفمبر من كلّ عام،

وتحديدًا في الساعة الحادية عشرة صباحًا، ويبلغ ذروتَه بحلول ما يُعرف "باثنين الورود"، تنظّم خلالها مسيرة ضخمة، على طول كيلومترات، يرتدي فيها المنظّمون شتى الأزياءِ التّنكرية والاستعراضية، مصحوبين بعربات وشاحنات وخيول ومشاة وفرق موسيقية، ويقذفون الورودَ والحلوى والهدايا الصغيرة على السكان المتجمهرين على حافّتي الطريق للاستمتاع بمشاهدة استعراض الكرنفال. تجوب شوارع دوسلدورف في حين تنتهي فعاليات الكرنفال في يوم "أربعاء الرماد" ليسدل بذلك السّتار على واحدةٍ من أضخم الكرنفالات المقامة بها، والتي تشكّل جزءًا من الكرنفالات التقليدية التي تُقام في "راينلاند".

تحتوي مدينة دوسلدورف على أهمّ المتاحف؛ كمتحف "كونستهال"، وهو من أقدم وأشهر متاحف الفنون المعاصرة في المدينة، إلى جانب البناية التّاريخية لأكاديمية الفنون، التي تقع على الضّفة الشرقية من نهر الراين، والتي تتمتع بشهرة عالمية.. بالإضافة إلى متحف "غوته" الذي يقع في قصر ياغرهوف، ويُعتبر من أشهر المتاحف التي تزخرُ بها هذه المدينة، ويضمّ نحو ١٠٠٠ قطعة موزّعة على إحدى عشرة غرفة، والتي تمثّل أهمّ المقتنيات الشخصية لعميد الأدب الألماني الشاعر "يوهان فولفغانغ فون غوته"، ومنها الطّبعات الأولى لأعماله الشعرية التي تمّ حفظها في خزائن زجاجية، إضافةً إلى المخطوطات والرسائل الأصلية التي كتبها غوته إبّان حياته.

وبالإضافة إلى ما تقدّم، تنتشر في دوسلدورف تشكيلةٌ أخرى من المتاحف والأبنية التاريخية، نذكر منها- على سبيل المثال لا الحصر-:

"متحف الأحواض المائية والحيوانات"، "متحف الأفلام"، "متحف شمال راين- وستفاليا للاقتصاد والثقافة"، معهد "هينريش هاينه"، "المتحف التذكاري لضحايا النازية"، متحف "كونست بالاست"..

......//////

***

اكتفى ماهر بهذا الحدّ، وخفض صوتَ التلفاز عائدًا إلى شروده من جديد، مفكّرًا بهذه المدينة الرّائعة الجمال التي تقيم بها، متسائلًا في عقله الباطن:

- تُرى هل ستكون هذه المدينة مسقطَ عشقه القادم يومًا ما؟

وهل سيشعر بدقّات قلبه تنتفضُ وتتسارع حسب التّوقيت المحلي لمدينة دوسلدورف وضواحيها؟

لقد وقعتْ أمل في الحبّ من نبرة صوت، فهل يُعقل أن يقع هو مِن قراءة كتابات؟

حاول أنْ ينفضَ غبار التّساؤلات المراهقة تلك عن ذهنِه، والعودة إلى مغامرة أمل.

بدأت بعضُ الأفكار والمشاعر تتسرّب إلى أعماقه رغمًا عنه، فوجد نفسَه يتساءل عن تفاصيل كثيرة تخصّها، ولم يجدْ لها إجابات.

قرّر مواصلة القراءة وإنهاء القصّة؛ لعلّه يطفئ ظمأ ذلك الفضول الذي ما انفكّ يراوده عن نفسه.

الجزءُ الخامس

أنابيس



لا أستطيع وصفَ تلك اللحظة وإعطاءها حقّها من ثورة المشاعر التي داهمتني حينها، فقد كاد قلبي يتوقّف عن النبض من هوْل المفاجأة، أصبتُ بحالة من الذّهول المؤقّت، أو لعلّه شرود الصدمة.

وما إنْ مدّ آدم يدَه لي مصافحًا حتّى بدأت دقّات قلبي تنتفض مُتسارعة، ثمّ شعرت بارتعاشات طفيفة سرتْ في جميع أوصالي.

كنت أعرفه جيدًا من خلال صورِه العديدة التي بعثَ لي بها سابقًا، ولكنّه لا يعرفني؛ فقد عرفني بشخصيّة أنابيس، وصور "العرّافة".

لاحظ الجميعُ حالة الارتباك التي أصابتني، وخصوصًا آدم، الذي رشقني بنظرةٍ ثاقبة سريعة، ثمّ أسرع بمعالجة الموقف متحدّثًا إلى السيدة كاترين، ولم ينتظر أن أقدّم نفسي، فقد ابتلعت لساني وخانتني الكلمات، وشعرت أنني خرساء.

– سيدة كاترين، أنت أنيقة جدًّا، وذوقك رائع، تبدين شابّة جدًّا، وجميلة.

وأهداها ابتسامةً ساحرة جعلت عينيْها تلمع كطفلة غازلها ابنُ الجيران وأخجلها، ثمّ رمقني على الفوْر بنظرة خاطفة سريعة، لا أدري حينها أكان يقصدُ السيدة كاترين فعلًا بمدحه، أم هو يقصدني بطريقة غير مباشرة، أم إنّه خيّل إليّ ذلك وتمنّيت بداخلي لو أنّه وجّه تلك الكلمات الرقيقة لي!؟

ثمّ واصل الحديث مع السيدة كاترين، لكنني لم أستطع التّركيز، ولم أسمع شيئًا.. كنت قد دخلت في حالةٍ من اللاوعي والتبلّد الحسّي، بدأت ومضاتٌ من الماضي تجتاحني فاستأذنت منهم وتعلّلت بأنّني مرهقة، وصعدت إلى غرفتي.

***

أغلقتُ الباب ورائي بالمفتاح، ارتميت على السّرير، وانفجرت باكية، في نفس اللحظة غمرتني سعادةٌ لا توصَف، وابتسمت لأنّي رأيته وجهًا لوجه، ثمّ انهمرت دموعي ثانية لهذه الصّفعة القاسية من القدر حيث قرّر لقاءنا وهو مرتبطٌ بفتاة أخرى!

هكذا هو القدر.. يتفنّن أحيانًا في صفعك فتبكي دموعًا مذاقُها سكّر، وتبتلع ابتسامة طعمُها مرّ كالحنظل.

جالَ بخاطري للحظاتٍ أنْ أعتذر من السيدة كاترين وأغادر المنزل، ولكنّني فكّرت أنّ عملي معها في كلّ الأحوال سينتهي بعد خمسة أيام ،أي ليلة رأس السنة، وبعد أخذ وردٍّ قرّرت أن أحاول التّأقلم مع هذا الوضع العاطفي الدّرامي لبضعة أيام، وأن أختفي بعدها دون أنّ أثير شكوك آدم نحْوي.

كنتُ أسمع أنّ العالم صغيرٌ جدًّا.

ولكنّني لم أتوقّع أنّه ضيق إلى هذا الحد، ليثأر القدرُ لآدم منّي، ويجمعني به في منزلٍ واحد، وقلبه مشغول بأخرى.

كانت أسئلة كثيرة تقفز بعقلي طوال الوقت تبحث عن أجوبة، أمّا الذكريات فكانت كوحوش تتربّص بي لتهجم على مخيّلتي من كلّ صوب، لحظات عصيبة عشتها، فقدت فيها هدوئي الداخلي المزعوم، واندلعت خلالها براكين الشّوق والحنين.

لقد كان فؤادي الذي يخفقُ في صمت، وروحي التي تنبضُ في سرّي؛ بل كان كياني كله الذي بدأ يتزلزل أمامي.

دخلت غرفةَ الاستحمام، وتركت الماء السّاخن ينهمر على جسدي لأكثر من ساعة، شعرت وكأنّ لقاء الصّدفة ذاك قد علق بجسدي وروحي، فحاولت- عبثًا- محْوَه بسيول المياه المختلطة بسيول الدّموع، آملة أنْ تهدأ روحي بعدها ولو قليلًا.

بعد أنِ ارتديت ملابسي.. بنطلونًا أسود، وبلوزة سوداء، ووشاحًا صوفيًّا أسود أيضًا، وقفت في الشّرفة المطلّة على المسبح مفكّرةً في كمية السّواد التي ارتديتها على غير عادتي، هل أنا في حداد على رؤية آدم مرتبطًا؟ أم أنّني سأدخل في حالة من الاكتئاب النفسي؟ لا أدري.

لمحت آدم وروزالي يلعبان مع "جولي" كلبة السيدة كاترين قربَ المسبح، كانا يرميان بالكرة الصّغيرة بعيدًا، وجولي تحضرها بأسنانها.

كان منظرهما جميلًا كلوحةٍ زيتيّة، وكان قلبي يعصر في حيرةٍ وغيرة، كم تمنّيت لو كنت مكانها في تلك اللحظة، وتساءلت في نفسي:

"ترى هل يحقّ لي أنْ أغار عليه؟"

كان قلبي يجيبني:

"حتمًا يحقّ لكِ ذلك؛ فأنت حبيبته وقد أحببتِه قبْلها"

وصوتٌ آخر بداخلي يردّ معترضًا:

"أنتِ قصّة وانتهت، وأنت مَن أنهيتها بحظرك لوجوده في حياتك.لم تعطِه حقّ الردّ، سواء بالغفران أو النسيان.لم تعطه المجالَ ليقول كلمةً واحدة حتّى. أنتِ ماضيه الخيالي الذي ولّى وانتهى، وهي حاضرُه الواقعي ومستقبله، فتجنّبي الاقتراب منه قدْرَ الإمكان، ودعيه يعيش مع مَن اختارها بسلام".

كان هذا الصّوت الدّاخلي القاسي صوتَ ضميري، الذي نصّب نفسه حكمًا بيني- كمذنبة- وبين آدم- كضحية- في لعبة العشق الكافر.

هاتفتُ بينار، وطلبت لقاءها على الفور قبل أن تتوجّه إلى منزل عائلة خطيبها بعد ساعات للاحتفال معهم. كانت السّاعة لا تزال تشير إلى العاشرة صباحًا آنذاك، استغربت صديقتي في البداية هذا الموعدَ المفاجئ، ولكنّها- بالتأكيد- شعرت بحاجتي الملحّة إليها، فوافقت رغم أن وقتها كان مشحونًا بالتّجهيز للسهرة.

كنت أرغب في الابتعاد قليلًا، واستنشاق الكثير من الهواء المثلج إلى أن يأزف موعدُ رحيلي.

فكّرت في النّزول إلى الطابق السّفلي للاطمئنان على صحّة السيدة كاترين قبل الخروج، ولم أكن أعلمُ أنّ الحبّ سيعترضني أعلى الدّرج، في الرّدهة الفاصلة بين الجناحين حيث تتصدّر صورة العائلة قلب الحائط.

كان آدم يصعدُ الدّرج متوجّهًا إلى غرفة الضّيوف في الجناح الثاني، بينما كنت أنا على رأسه أهمُّ بالنّزول.

حالما لمحته تسمّرت مكاني، ضغطتُ بيدي اليمنى على درابزين الدّرج لأحافظ على توازني، ووقفتُ جامدة كتمثالٍ ثلجيّ يخشى الاصطدام.. يخشى الذّوبان والانصهار في رجلٍ برجُه ناري.

راقبتُ- للحظة- حركةَ صعوده الرّشيقة، كان منشغلًا بإزالة شيء ما علق بسترته، ولم يلحظني في البداية.. بينما كنت مشغولةً بمراقبة حركة يديه

تنفضان على صدره كأنّهما ترسمان على لوحة، تلك اليدُ التي وقعتُ في عشقها منذُ الصّباح، منذُ أوّل ملامسة بيننا عندما مدّ يدَه مصافحًا يدي في ضغطةٍ خفيفة لا أعرف مغزاها، يد ممتلئة رجولة وقوّة ودفء.. ضغطة خفيفة ولّدت ذبذبات كهرو- جسديّة.

لم أستفقْ من تلك الغيبوبة الآنية الحالمة إلّا وهو يضعُ يدَه على كتفي، مبتسمًا وكأنّه يوقظني مِن غفوتي، وبادرني:

- هل تتحدّثين الفرنسية؟

في البداية، أردت أنْ أنكر حتّى لا يتعرّف إليّ من لكنتي وطريقةِ كلامي وتعابيري، ولكني فكّرت أنّ السيدة كاترين أكيدٌ ستحادثني أمامَه باللغة الفرنسية، فأجبته باقتضابٍ باللغة الألمانية:

- أجل أتكلّم الفرنسية.

سرتْ رعشة في جسدي، ورفعت بداخلي لافتة كُتب عليها خطر- موت، فقربُه منّي بهذا الشكل شبه المتلاصق هو خطر، ولمسةُ يده تلك هي إعلانٌ حتميّ للموت استسلامًا بين ذراعيه.

فرجلٌ كآدم مَن تحبّه تعشقه وتُدْمنه، وقد تموت بجرعةِ عشقٍ مخدّرة بين أحضانه..

لاحظَ ارتباكي، فواصل على الفور:

- هل أنتِ على ما يُرام؟

بلعتُ ريقي بصعوبة، وأومأت بالإيجاب.

واصل:

- السيدة كاترين وروزي سألتا عنْك منذ قليل.

أجبته باقتضاب، وأنا لا أفكّر سوى في الهروب والابتعاد:

- شكرًا، سأراهما على الفور.

ثمّ نزلت السّلم محاولةً تصنّع الهدوء والثّبات، بينما يدي بقيتْ متشبّثة بالدّرابزين كأعمى يتحسس طريقه إلى المجهول.

***

خرجتُ من المنزل، كان الطّريق ممتدًّا مغطّى بالثلوج، لم تطبعْ خطوات المارة آثارها عليه بعد، كصفحةٍ عذراء ناصعةِ البياض لم يقبّلها حبر القلم بعد.

كانت الثّلوج قد بدأت تتساقط منذ أيام على فتراتٍ متقطعة، كان الشارع طويلًا محفوفًا بأسوار المنازل المزيّنة بالأضواء المشتعلة، والأزهار الفاتنة، والتي كان بعضها طبيعيًّا شتويًّا، وبعضها اصطناعيًّا.. منظر أقلّ ما يقال عنه أنّه ساحر.

طوالَ الطريق لم يفارقْ آدم تفكيري، وبقدر ما اشتقت للحديث معه وإخباره بالحقيقة، وبأنني مازلت أحبّه رغم كلّ شيء، وبأنّ حبي له قد كان الحقيقة الوحيدة في شخصية أنايس المزيفة.. بقدر ما شعرتُ بالغيرة من روزالي،

وحسدتُها رغماً عنّي. روزالي تلك الفتاة الجميلة التي لا أعرف شيئًا عن شخصيتها، ولا عن أفكارها سوى ما قالته عنها والدتها، بأنّها مدلّلة، ومزاجيّة، وأنّها لا تتوانى عن فعل أيّ شيء في سبيل تحقيق رغباتها وبلوغ أهدافها.

أذكر أنّها قالت يومًا وهي تخرج تنهيدةً عابرة "لقد كانت روزي صعبةَ المراس في طفولتها، وكانت لا تكتفي من اللّعب، وكانت كلّما أصرّت على لعبةٍ وحصلت عليها انطفأت بعدها بداخلها شعلةُ التمسّك بها، ورمتها لتهتمّ بأخرى.

كانت تملّ بسرعة، وتبحث دائمًا عن الجديد، وكثيرًا ما تصاب بالضّجر من الرتابة، حتى الدراسة تأرجحت فيها بين تدريبٍ وآخر في مجالات عديدة ليستقرّ بها الحال كعارضة أزياء على أغلفة مجلة فرنسية متوسطة الحجم.

أذكر حينها أنّ السيدة كاترين غمرتْها هالة من الحزن الطّفيف خلال حديثها عن روزي لا أعرف لماذا؟ إذْ يُعتبر ما قالته بالنّسبة لي أمرًا عاديًّا، قد يمرّ به أيّ شخص في مرحلة الطفولة.. فهي مرحلة الاكتشاف والتعرّف على العالم الخارجي، ومن الطّبيعي أنْ يشعر الأطفال بالملل أحيانًا، وحبّ المغامرة والبحث عن اللّعب المشوقة. أمّا البحث عن التّجديد ومقت الرتابة، فأنا شخصيًّا أعتبره ميزةً ودافعًا للتغيّر من الأوضاع الرّوتينية وتحسينها.. أمّا عن كونها لا تتوانى عن فعل أيّ شيء في سبيل بلوغ أهدافها وتحقيق رغبتاها، فلا أعرف إنْ كان يستقيم القول هنا بأنّ الغاية تبرر الوسيلة! فالأمور تبقى نسبيّة حسب شرعية الغاية أو الأهداف، ومشروعية الطرق أو الوسائل.

فكّرت في علاقتها بآدم وأنا أستقلّ الحافلة إلى وسط المدينة.. تُرى كيف كان لقاؤهما الأول؟ وكيف تجري الأمور العاطفية بينهما الآن؟ هل يحبّها.... وإلى أيّة درجة؟ أم أنها تجربة يخوضها كغيرها من التجارب العابرة؟

أتذكّر يوم قال لي بأنّه لا يعترف بالحبّ، وأنّه لم يقابل في حياته الإنسانة التي تجعله يؤمن به وتهدم كلّ قناعاته السابقة، ولكنّي أذكر أيضًا أنّه في نهاية علاقتنا قد اعترف لي بحبّه الجنوني الذي اغتال كلّ حواسه في غفلةٍ منه دون سابق إنذار.

قال يومها إنّني.. "حبّه الكافر"؛ لأنّه كفر بكلّ معتقداته ومسلّماته، وتمرّد عليه لتشرق أيامه بقواعد عشقيّة جديدة.

كثيرون هُم مَن قالوا في البداية إنّهم أصدقاء، وإنّهم سيظلّون كذلك مدى الحياة، ومع مرور الوقت أصبحوا حبيبين فعاشقين، لينتهوا في النهاية كغريبين لا غير، يا لسخرية العلاقات الموجعة.

وصلتُ إلى مقهى وسط المدينة حيث تنتظرني بينار، وبعد أن عانقتني في سلام حارّ بادرتني بالسؤال:

- لقد قلقت عليك كثيرًا يا أمل، صوتُك كان مختنقًا! ما بك؟

أجبتُها في محاولة فاشلة للتماسك، ومنعِ نفسي من البكاء:

- أنا بخير، أو لعلّني لست كذلك، لا أدري.

وتسلّلت دمعة حارقة حاولت بعدَها جاهدةً السّيطرة على صراخ انفعالاتي.

أضافت متسائلة في حيرة:

– هل كلّ العائلة بخير؟ أنا لم أعهدك هكذا طوالَ السنوات الماضية، وجهُك شاحب، وترتدين السّواد! ما الذي حدث؟! أخبريني.

شعرتُ بالخجل من قصّتي.. ماذا عساني أقول!؟ أجبتها وأنا أحاول الهروب من أيّة تفاصيل:

– الوقت غير مناسب للحديث، إنها قصّة طويلة تمتدّ جذورها لسنوات مضت، واعتقدت أنها قد ولّت وانتهت، لكنّ القدر خطّط للقائنا مجدّدًا وهو مرتبط بأخرى.

قاطعتني صرختُها وقد انقبضت ملامحها على الفور:

– هل تزوّج؟

– كلّا، إنّ ابنة السيدة التي أعمل معها هذه الفترة هي صديقتُه أو حبيبته لا أدري بالضبط، حضرَا للاحتفال بعيد الميلاد، ورأس السنة الجديدة هنا.

ابتسمت بينار ابتسامة خبيثة وهي تتنفّس الصّعداء قائلة:

– إذًا فالقدر يحبّك، وقد لعب لصالحك من خلال هذه الصّدفة، لعلّني الآن بدأت أفهم سبب عزلتك العاطفية، ورفضك لإقامة أيّة علاقة طوال ذلك الوقت، وإغلاقك لكلّ منافذ التعارف مع الشّباب رغم محاولاتهم المتكررة.. حسنًا لنعدْ إلى موضوعنا، أنا لن أسألك عن سبب فراقكما، ولكنّي سأعطيكِ نصيحتين:

(لمحت شبه ابتسامة ماكرة على شفتيها وهي تواصل): إذا كنت لا تزالين مُغرمة به، ولا يزال حبّه يسكنك فتقرّبي منه، وليكن حضورُك ساحرًا قويًّا، وامنحيه فرصة الاختيار بينكما، فلعلّه أيضًا لا يزال يحبّك، أمّا إذا كان ماضٍ أو قصّة انتهت وأوجعتك الذكرى لرؤيته مع أخرى لا غير؛ فالأفضل أن تتجاهليه، وأن تتسلّحي باللامبالاة، وتصرّفي كأنه غير موجود، وحافظي على هدوئك قدْرَ المستطاع إلى أن يرحل.

ابتسمت لنصيحتها المتواضعة فهي معذورة لأنّها لا تعلم شيئًا عن التفاصيل، وأومأت برأسي إيجابًا.

ثمّ صاحت بينار كمَن استفاق متأخّرًا عن موعد عمله:

– هيّا بنا، فالمحلات ستظلّ مفتوحة حتّى الساعة الثالثة، وبعدها ستغلق كلّ أبواب المدينة ماعدا الكنائس وبعض المطاعم؛ فالكلّ يحتفل في منزله الليلة، لنتسوّق قليلًا، وسوف يتحسّن مزاجك على الفور يا أمل، أنا أعرفك جيدًا.

وانفجرنا بعدها ضاحكتين.

لا أعرف مِن أين جاءني ذاك النّهم المفاجئ للتسوّق، فأنا أمتلك الكثير ولا أحتاج لشيء، ولكنني كنت كمَن تروي ظمئًا آخر لا تعرف خفاياه غير الفتيات في تلك اللحظات.

أخبرتني بينار أنّ الكل يتبادل الهدايا في تلك الليلة.. ولا شكّ في أنّهم جهّزوا هدية لي، ولا بدّ أن أبادلهم بالمثل من باب المجاملة لا غير.

وعلى الفور، بادرت ذهني فكرةٌ ذكية، وفكّرت في نفسي أنّ ما أجمل أنْ تتاح لي فرصة إهدائه شيئًا مميزًا يذكّره بي، محاولة تشجيع نفسي بمقولة "مارك توين"..

"إذا لم تغامر من أجل شيء تحبّه فاصمت إذا خسرته"..

وقرّرت حينها المغامرةَ والتقرّب منه، والتلميح له بشخصيّتي، أو على الأقلّ جسّ نبضه من بعيد..

***

انتهتْ رحلة التسوّق، وبعد أن مررت على صالون التّجميل لفَفْت الوشاح على رأسي لحماية شعري- المعقوص في شكل كعكة إلى فوق- من تساقط الثلوج، وعدت إلى المنزل محملة بأكياس كثيرة.

عدتُ بروح جديدة- قديمة، تلك الروح التي كانت تخفق للحبّ عند سماع صوته، أيام كنت أستعدّ فيها لمكالماته الهاتفيّة جسدًا وروحًا، وكأنّني أستعدّ لمقابلات غرامية؛ حيث كان يميتني ويحييني في الليلة ألفَ مرّة، وينتحر بينهما عشقًا في كلّ مرّة.

ذلك الصّوت الليلي النّاعس، ذو الطّابع الحزين، الذي تسكرني نبراته وتغمرني انتشاءً حتى الثمالة. صوتُه الرّجولي الحنون الهادئ أحيانًا، العنيد الثّائر أحيانًا أخرى.. ذلك الصوت الذي كان ملكًا لي لأشهرٍ عديدة في قصّة غريبة.. ملأت بكلمات غزلٍ حميمة أماتتني ذات ليالٍ طويلة، ذلك الصوت الذي أصبح الحرمانُ منه سجنًا مؤبّدٌ عيشه، بعد أن كان الاستماع إلى نبراته إحساسًا بالحرية والوجودية والتأملات الفلسفية.

نعم.. فهناك أصواتٌ نسمعها وننساها بعد دقائق، وهناك أصوات تظلّ تفاصيلها عالقة بأذهاننا الزّمن كله،كلّما استحضرناها لدقائق.

ألهذا الحدّ استطاعت نبرةُ صوته أنْ تشي بانقلابٍ عشقي داخل ثورة حواس آنذاك؟

ضغطتُ على جرس الباب عدّة مرّات، وقد بدأت تدريجيًّا أشعر بتيبّس أصابعي من شدة البرد.

طالَ انتظاري وأنا أرنّ الجرس حتّى فتح الباب لأجد نفسي أمام آدم، انفلتَ كيس من يدي ووقع على الأرض فانحنينا في نفس اللحظة لالتقاطه..

هذا المشهد السينمائي، الذي شاهدته مئات المرّات في الأفلام والمسلسلات بين البطل والبطلة، حيث تغمرها حالةٌ من الخجل والارتباك، مع ابتسامة خفيفة، ونظرة عابرة، وأحيانًا معبّرة.. قد عشته لحظتها مع آدم، ولكنْ بإحساس مختلف.

فقد كانت حركة آدم في النّزول أسرع منّي؛ نظرًا لامتلاء يدي بالأكياس، وحالما ثنيت ركبتي للانحناء، سبقني شعْري الذي انفتحَ فجأة، وانسدل ليغمر وجهَه وكتفيه، وفاحت منه رائحة مرطّب الشّعر، ووجدت نفسي- للمرّة الثانية- وجهًا لوجه معه على مسافة قريبة مفخّخة بخطر عطره وأنفاسه ونظراته المنبعثة من بين خصلات شعري.

استنشقَ أريج الياسمين وهو يبعدُ خصلات شعري بعبثٍ من على وجهه قائلًا:

- لقد ذهبوا إلى الكنيسة للصلاة.

ثمّ ابتسم وواصل مازحًا:

– أمّا أنا فقد بقيت هنا لأفتح لك الباب.

شكرتُه باقتضاب، ولملمت ما تبعثرَ منّي من أكياس وأحاسيس، وصعدت غرفتي بسرعة. إذ لم أكن مستعدّة بعدُ في تلك اللحظة لخوض أيّ نقاش معه، بل ولم أستفقْ بعد من صدفة لقائه.

بعدَ حوالي ساعة تقريبًا. عادت السيدة كاترين وروزالي وفيليب وصديقته من الكنيسة، ودار نقاش حادّ بين روزالي ووالدتها، فالمعينة المنزليّة قد جهّزت كلّ شيء باكرًا، وأخذت إجازة لتحتفل في منزلها مع أبنائها، والسيدة كاترين طلبتْ من ابنتها مساعدتها، ولكن هذه الأخيرة تكرهُ الوقوف في المطبخ حتّى لا تتضرّر أظافرها المقلّمة، وحتى لا تلتصق رائحة الطبخ بملابسها.

كانت ترتدي فستانًا جلديًّا أسودَ قصيرًا، بأكمام طويلة، وحذاءً جلديًّا أسود لامعًا، يصل تحت ركبتيها بقليل، وعقدت شالًا ورديًّا حريريًّا قصيرًا حول رقبتها يتناسب لونه مع لون أحمر شفاهها الوردي.. أنيقة هي ونحيفةٌ جدًّا؛ فهي عارضةُ أزياء، والمحافظةُ على رشاقتها هي أقصى اهتماماتها.

كان آدم يجلس على الأريكة، بينما كنت أنا وفيليب نتحدّث عن شجرة الميلاد ومجموعة الهدايا المبعثرة بعنايةٍ تحتها، عندما انتهت روزالي من نقاشها مع والدتها وراحت تتحرّك في دلال أمام آدم ذهابًا وإيابًا، تنقل بعضَ الوسائد من جانبه إلى الجانب الآخر في نيّة إغراءٍ مبيّنة مع سبق الإصرار والترصّد، بينما تعمّد آدم الانشغالَ بهاتفه والبحثَ عن شيء ما بداخله،

هذا ما بدا لي.. لأنّ هاتفه كان صامتًا طوال الوقت، وكان يتابع شجارها مع والدتها باستياء، وعندما عادت لتحدثه تصنّع الانشغال عنها.

***

في الواقع، أنا أيضًا استأت من طريقة معاملة روزالي لوالدتها، فهي سيدةٌ راقية وحسّاسة للغاية، وانفجار روزالي في وجهها بتلك الطّريقة قد أحرجها، ولعلّه جرحها حيث التزمت الصمت، ولم تحاولْ تصعيد الموقف معها، مما يدلّ على وجود سوء تفاهمٍ قديم بينهما أو ما شابه.

التحقتُ بالسيدة كاترين على الفور داخل المطبخ؛ لعلّها شعرت بالإحراج عندما انتبهت لوجودي بجانبها، وقد اغرورقت عيناها بدموع بذلتْ قصارى جهدها من أجل حبسها، ضممتها إليّ دون أنْ أشعر، وقبّلتُهاً من جبينها، لا أدري لماذا فعلت ذلك! ربّما رأيت فيها والدتي في تلك اللحظة، خاصّة وأنّني لم أهاتفها منذ أسبوعٍ تقريبًا، حضنتني السيدة كاترين بدفء، وتنفّست بعمق، أخبرتها أنّني طبّاخةٌ ماهرة، وأنّني أعشق الطبخ بعد الكتابة، وأنّها فرصة لكي أستعرض مواهبي في هذه اللّيلة المميزة بالنسبة إليهم، فأنا لا أحتفل بهذه المناسبة لأنّني مسلمة، ويمكنني مساعدتها وترتيب الأمر، شكرتني ولمحتُ في عينيها نظرة امتنان.

***

في هذه الحياة، هناك أناسٌ تفعل من أجلهم الكثير، ولا تتلقّى منهم كلمة شكر واحدة، ويوم تفعل شيئًا واحدًا لا يروق لهم؛ يمتعضون ويتأفّفون..

وهناك أناسٌ معاملتهم تكون راقيةً بالفطرة، ويشكرونك على أبسط الأشياء، هؤلاء يحترمون المواقفَ ويقدّرون المساعدة مهما كانت بسيطة.

انتبهتُ على صوت آدم يُخبرها أنّه جاء يبحثُ عن كأس ماء، استقبلته السيدة كاترين بابتسامة حنونة، وسألته بالفرنسية:

– أين روزي؟

أجابها:

– أعتقد أنها تهاتف صديقتها.

أرادت السيدة كاترين تلطيفَ الأجواء قائلة:

– إنّ أمل سوف تساعدني في تحضير العشاء، وسوف يكون كلّ شيء على ما يُرام.

أجابها بابتسامةٍ متهكّمة:

– أخبريها أنّني سأبحث عن رقم مطعم فاخر يجهّز لنا بعض الأطباق، ويرسلها؛ تحسّبًا لكلّ شيء.. فأنا جائع، وأنتظِر العشاء منذ ساعات.

ضحكتِ السيدة كاترين ملء قلبها، وأخبرته على الفور:

– لا أحتاج لإخبارها فقدْ فهمتك، أمل تتحدّث الفرنسية أفضلَ منّي ومنك.

اندهش آدم بعضَ الشّيء، ورمقني بنظرة سريعة، وقبلَ أن يبادرني الكلام نظرتُ إلى السيدة كاترين وأخبرتها أنّني أريد أنْ أكملَ ما بدأته المعينة المنزلية فالوقتُ يداهمنا، وطلبت منها مئزرًا للطّبخ، كنت حينها مازلت أرتدي

ملابسي السّوداء منذ الصباح، وشعري مربوط إلى الوراء، بدأ الحماسُ يغمرني، وقرّرت إتمام مهمّتي بنجاح.

***

لم يكن الأمرُ صعبًا بالنسبة لفتاة مثلي، ولِدَت في عائلةٍ تحبّ الطّبخ والمطابخ بأنواعها، هذه الأمور نتعلّمها بديهيًّا من أمهاتنا، ونتألّق فيها أكثر من خلال متابعة البرامج التلفزيونية الخاصّة بالمطابخ العالمية.

وكثيرًا ما كنت أتابع تلك البرامج وأجرّب الأطباق. في البداية كانت النتائج مُرْضية، ولكن مع مرور الوقت والإصرار الدّائم صرت أتقنُ هذه الأطباق، وأتفنّن في تزيينها إلى اللمسات الأخيرة، حتى أنّ أخي الذي كان يشاكسني ويستهزأ من محاولاتي في البداية، صار مدمنًا لأطباق الحلويات التي أعدّها، ويعتبر أخي ناقدًا لاذعًا فيما يخصّ الأكل، تمامًا كالسياسة.

حتّى أنه إذا ما علّق على خبرٍ سياسي ما لم يعجبه؛ كان يقول:

"هناك شيء ما يجهّز في الخفاء داخل المطبخ السّياسي"

ظللتُ أعمل بنشاطٍ لساعاتٍ التزمت فيها بتعليماتِ السيدة كاترين بالنسبة للأطباق التي جهزتها المعينة المنزلية قبل ذهابها، وبعد الانتهاء جهّزت بعض الأطباق النّباتية لي ولآدم، ثمّ انتقلت مباشرة إلى الحلويات.

حالما انتهيتُ بدأتُ مباشرة بتجهيز طاولة العشاء، كان فيليب في الأثناء في غرفته مع صديقته الفلبّينية، وجلست روزالي إلى جهازِ حاسوبها المحمول

تستقبل بعض الرسائل الإلكترونية، في حين جلس آدم إلى جانبها على الأريكة يشاهد التّلفاز، وتحديدًا فيلمًا فرنسيًّا.

بعد أنِ انتهيت من تزيين الطّاولة بالأطباق والكؤوس والمناديل وبعض الشموع المتفرقة والورود المتناثرة، وضعت أطباق المقدّمات على الطاولة،كانت السيدة كاترين تحاول مساعدتي ولكنّني منعتها في أغلب الأوقات من أن تجهد نفسها كثيرًا.

في الواقع، انتظرت من روزالي أنْ تساعدني على تجهيز الطاولة على الأقلّ، ولكنها وقفت إلى جانبها بعد أن انتهيت وأمعنتِ النّظر في جميع التفاصيل، رمقتْني بنظرة لم أفهم مغزاها!كانت مزيجًا من الغرور والتهكّم على حدّ السواء.

وبعد أن تفحّصت ثيابي المبقّعة بـ "الديدجون زانف" صلصة الخردل الفرنسي المخصّصة لشرائح اللّحم، ومئزري الذي عبثتْ به الألوانُ والروائح من كلّ جانب؛ بادرتني القول بالفرنسية:

– اسمك أمل، أليس كذلك؟

– بلى، هو كذلك.

أجبتُها منتظرةً منها أن تلقي ما في جعبتها.. واصلت وقد انتبه الجميعُ لحوارنا وهم يتقدمون من الطاولة بإعجاب.

قالت:

– يبدو أنّك طبّاخة ماهرة! في الواقع لم أتوقّع منك كلّ هذا الإبداع، فالطاولة تبدو كالمطاعم الفاخرة.

ابتسم الجميعُ لإطرائها الرقيق، وقبل أن أعقّب ببعض كلمات الشّكر، أضافت باللغة الألمانية التي يفهمها الجميع، ما عدا آدم:

– هل ستنضمّين إلينا على العشاء؟

في الواقع كان من البديهيّ أن أنضمّ إليهم على العشاء فأنا لم أتناول شيئًا منذ الصباح، ولكنّ سؤالها أحرجني ونظراتُها جعلتني أنتبه إلى مظهري الذي أبدو فيه كأنّ مجموعة من الفئران قد طاردتني وعبثت بي وبالمطبخ.

استاء الجميعُ من غرورها وإساءتها الضمنيّة لي، ورمقوها بنظرةٍ مُعاتبة مستنكرين عجرفتها، كانت نظراتُ آدم تتفحّص الجميع باندهاشٍ واستفهام عمّا يجري، لكنه لم ينبس بحرف.

تقدّمتْ منه روزالي بسرعة ومسكته من ذراعه وسحبته إلى الطاولة. كان متردّدًا بعض الشيء، لعلّه شعر بأنّ شيئًا ما قد كهربَ الأجواء الاحتفالية، كنتُ خلال تلك اللحظات قد تسمّرت مكاني غير مستوعبة لما يجري، حتّى تقدّمتْ منّي السيدة كاترين وطلبت مني الجلوس للعشاء، اعتذرت منها بأدب، وأخبرتها أنّني لست جائعة لكنّها أصرّت كثيرًا بلطف، كم تمنّيت تلك اللحظة أن أكونَ مِن هؤلاء البشر الذين يتمتّعون ببرودة الأعصاب وقوّة الثبات الانفعالي في مواجهة مثل هذه المواقف، ولكنْ هيهات؛ شعرت بشياطين العالم تلتفّ حولي متراقصة.

ولأوّل مرّةٍ تكلّمت الفرنسية أمام آدم، لم يعدْ يهمّني إنْ عرفني من لكنتي أم لا، خاطبت روزالي:

– بكلّ سرور يا عزيزتي سأنضمّ إليكم على العشاء، ولكن بعد قليلٍ، فكما ترَيْن لقد انسجمتُ مع الطّبخ، ونسيت نفسي.

التفتّ إلى السيدة كاترين وسط دهشة الجميع، واعتذرتُ منها للصّعود إلى غرفتي لأغيّر ملابسي على أنْ ألتحق بهم بعد قليل.

استرقت النظرَ إلى آدم وأنا أغادر، كانت نظراتُه مختلفة تمامًا هذه المرّة، كانت مزيجًا من الشرود والإعجاب، مع ابتسامةٍ ساحرة وبعض الدفء الدفين.

صعدتُ إلى غرفتي وأنا أكادُ أنفجر غيظًا من تلك المغرورة.. مَن تظنّ نفسها! لقد كنت معجبة بجمالها ورشاقتها، ولكنّني صُدمت بجرأتها المفتعلة، وردودِ فعلها الصبيانية غير المحسوبة،

وبدأتِ الأسئلةُ تنهشني من جديد.. كيف لآدم أن يحبّ فتاة بهذه الطّباع؟ هل الجمال بالنسبة إليه هو المقياسُ الوحيد؟ ولكني لم أعهده هكذا! أم أنّه لم يكتشف طباعها بعد؟

***

أخذت حمّامًا سريعًا لأزيل التعب عن جسدي المرهق، واخترتُ فستانًا طويلًا من الشيفون الأزرق الملكي، تربط خيوط صدره وراء الرقبة.. مع حذاءٍ فضيّ بكعب متوسّط الحجم.. بعد اللمسات الجمالية الأخيرة اخترتُ اللّون الورديّ الفاتح للشّفاه الذي يبرز اللون العسلي لعينيّ، وتركت شعري

الأشقرَ الناعم ينسدل بحريّة مغطّيًا ظهري، ومحيطًا بخصري، أمّا العطر الذي وقع اختياري عليه فكان "غوتشي بلوم" برائحة الزهور البريّة المتمرّد عبر نسائم الياسمين، ارتديت قرطين مرصّعين بحبوب "الشفاروفسكي" يشعّ بريقهما كلّما تموّج شعري.

ألقيتُ نظرة أخيرة على المرآة، كان كلّ شيء متناسقًا كما أردت، حتّى طلاء الأظافر الفضي كان يزيد ساعةَ يدي الرّقيقة رونقًا وجَمالًا.

في الواقع، تعمّدت اختيار الأزرق الملكي؛ فهو لون آدم المفضّل على المرأة في المناسبات الخاصّة، مع العطر بنكهة الزّهور البرية الذي يهزم مقاومتَه وعناده حسب قوله ذات مكالمة حميمة منذ سنوات.

تعمّدت تركَ الهدايا التي اشتريتها في غرفتي لأنّني لا أعلم بعدُ كيف ستسير الأمورُ معي، ونزلت إلى الطّابق السفلي في خطوات أميريّة رشيقة وهادئة.

كنت مبتسمةً من القلب.. هكذا أنا تجتاحني لحظاتٌ نرجسية، يتملّكني فيها الإعجاب بنفسي ولكنّني لم أكن قطّ مغرورة.

أعجب الجميعُ بإطلالتي وسطَ احتقان وجه روزالي بالدّماء والغيرة التي فضحتها..

لقد تعمّدت تلقينَها درسًا في الذّوق والجمال، بما أنّها عارضة أزياء مبتدئة ومغرورة.

أخذتُ مكاني إلى جانب السّيدة كاترين، كانت الطاولة مجهّزة بثماني كراسٍ اثنين منهم على رأسي الطّاولة وثلاثة في كلّ جهة منها.

جلس آدم بجانبه روزالي، وإلى جانبهما فيليب، بينما جلستْ صديقته الفلبينية على الكرسي المقابل له، إلى جانبها السيدة كاترين ليتبقّى المكان المقابل لآدم شاغرًا بانتظاري.

كنت أشعرُ بالالتباس من هذا المكان، شعرت بتواطئ القدر الذي وضعنا وجهًا لوجه في حفلة عشاءٍ لا ننتمي إليها ولا نحتفل بها، فهُم يحتفلون بعيد ميلاد المسيح ونحن بماذا سنحتفل!؟ هل سنحتفلُ بهذا اللقاء؟ لقاء صدفة لم يكنْ في الحسبان، أم سنحتفل بهذا الشّهر الذي التقت فيه أرواحنا منذُ سنوات؟

كان جهازُ التّلفاز ورائي مباشرة ملتصقًا بالحائط وسط الأثاث، سكبتُ لنفسي بعضًا من السلطة وبعضَ الخضروات المجهّزة على الطريقة الإيطالية كمقبّلات، كان الجميع يأكل ببطء ويشرب النّبيذ الأحمر الفاخر، سكبتُ لنفسي عصيرَ فواكه كنت قد جهّزته مسبقًا، فأنا أعشق مختلف أنواع "السموثي".

اختفى شعورُ الجوع في تلك اللحظات رغم أنّني لم آكلْ شيئًا منذ الصّباح، ربّما لأنّني تذوّقت الأكل خلال تجهيزه، أو ربما خليط المشاعر التي تشتعل بداخلي هو ما أشبعني، لكنّ الأكيد أن نظراتِ آدم كانت تخترقني رغمًا عنه وعنّي، كانت تتفحّصني بدقّة، فحاولتُ أن أتشاغل بالأكل رغمَ شعوري بأنّ نظراته هي التي كانت تأكلني بحذر.

كان آدم يصطنّع التركيز مع التلفاز، ويعلّق على البرنامج بين الحين والآخر، بينما تركيزه كان منصبًّا عليّ، حتّى أنني لم أعد أميّز متى كان ينظر إليّ ومتى كان يشاهد التلفاز.

كنتُ أراقب حركاتِ يده في غفلةٍ من الجميع حيث كانوا منهمكين في الأكل والشرب وتبادل الذّكريات المسلّية، وانهمكت أنا بمراقبة أصابع آدم وهي تمسكُ الشوكة والسكين، ثمّ وهو يشعل سيجارة ويقرّبها من شفتيه في غرورٍ وهدوء.

حاولتُ الهروب من لقاء النّظرات قدر المستطاع، كنت أشارك بعض الأحاديث معهم باقتضاب حيث قرّر الجميع التعاملَ باللغة الفرنسية من أجل آدم.

كانت نقاشاتُه مثيرة كالعادة، لم يتغير فيه شيء، لكنّ إحساسه بروزالي كان بعيدًا كلّ البعد عن إحساسه اتجاهي من قبل، إنّه ليس عاشقًا لها.

كان يجلس وصدرُه في مستوى نظري بالضبط، تابعتُ حركة يده اليمنى وهي تفتح أوّلَ وثاني زرّ من قميصه بهدوءٍ ورشاقة، لعلّه شعر بحرارة تجتاحه حينها.. فالتدفئة كانت عالية جدًّا، أو لعلّه شعر بالاختناق فجأة.

سحبَ نفسًا عميقًا من سيجارته التي بقيتْ تحترق وحيدةً لبعض الوقت على المطفأة.. التقت عينانا لحظةَ نفث دخانها بتقطّع، وباغتني فجأة بقولِه وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساحرة خبيثة:

– هل أعجبك العرض؟

انتبهت روزالي حين خاطبني آدم بتلك الكلمات، ونظر الجميعُ مستفسرًا منتظرًا ردّة فعلي.. شعرتُ بالإحراج، وبحرارةٍ تغمر وجنتي.. بينما كان آدم يراقبني مبتسماً في جاذبية، وأنا أتخبّط محرجةً أبحث عن إجابة.. تصنّعت الغباء وسألته:

- ماذا تقصد بالعرض؟

ابتسم وهو يجيب بخبث:

- أتحدّث عن العروض داخل المحلّات التجارية هل كان العرض مغريًا؟

وبشبه غمزة أضاف: لقد كانت أكياس مشترياتِك كثيرة عندما عدتِ اليوم.

حسنًا، لا أنكر أنّني قد تنفّست الصعداء حينها لأنّه وجد مخرجًا ذكيًّا لتلميحه الجريء المحرج، وغيّر دفّة الحوار من علنيّ إلى ضمني. هكذا كان في السابق.. أجبته مبتسمةً وقد اشتقت إلى لعبة الكلمات معه:

- في الواقع نعم، لقد كانت المنتوجات معروضةً بطريقة مُغرية تخطف الأبصار.

أعدتُ له نظرته المبتسمة الخبيثة قبل أن أواصل:

- لكنْ للأسف بعضُ الماركات الفرنسية كانت باهظة جدًّا تستطيع تأمّلها ولا يمكنك امتلاكها من شدّة غلائها، فهي تنتمي إلى طبقةٍ أخرى من المشترين.

انفجر ضاحكًا في تواطئ مع لعبة المفاهيم.

وحتّى أخرج من حالة الارتباك التي وقعتُ فيها، سألتهم إنْ كانوا يرغبون في تناول الأطباق الرئيسية، فوافق الجميع.

نهضتُ ورفعت طبقي، فنهضَ الجميع فجأة، وحمل كلّ طبقَه وتبعني إلى المطبخ، بينما بقيتْ روزالي جالسةً تتصنّع الانشغال بهاتفها، عادَ الجميع إلى مكانه، وبقيت السيدة كاترين وآدم معي في المطبخ، أخرجت الأكلَ من الفرن، فقد تركته عمدًا على درجة حرارة منخفضة جدًّا ليظلّ ساخنًا دونَ أن يحترق.

جهّزت أوّلَ طبقين، حملتْهما السيدة كاترين، وأخبرها آدم أنه يمكنها الجلوس على أن يحضر هو باقي الأطباق، فوافقتْ هي بسرور، وأحسست أنا بالخطر.

حاولتُ تركيز حواسّي على ملء الأطباق، وتزيينها، بينما اقترب آدم من ورائي ليهمس بشفتين مُلاصقتين لأذني بصوتٍ حنون طالما سمعته قائلًا:

- هل تحتاجين مساعدة؟ ثمّ أضاف: أيّتها الأميرة الزرقاء.

حسنًا لقد سمعت من قبلُ عن الكوارث الطبيعيّة بأنواعها، ولكنّ همسه مع حرارة أنفاسه في تلك اللّحظة تسبّبت في زلزال أسفرَ عن خسائر مختلفة؛ ارتعاش اليدين، سرعة دقات القلب، جفاف الحلق، وفقدان التوازن نسبيًّا.

لم أكد أستفيق من تلك الحالة حتّى غمرتني رائحةُ عطره الفرنسي الفاخر، مع رائحة سجائره ونبيذه الأحمر.

الصّوت والأنفاس والرائحة، لنقل إنّها هجمةٌ ثلاثية الأبعاد بتقنيةٍ مركّبة أو تواطئ رجولي لاستفزاز ثورةٍ أنثوية جامدة تنتظر شرارة الانفجار كما حصل في ثورات الرّبيع العربي الفاشلة.

قمعتُ ثورة الحواسّ التي اندلعت بداخلي رغمَ احتفالي الضّمني بها واستجمعت هدوئي قائلة:

– أجل يمكنك حملُ هذه الأطباق، ووضعها على الطاولة إذا أردت؛ فهي جاهزة.

تلامستْ أجسادنا في حركة انعكاسية اصطداميّة خفيفة عندما تقدّم هو لالتقاط الاطباق في نفس اللّحظة التي استدرت فيها أنا لأفسح له المجال.

كانت حركتُه بطيئة شبه ثابتة، وكأنّه توقّع هذا الاصطدام، أو لعلّه تعمّده، فهو حتى لم يعتذر منّي؛ بل ظلّ يتابع تخبّطي وأنا أحاول السيطرة على مشاعري، وتصنّع الهدوء والثبات.كانت عيناه مشاكسة، كلّها ثقة في جاذبية نظراتها وقوّة تأثيرها.

استدرتُ ثانية بسرعة، وحملت طبقيْن وانطلقت بهما نحوَ طاولة العشاء تاركةً له مهمّة الالتحاق بالطّبقين الباقيين.

***

جلستُ مكاني وسط إطراء فيليب وصديقتِه على جَمال الأطباق ورائحة الأكل الشهية،كنت أرسل الابتسامات في محاولة منّي لتغطية ارتباكي الذي

لا شكّ أنّ روزالي قد لاحظته، فقد رمقتني على الفور بنظرةٍ غريبة، وانتقلت بعينيها إلى آدم مباشرة، لكنّه أهداها ابتسامة باردة وقطع عليها حبلَ ذكائها وتخميناتها، ساخرًا منها وهو يخاطبها:

– هل تعلّمتِ كيف تسكبين الصّلصة على اللحم أم أنّك تحتاجين إلى مساعدة؟

التزمت روزالي الصمت، وقد فهمت قصدَه تمامًا، بينما انفجرَ فيليب ضاحكًا.

بعد الانتهاء من العشاء، فتحت السيدة كاترين الهدايا الموجودة تحت شجرة الميلاد، وبدأ الجميع يتبادلها في ما بينهم.

تلقّيت قارورة عطر كهديةٍ من السيدة كاترين ومجموعة روايات رومانسية باللغة الألمانية من فيليب، بالنّسبة لآدم فقد تلقّى هدايا من الجميع، ولكنّه لم يهْدِ شيئًا لأيّ منهم، وقال إنّه سيهاديهم على طريقته في مناسباتٍ لاحقة، أمّا روزالي فقد أهدته ساعة يد حيث خلعت له ساعته وألبسته السّاعة الجديدة على مرأى من الجميع، وتحت مباركتهم وتشجيعهم، رمقني في تلك اللّحظة بنظرةٍ ثاقبة لعلّه أراد من خلالها قراءة ردّة فعْلي، أو ما شابه، طبع قبلةً خفيفة على خدّها وشكرَها على الهدية.

وبينما كان الجميع منهمكًا في استكشاف الهدايا في أجواء احتفالية، صعدت إلى غرفتي وأحضرت الهدايا التي اشْتريتها في الصباح، قدّمت هدية لفيليب وهي عبارة عن حافظة نقود سوداء، أمّا صديقته فلم أكنْ أعلم بحضورها؛

لذا لم أشترِ لها شيئًا، بالنسبة لروزالي أهديتها مجموعة متكاملة من الألوان الزّاهية الراقية لطلاء الأظافر من ماركة فرنسية، وقد أعجبتها كثيرًا.

للسّيدة كاترين قدّمت صورة لمدينة باريس محاطة بإطار فضيّ أنيق للغاية، وكانت هذه الصورة في معناها غاية في الرّوعة.. فهناك عاشت السيدة كاترين أحلى ذكرياتها مع والد روزالي، حضنتني بعدها بدفء؛ فقد لامستِ الهدية قلبَها، وداعبت ذكرياتها، وقبّلتني شاكرة، وعندما جاء دور آدم تردّدت قليلًا هل أقدّم له الهدية التي تعبتُ كثيرًا في الحصول عليها؟ وهل ستصله معانيها؟ أم أنّها ستبدو عادية كبقية الهدايا!

تقدّمت نحوه في هدوء، وكان ينظر إليّ في فضول، وكأنه ينتظر منّي خطوة ما أو رسالة ما أو إشارة ما.

كان يقف إلى شجرة الميلاد المتلألئة بالأضواء والزينة، وكان الجميع يتواجد ورائي في أماكن مختلفة وسلّمته الهدية.

كانت عبارة عن علبةٍ دائريةِ الشّكل، كبيرة الحجم، سوداء لامعة، مربوطة بشريط ذهبي، تسلمها منّي مبتسمًا وفتحها بسرعة، وعندما كشف الغطاء انبهر بباقةِ ورود استقبلت يده التي داعبت أطراف أوراقها، أعجب الجميع بذلك التّناسق الساحر، شكرني آدم بنظرة مشاكسة وشبه غمزة في غفلةٍ من الجميع، مع ابتسامة ساحرة.

لكنّ السيدة كاترين أخذت الباقةَ من يده، ودقّقت النظر إليها بإعجاب قائلة:

– ذوقُك مميز، إنّها مجموعة رائعة فعلًا، أنا أعرف هذه الزهور، وخاصّة هذه الزهرة النادرة وسط المجموعة. ثمّ واصلت: إنّها زهرة "الأنايبس"، وتحيط بها زهور التّوليب الملونة.

ثمّ بدأت تسرد عشقها لتلك الزّهور التي تختصّ هولندا بإنتاج أكثر من خمسمائة نوع منها.

لحظة نطق زهرة الأنايبس تعمّدت النظرَ إلى آدم لأقرأ ردّة فعله، لكنّه استدار إلى الطاولة بسرعة وسكبَ لنفسه كأسَ نبيذ، وأشعل سيجارة بكلّ تجاهل وهدوء.

إذن يبدو أنّ الأمر لم يعدْ يعنيه أو أنّه قد نسي اسم أنايبس، حاولت إنقاذَ خيبة أملي بسرعة وأخبرت السيدة كاترين بصوتٍ مسموع لآدم بأنّ صاحب مركز الورود هو مَن اختارها، وقام بتنسيقها حسب ذوقه، وأنّني طلبت منه فقط تجهيزَ باقة ورد جميلةٍ لصديق العائلة.

تجمّعنا بعدها من جديد حول الطاولة للاستمتاع بأطباق الحلويات، سألني فيليب مبتسمًا:

– هل أعجبتك الهدية؟

أجبته على الفور:

– طبعًا، إنّها مجموعة رائعة، شكرًا جزيلًا.

أضاف مازحًا:

– أتعلمين أنّ اختيار الروايات يعبّر عن شخصية القارئة.

عندما زرت مكتبة فيليب كنت قد اشتريت مجموعةَ روايات كان معظمها رومانسي درامي، الشّيء الذي شدّ انتباهه يومها، أجبته مبتسمة:

– ليس دائماً.

– حسنًا، لنقل في أغلب الأحيان، فأنت على ما يبدو فتاة رومانسية تبحثين عن قصّتك وأحلامك داخل رواية.

– لا أنكرُ اندماجي خلال المطالعة وشعوري أحيانًا بأنّني بطلة الرواية، وبأنّني أعيش أحاسيسها وانفعالاتها، ولو كنت أنا الكاتبة لتقمّصت شخصيتها، ولكن كلّ ذلك ينتهي بانتهاء الرواية، وكم من رواية أحزنتني نهايتها.

انفجر فيليب ضاحكًا، وأضاف:

– أنتِ غريبة يا أمل.

انتبه آدم إلى حوارنا، أو لعلّه قد تابعه منذ البداية في صمت، لكنّه تدخل في هذه اللحظة متسائلًا:

– هل يعني أنّك تقعين في حب البطل خلال قراءتك للرواية؟

شعرت بحرارة تجتاح جسدي عندما وجّه آدم الحديث لي مباشرة عن الحبّ.كم وددت لحظتها أن أخبرَه بأنّه بطل روايتي.

كانت نظراتُه تتفحّصني بدقّة، لململمت شتات تفكيري الذي انقسم بين ذكرياتي الماضية معه وبين سؤاله الحاضر، ثمّ هممتُ بالإجابة، ولكنّ روزالي تدخّلت بسرعة قائلةً وقد أرادت إحراجي:

– لعلها تبحث عن بطلٍ تحبّه كالذي تقرأ عنهم في الرّوايات؟

وانفجرت ضاحكة هي وفيليب في نفس اللّحظة، بينما ظلّت أسهم نظرات آدم مصوّبة تجاهي تخترقني، وتحرقني في نفس اللحظة، كان يبدو أنه لا يزال ينتظر إجابتي.

أجبت عن سؤاليهما باقتضاب:

- لعلّه كذلك.

ضحكتْ روزالي ثانية، وأكملت:

- هل أنت مجنونة يا أمل!؟ كيف تحبّين بطلًا خياليًا في رواية من ورق، أم أنك تقصدين أنك تعجبين بأبطال الرواية وقصّة حبّهم؟

أجبتُها وقد مسني كلامها في العمق:

- أحيانًا تكون قصة حب خيالية أو افتراضية أقوى بكثيرٍ من قصة حبّ واقعية، بقطع النظر عن نهايتها.

ثمّ أضفت:

- دعيني أوضّح لك الأمر، لقد سألني آدم إنْ كنت أقع في حبّ البطل خلال قراءة الرواية ولم يسأل إن كنت أحبّ البطل.

سأل فيليب مستغربًا:

- لا فرق بينهما؛ فالأمر واحد.

أجبته موضحة:

- إنّ "الوقوع في الحبّ" يختلف تمامًا عن" الحبّ"، فالأوّل حالة تعيشها لا إراديًا، تقع فيها بغتة أو صدفةً دون وعي منّا، ودونَ سابق إنذار،

وهي حالة زمنية محدودة تنتهي بانتهاء ملابساتها وظروفها، أما الحبّ فهو امتداد إراديّ لحالة الوقوع في الحب تلك، وتستمرّ لزمن طويل يحاول كلّ طرف فيه إسعاد الآخر.

ظلّ الجميعُ يتابعني في صمت، ماعدا آدم سألني:

– وماذا عن الحبّ في حياتك؟

كانت نظرتُه عميقة لدرجة أنّني بدأت أشك أنّه قد اكتشف أمري، أو على الأقل شكّ بأنني أناييس، وفكرت أنْ أتجاهل سؤاله، وأن أغيّر الموضوع، ولكن روزالي أصرت قائلة:

– هيّا أخبرينا.

أجبت:

– منذ سنوات أحببتُ بطلًا كان يشبه أبطالَ الروايات والأساطير، كان وسيمًا جدًّا وجذابًا، ورغمَ غموضه المفتعل بعض الشيء إلّا أنّه قد كان كالكتاب المفتوح أمامي، كان بحرًا من الأحاسيس التي لا تنضب، أنهلُ منه لحظةَ أشاء، ورغم تمرده على الواقع بأكمله فقد كانت روحه لا تستكين إلّا لروحي.

ثم صمتُّ فجأة؛ فقد لاحظت أني تماديت نسبيًا في الحديث عن تجربتي الخاصة، وقرّرت طرح السؤال على آدم لمعرفة إجابته، ولكن بطريقة غير مباشرة. فبدأت بسؤال فيليب:

– وماذا عن الحب في حياتك يا فيليب؟

لم يكن السؤال محرجًا بالنسبة لفيليب، فقط ضحك وأجاب على الفور، وقد امتدت يديه إلى ظهر صديقته الفلبينية تعبثُ ببعض الخيوط بعد أن اتّخذت مقعدًا إلى جانبه.

– أنا لا أؤمن بالحبّ، لديّ صديقتي نرتاحُ لبعضنا البعض، نخرج معًا، نتقاسم الفراش كلّما رغبنا في ذلك دون ارتباطات أو مسئوليات ونحن متّفقين على ذلك.

شعرتُ بالإحراج من جرأته في الكلام، لعلّ وجنتي قد اكتسحتْهم حمرة الخجل حينها، إذ شعرت بتدفّق الدماء، ووجّهت السؤال نفسه لروزالي:

– وماذا عنك يا روزالي، أخبرينا عن حبّك؟

في الأثناء، لمحت ابتسامة خبيثة على شفتي آدم، وكأنّه قرأ أفكاري، وعلم أنّني توخّيت هذا الطريق في الأسئلة لأنتهي بالسّؤال عنده، فشعرت بالارتباك...

إنّه شديد الذّكاء كعادته، بل كثيرًا ما كان ينطق بكلماتي قبل أن أبوح بها، أو نكتب نفس الكلمة في نفس اللحظة.

أجابت روزالي وهي تتّكئ على ذراع آدم محتضنةً له:

– لقد وجدتُ الشّخص المناسب أخيرًا، وبعد بحث طويل.. فأنا وآدم نتّفق في الكثير من الأمور وأتمنّى أن تكلّل علاقتنا بطفليْن رائعين كآدم.

ثمّ ابتسمت ابتسامة كلها دلال وأرادت تقبيلَ شفتي آدم، ولكنّه أشاح بوجهه قليلًا لتطبع القبلة على خدّه، ضمّها إليه قليلًا ثمّ اعتدل في جلسته،

ونظر إليّ وكأنه ينتظر منّي أن أسأله عن الحبّ، ولكنّني التفتّ إلى روزالي، وأخبرتها أنّ هذا أمرٌ رائع، ونصحتها أن تحافظ على الحبّ إن وجدته لأنّه أهمّ من الحبّ ذاته.

إذْ لا معنى للحبّ إن لم نستطع المحافظة عليه.

تظاهرتُ بعد ذلك بالانشغال بالأكل كي لا أوجّه السّؤال إلى آدم، الذي ظلّ يراقبني بحذر، لكن روزالي اقتنصتِ الفرصةَ لتسأل آدم مبتسمةً فخورة عن الحبّ في حياته، لعلّها انتظرت منه ردًّا رومانسيًّا عاطفيًّا يليق بحرارة مشاعرها تجاهه في تلك اللّحظة المنتشية، لكنه ابتسم ابتسامة خبيثة ساحرة قائلًا:

– أحتفظ بهذا الأمر لنفسي يا روزي.

لكنّ روزالي بطفوليّتها أصرّت عليه ليجيب، وسألته لماذا يتهرّب من الحديث عن الماضي في ما يخصّ الحبّ كلّما طرحت عليه هذا السّؤال سواء هي أو أيّ من أصدقائهم.

صمتَ قليلًا ثمّ أجابها:

– حسنًا سأخبرك.

بدأتْ دقّات قلبي تتسابق للخروج من بين ضلوعي، لقد ضاق بها المكان حتى أنّه خيّل إليّ للحظة أنّ الجميع يستمعُ إلى ذلك النبض.

***

لطالما رغبتُ في معرفة مشاعره تجاه أناييس بعد أنْ أخبرته الحقيقة واختفت، وهل صدق عندما قال يومًا إنّها حبّ حياته الذي لن يتكرّر أبدًا؟ وهل مازال يذكر تلك القصّة من الأساس؟

أسئلة تتزاحم بذهني ومشاعرُ تتراقص بداخلي عشقًا وحنينًا، وأنا قُبالته أنتظرُ بدْءه بالحديث، وروزالي إلى جانبه كلّها اهتمام وآذانٌ صاغية، بينما أخذ فيليب يتحرّش بصديقته يمازحها حتى لا تشعرَ بالملل من اللّغة الفرنسية، التي ظللنا نتكلّم بها منذ البداية بناءً على طلب السيدة كاترين، وواصلنا التعامل بها بعد انسحابها للنوم.

بدأتْ علاماتُ حزن طفيف على آدم، وملأ كأسه الثاني من النبيذ وهو يقول:

- لقد وقعتُ في الحبّ. بدأت بلعبة تحدٍّ انهزمت فيها لأجدَ نفسي في النهاية أحبّها. مغرمًا بها.. عاشقًا لها.. ووحيدًا. كانت قصّتنا أسطورة من أساطير ألف ليلة وليلة، ولكنّها اختفت من حياتي ذاتَ ليلة دون سابق إنذار، كنت أشعر بحبّها وعشقها في كلّ لحظة، كانت غامضة وقد عشقت غموضَها، وزادني إثارةً وتحدّيًا، لكنّها اختفت.

صمتَ برهة، ثمّ واصلَ بمرارة وهو يحدّق في أعماق كأسه:

- جمعتُ كلّ تفاصيلها ورحلتُ بداخلي.. تتنزّه بين حطام قلبي حافية القدمين دون أيّ إحساس بالوجع أو الفقد، تؤثّث ذاكرتي بتلك التفاصيل وتنفض عنها الغبار في تجبر أنثوي كلما حاولت نسيانها، تسري في أوردتي

وتبثّ سرطان عشقها بين شراييني في صمت السّكون وإغراء العشق الكافر.. ملحدةً كانت حبيبتي لا تؤمنُ بالحبّ، وظللت لسنواتٍ أسأل نفسي مَن تكون؟ وما إذا كانت يومًا ما قد أحبّتني فعلًا؟

أشعل سيجارة وسحبَ منها نفسًا عميقًا هادئًا ابتلع فيه تنهيدةً صامتة، تحرّرت مع نفثه لدخانها قبل أن يواصل:

– لقد تسلّل عشقها بداخلي كسيجارةٍ سكنت أنفاسها بين ضلوعي لتصيبني في مقتل.

ثمّ سكت فجأة، لعلّه مثلي قد أحسّ هو الآخر بأنّه قد تمادى في الحديث، فقرّر الهروب مضيفًا:

– وجود روزالي في حياتي كصديقةٍ أمرٌ رائع، والأمور بدأت تتغيّر تدريجيًّا، وتأخذ منحى آخر.

ثمّ أنهى كلامه بقبلةٍ خفيفة على شعْر روزالي حتّى لا تشعر بخيبة عاطفيّة من صراحته، فهي التي أصرّت على معرفة مالم يبحْ به من قبل.

أمّا أنا فقد كنت أحترقُ بداخلي، بل شعرت بأنّ دخّاني قد غمر المكان من حولي، وبدأت أشعر بالاختناق.

كان دخانُ احتراق مشاعري المنصهر مع دخان سيجارة آدم يتشكّل أمامي كفوّهة بركان تنذر بالانفجار في أيّة لحظة، وانبعاث حمم الشّوق المكتومة في باطن الروح.

بدأ التوتّر على حركتي حيث انقلب كأسُ العصير على الطاولة، وفي محاولة منّي لترتيب المكان وقعت منّي شوكة الحلويات.

اعتذرت بعدها من الجميع لأطمئنّ على السيدة كاترين قبل أن أذهب إلى النوم، أمّا روزالي فقد أجهشتْ بالبكاء فجأة بعد أن شربت كثيرًا من النبيذ، ولعلّ كلمات آدم قد أفاضت كلّ المشاعر بداخلها.

كان آدم رصينًا يحاول تهدئتها ببعضِ الكلمات المنمّقة الرومانسية دون جدوى، كان يقول لها كم هي جميلة وفاتِنة، وكم أنّه فخور بالتعرّف عليها، لكنّها كانت تحتاج إلى كلام من نوع آخر، فكّرت بأنّه لعلّه خجلَ من وجودي بينهم؛ فاستنشقت دخاني وانسحبت في هدوء.

وما إنْ دخلتُ غرفتي حتى انفجرتْ سيول من الدموع التي أمطرت كلّ قطرة منها معاني عكس الأخرى، فيها الشّوق والحنين، وفيها الحسرةُ والندم، وفيها الغيرة والعشق، وفيها من المعاني ما لا تريد الكتابة خيانتها والبوح بها.

***

لم يغمضْ لي جفنٌ ليلتها.. وفي الصباح الباكر خرجت إلى الحديقة، كانت ليلةً ضبابية ممطرة، ليلة مُلئت بسوائل الأمطار المنْهمرة التي أذابت الثّلوج، وأذابت معها أحاسيس آدم وروزي في خلوة دامتْ لساعات.

كانت قطراتُ الندى الملتصقة بأوراق الشّجيرات الصغيرة تشي بليلةٍ حميمية ساخنة جمعتهما معًا، وكان النّسيم الصباحي العليلُ يغازل تلك القطرات، لعلّه تمامًا كما غازلت روزالي ما انبعث من جسدِ آدم من قطرات "عرق الحبّ".

كان يقفُ في الشّرفة بجسده الرّياضي مبرزًا صدره، لا يرتدي سوى بنطلونٍ من الجينز الأزرق، عندما اقتربتْ منه روزي من الخلف، وباغتته بحضن عاشق.

جلستُ بين الأشجار حتّى لا يلمحاني، وظللت أراقبهما، استدار آدم وتحدّث إليها باقتضاب، ثمّ دخلَا الغرفة مجدّدًا، كانا في غرفة الضّيوف، أو بما يسمّى غرفة آدم حينها.شعرت بامتعاض رهيب، سرطان الغيرة الذي يصيب المرأة عندما تختطف منها امرأة أخرى الرجل الذي تحبّه.

ما أقسَى أن تصبحي شخصيّةً ثانوية على هامش أحداث مهمّة في روايةٍ كنت أنتِ بطلتها!

***

مرّت خمسة أيّام تألّقت فيها روزي بملابسها المثيرة القصيرة أمام آدم، الغريب في الأمر هو أنّه لم يكنْ ينتبه إلى حركاتِ الإغراء التي تتعمّد القيام بها في وجوده، بل لعله على درجة عالية من الفطنة والذكاء لينتبه لكلّ شيء، ويتجاهله بتلقائيّة تجعلني أعتقد بأنّه لم ينتبه لها ولم يتأثر بها.

في الأثناء، كانت نظراته تطاردني في الخفاء أينما تواجدت، إلى أن حلّ مساء اليوم الخامس وهو اليوم الذي يسبق ليلة الاحتفال برأس السنة الجديدة، والتي بدأت روزالي تستعدّ له منذ أيام.

في ذلك المساء، كنت جالسةً في ركن هادئ في الطّابق السفلي، على الكرسي الهزّاز المريح للسيدة كاترين بجانب المدفأة، التي فرشَ أمامها جلدُ

نمرٍ غطّى الأرضية وامتدّت أطرافه تحت قدميّ، كنت مندمجةً في كتابة بعض الخواطر التي داعبتْ مخيلتي حين تقدّم منّي آدم بهدوء، وقدّم لي هدية دون أيّة مقدّمات قائلًا:

– هذه هديّتي لك بمناسبة حلول رأس السنة الجديدة، وبهذه المناسبة أدعوك للعشاء والاحتفال معنا غدًا.

وضعَ الهدية بين يديّ وانصرف قبل أنْ أشكره، أو أبدي رأيي في موضوع الدّعوة، وكأنّه كان متأكّدًا سلفًا بأنّني لن أرفضها.

صعدتُ إلى غرفتي على الفور، وما إن وضعت الهدية على الطّاولة حتّى رنّ جرس غرفة السيدة كاترين، كانت تشعرُ ببعض التّعب، وارتفعت حرارتها فاضطررتُ لملازمة فراشها لساعات طويلة والاعتناء بها حتّى استقرّت حالتها، واستغرقت في نوم عميق.

في صباح اليوم التالي..

استيقظت باكرًا، بل لم أستطع النومَ جيدًا، ولم يكنْ ذلك بالأمر الجديد، إذ كنت قد أصبتُ بالأرق فعليًّا على مدار الأيام الماضية، وتحديدًا منذ أن خطا آدم عتبة ذالك البيت ليسكنَني من جديد..

أمضيتُ الفترة الصباحية أتجوّل في المدينة، مررتُ بمكتبة فيليب، وتبادلت معه بعض الأحاديث المقتضبة بخصوص الكتب، سألني عن صحّة والدته فطمأنته أنّها بخير.

سألته عنْ روزالي في فضول، وكنت بداخلي أسأل عن آدم.. أين يكون مع روزي في ذلك الوقت؟

لكنّه لم يكن يعلم عنهما شيئًا، وأخبرني أنّهم سيلتقون في المساء، ثمّ أضاف في ابتسامة ساخرة:

- إذًا، أنتِ لا تعرفين روزي أختي لا شكّ أنّها تجوب المدينة بحثًا عن ملابس تليق بسهرة الليلة فهي لا تكتفي من الشّراء، أختي مريضة بالتسوق.

ابتسمتُ في داخلي وخمّنت:

- إذًا، لدينا قاسَمٌ مشترك جديد أنا وروزالي بعد آدم، إنّه حب التسوّق.

واصلتُ جولتي بين محلّات المدينة المتلألئة الأضواء، والتي تسحرك واجهات محلاتها التجارية بعلامات التخفيضات الرهيبة التي تجاوزت الخمسين والسبعين بالمائة.

إذْ مازالت مدينة "دوسلدورف" تحتفل بعرسها السنوي حيث تتجمّل في تلك الفترة من السنة بإغراءٍ لا يقاوَم، ترتدي الأضواء البراقة التي تخطفُ الأبصار، وتتزيّن بعربات الأكلة الخفيفة الجميلة المزخرفة في أبهى حلّة، والتي لا تراها إلّا في تلك الفترة من السنة في شكلها الاستعراضي الخلاب.

فكّرت في آدم.. تُرى ماذا سيرتدي الليلة؟ وبأيّ إطلالة ستحاول روزي أن تسحره؟

تذكّرت في الماضي.. عندما كتبَ لي آدم ونحن نتخيّل لقاءً بيننا في سهرة رأس السنة كيف سيكون وماذا سنرتدي؟

كتب يومَها أنّه سيرغب في رؤيتي في تلك الليلة بلونٍ أسود تخترقه تفاصيل لون آخر، أما هو فسيرتدي بدلةً سوداء لنكونَ كعروسين مختلفين بعيدين عن اللون الأبيض المتعارف عليه في تلك المناسبة.

***

كنت أتجوّل مبتسمة كتائهةٍ فقدتْ عقلها، هكذا يعتقد مَن يراني مِن بعيد أو يمرّ بجانبي، ولكنني في الواقع كنت حينَها كغيري ممّن يجلسون أو يتجوّلون لوحدهم، وتنبثق منهم ابتسامة خفيفة بين الحين والآخر، أو ضحكة مقتضَبَة، فنعتقدُ أنّ ذلك الشخص به خللٌ عقلي أو نفسي ما، بينما هو في الحقيقة ليس إلّا عاشقًا استدعت ذاكرته لحظاتٍ خاصّة من ذكريات الماضي ليكسر بها مرارة الواقع وصمته فترقص حواسّه احتفالًا على شرفها ولو للحظات.

كان الجميع في عجلةٍ من أمره، هكذا هي المحلّات في المناسبات تفتح فقط في الفترة الصباحية ويركض الجميع للتسوّق، حتى المستلزمات الغذائية كاللحوم والأسماك والفواكه والخضار والمشروبات وغيرها يشترونها بكميات أوفر في اليومين الأخيرين، لأنّ أول يومين من السنة الجديدة هُمَا عطلةٌ رسمية تغلق فيها جميع المحلات والمؤسسات والمطاعم وغيرها.

ففي ليلة رأس السنة ترى المدينة كعاشقة في حالة انتشاء ومجونٍ مجنون حتى مطلع الفجر، وبعدها مباشرة يدخل اليومُ الأول من السنة الجديدة متثاقلًا، وتدخل المدينة في غيبوبةٍ أو حالة من السبات العميق، حتّى أنّك تعتقد أنّها مدينة مقفرة.

ولا شكّ في أنّ مَن يسافر إلى ألمانيا لأوّل مرّة في ذلك اليوم تحديدًا سيعتقد- حتمًا- أنّها بلد مهجورٌ خالٍ من السكان، أو أنّ وباءً قد تفشّى فيها وقضى على ساكنيها دفعة واحدة، كم أعشقُ هذا البلد! وكم أكرهه في هذا اليوم الكئيب.

وبعد أنِ انتهيتُ من التسوّق وعدتُ إلى المنزل، أخبرتني السيدة كاترين بأنْ أكون جاهزة حوالي السّاعة السابعة والنصف مساءً؛ لأنّني مدعوّة على العشاء مع فيليب وآدم وروزالي، سألتها متصنعة عدمَ علمي بالدعوة:

- مَن الذي دعاني؟

أجابت مبتسمة:

- الجميع كانوا هنا منذ قليل، وطلبوا منّي إبلاغك بأنّ السهرة ستكون أمتعَ بوجودك معهم.

حسنًا، لا أظن أنّ روزالي قد تفكّر بتلك الطريقة، وتفرح لوجودي معها، فحدس المرأة إزاء الخطر الأنثوي الذي قد يحدّق بعلاقتها العاطفيّة عادة لا يخطئ، ولعلّني كنت أشكّل خطرًا في نظرها.

سألتها إذا كانت صديقةُ فيليب مدعوّة أيضًا، فأخبرتني بأنّها سافرت لأمرٍ هام.

وافقتُ على مضض، فالأمرُ لم يعجبني كثيرًا، سأضطرّ إلى الحديث مع فيليب طوال الوقت من باب المجاملة، وأنا مزاجي متقلّب، ونفسيتي مضطربة.. لكن يبقى وجودُ آدم في حدّ ذاته سببًا كافيًا لإقناعي بالموافقة.

لاحظتُ أنّ صحّة السيدة كاترين مستقرّة، ويبدو أنّ وجود صديقتها الحميمة التي جاءت لزيارتها قد نشط أعضاءها فقد كان وجهها منتعشًا.

صعدتُ إلى غرفتي. ووقفت في شرفتِها متأمّلة قطرات المطر الخفيفة التي بدأت تنزل في حياء، رفعت عينيّ للسّماء، كانت زرقاء، بدأت تتشكّل في قلبها سحاباتٌ رمادية متباعدة، وكأنّها تتأهّب للمشاركة في احتفالات الليلة على طريقتها، نسمات من الهواء البارد بدأت تتقاذف قطرات المطر وتعبث باتجاهها.

***

هدوءٌ تامّ يخيّم على المكان، أمّا المنازل المحيطةُ فتنبعث منها الكثيرُ من الأضواء، إذ منهم مَن يجهز للاحتفال داخلَ البيت، ثمّ الخروج قبلَ منتصف الليل لإشعال المفرقعات في الشّوارع، ومنهم مَن يستعدّ للخروج إلى العشاء، والاحتفال خارجًا أين تنصب المدينة على حافّة نهر "الراين".

انتابني شعورٌ حزين حين تذكّرت آدم، لقد حاولت التّلميح له بأنني أنايبس التي أحبّها، ولكن دون جدوى، يبدو أنّه لم يفهم ولم يحسّ! وإنْ كان الأمر كذلك فكيف يسمحُ لنفسه بأنْ يكون مرتبطًا بروزالي، ويحاول في نفس الوقت شدّ انتباهي وإثارة فضولي اتجاهه؟

أمورٌ كثيرة كانت جديرةً بكشفي أمامه، لكنّه لم ينتبه لها؛ لكنتي باللّغة الفرنسية، طريقة تفكيري وردود فعلي، شغفي بالكتابة، وشغفي بفنون الطّبخ العالمية، باقة الورد وزهرة الأنايبس التي تعبت في الحصول عليها في وقتٍ قياسيّ، وتعمّدت إهداءها له لعلّه يفهم، وتفاصيل أخرى كثيرة، ولكنه لم يفهم!

يا إلهي!كيف لا يحسّني وأنا مَن سكنت جوارحه يومًا!؟

إنّه لم ينسَ قصّتنا التي مازالت ذكرى حيّةً تختلج بداخله، لكنّه رغم ذلك لم يشعرْ بي ولم يتعرف إليّ وأنا أقف على بُعد أنفاس منه، داخل فخّ الرّغبة والرهبة والاشتياق.. بين مدّ البداية وجزر النّهاية.

ماذا عن الوتين؟ أليس هو تخاطر الأفكار والأحاسيس عن بُعد؟ وماذا عن تلاقي الأرواح رغم بُعد المسافات؟ وماذا عن، وعن، وعن؟

***

انتشلني رنينُ هاتفي الجوّال من حيرتي التأملية، إنّها والدتي كعادتها تسبقني دائمًا في كلّ مناسبة لتطمئنّ عليّ، سعدتُ بمكالمتها فقد اشتقتُ إليها كثيرًا، وتحدّثت إلى والدي وإخوتي.

في تمام السّاعة السّابعة والنصف، غادرت غرفتي إلى الطّابق السفلي وقد استنفذت أسلحتي الأنثوية في إطلالةٍ ساحرة لآخر صيحات الموضة، لنقل إنّها حربُ الموضة مع روزالي من جهة، وحرب إنعاش الذاكرة وتبلّد المشاعر مع آدم من جهة أخرى.

وكما توقّعت؛ كان الجميع مجتمعًا في غرفة الاستقبال، كان آدم متألقًا في بدلته السوداء، ممتلئًا بصمتِ الجاذبية وأصواتِ الرجولة الصارخة. بينما فضّل فيليب ارتداءَ بنطلون أسود مع قميص أبيض مخطّط بالأزرق تناغمًا مع لون عينيه السّماويتين، أمّا روزالي فقد كانت شبهَ عارية، كانت ترتدي فستانًا أحمرَ قصيرًا جدًّا، يفكّر مَن يراه أنّ المصمّم قد مرّ بأزمة قماش لتكملته،

فستان مثير جدًّا يصلح لغرفةِ النّوم وليس للعشاء في مطعم.. وممّا يؤكّد تلك الأزمة هو أنّ الفستان به حزام من ثقوب الدّانتيل المطرّزة على مستوى الخصْر.

ولكنّها في المجملِ كانت تبدو كدمية "باربي" يصعب على الرجال مقاومة إغرائها، وبينما اخْتارت روزالي سلاحًا فاضحًا قصير المدى، اخترتُ أنا سلاحًا غامضًا بعيدَ المدى، حيث ارتديت "أوفيرال"، وهو عبارة عن بنطلونٍ وبلوزة مرتبطين ببعضهما في قطعة واحدة، مفتوح قليلًا على مستوى الصّدر والكتفين بلونٍ ليليّ حالك السّواد، مرصّع بنقاط فضيّة كنجوم لا تلمح منها سوى لمعانها عند الحركة.

كان شعْري مرفوعًا إلى الأعلى كذيلِ حصان، أحكمتُ ربطه بمشبك فضيّ يناسب القرطين الذين يحدّدان جمال رقبتي البيضاء.

كانت نظرةُ فيليب عندما وصلت مملوءة بالإعجاب، وصرخ:

– سأتناول العَشاء مع أجمل فتاة، وسيحسدني الجميع هذه الليلة.

لا يهمّ ما قاله بعد أنْ رمقتني روزالي بابتسامةٍ باردة مزيفة مُلئت غيرة، بينما ابتلعتني عينا آدم بنظرةِ افتتان لا تقاوَم.

بعضُ الرجال تكمُن أسلحتهم الرجوليّة الفتّاكة في نظرةٍ تخترق الحواسّ، وتستنزف العاشقة روحيًّا، وترهقُها معنويًّا، قبل غزوها جسديًّا، وتوقيع عقد الاستيطان داخلها في معاهدة صلحٍ اسمها "عقد زواج".

والبعضُ الآخر تكمنُ قوّتهم في الأسلحة المتطورة، والمناورات الكلامية، وفنون الإقناع وسحر البلاغة، وقواميس العشق الذكية لسرعة بلوغ الهدف.

ولعلّ آدم كان يجمع مِن الفنون بين هذا وذاك، قال آدم:

– لنذهب إذًا بما أنّنا جاهزون.

أمامَ المنزل، فتح باب السيارة الأمامي المجاور له لروزالي وبعد أن أغلقه، وهو يفتح الباب الخلفي لي سألني:

– هل تقرئين لكاتبةٍ جزائرية تُدعى أحلام مستغانمي؟

وقبلَ أن أجيبه، فتح الباب الأمامي للسيارة واتّخذ مكانَ القيادة غير منتظرٍ للإجابة، ربما حتى لا تنتبه روزالي لتلميحه، أو ربّما لأنه يعرف أنّني حتّى وإن لم أقرأ لها فسأبحثُ عن المعنى المقصود في عنوان روايتها "الأسود يليق بك" في نسختها الفرنسية تحت عنوان "ما عادت النساء يمتْنَ عشقًا".

لطالما أعجبني الحوارُ معه في الماضي، ذكاؤه الكلامي يرفع سقفَ النقاش بيننا في لحظات، ويغوص به في الأعماق ببعض الهمسات.

التحقَ بنا فيليب بعد أنْ أغلق البابَ الحديدي للمنزل، وجلس في الكرسي الخلفي المجاور لي وانطلقنا إلى المطعم.

في البداية، لم أفهمْ لماذا فضّل آدم قيادة السيارة عوضَ فيليب، ولكنّي لاحظت خلال الطريق انعكاس نظراته على المرآة الأماميّة للسيارة، حيث كان تركيزه مقسّماً بالتساوي بين القيادة وإشارات الطريق وبين المرآة،

كانت الأغاني داخل السّيارة تصدح مع ضحكات روزالي وفيليب بينما هو يتأمّلني في صمت.

دلفنا مطعمًا إيطاليًّا راقيًا مطلًّا على نهر "الراين" حيث يقع استعراض المفرقعات عند منتصف الليل تحديدًا؛ احتفالًا بدخول السنة الجديدة.

كان فيليب قد حجزَ لنا طاولة لأربعة أشخاص.

جلستْ روزالي إلى جانب آدم، وألقتْ برأسِها على كتفه في دلال، لا أدري لماذا انتظرت منه في تلك اللّحظة أن يبعدها عنه في هدوء، أو أنْ يتجنّب ذلك التحرّش الصارخ، ولكنّه لفّ يده وراء ظهرِها ليستقرّ بها حول خصرها، بينما أخذَ بقراءة قائمة المأكولات ممسكًا إيّاها بيده الأخرى.

شعرت بالاختناقِ وبرغبةٍ في الانفجار كأنْ أصفعها أو أصفعه أو أصفعهما معًا، فكّرت في استجماع قوّتي والاعتراف له، لكنّي عجزت.

ظلّ طبقُ الأكل أمامي كاملًا لوقتٍ طويل، كنتُ خلاله شاردةَ الذّهن، وأتبادل الحديث مع فيليب باقتضاب، بينما كان آدم يراقص روزالي على أنغامِ موسيقى رومانسية إيطاليّة هادئة، يقترب منها ويهمسُ بكلمات في أذنيهاَ فتنفجر هي ضاحكة، لحظاتٌ موجعة فعلًا، لحظات تنطبق فيها على روزالي أغنية "ماجدة الرومي"... "يسمعني حين يراقصني كلمات ليست كالكلمات يأخذني من تحت ذراعي يزرعني في إحدى الغيمات"..

بينما ينطبق عليّ في نفس تلك اللّحظات مقولة "فيودور دوستويفسكي":

"لا تعترف بالحريق الذي داخلك، ابتسمْ وقلْ إنّها حفلة شواء".

كان آدم يسترقُ النّظر إليّ في كثير من الأوقات، حاولت تجاهله ولكنّي لم أستطع، فقد كنت بدوري أسترقُ النّظر إليهما طوالَ الوقت رغمًا عنّي، شعر فيليب بالضّجر بعد أن دعاني للرقص ورفضتُ دعوته متعلّلة بمغص مفاجئ، ودعّمني طبقي الذي لم ألمسه، فانضمّ إلى فتاةٍ أخرى ودعاها للرّقص، فتنفّست الصعداء.

***

بدأ منتصفُ الليل يقترب وتغيّر إيقاع الموسيقى إلى سريع احتفالي، وخرج الجميع من المطعم إلى باحتِه الكبيرة المطلّة على نهر "الراين"؛ حيث اكتظّ آلافٌ من الأشخاص ينتظرون لحظة الإعلان عن ساعة الصّفر لبداية سنة جديدة.

خرجتُ مع الجميع، كانت كلّ الأعناقِ مشرئبةً إلى الأعلى، معلّقةً في السّماء باتجاه دائرةٍ ضوئية عملاقة كتب عليها تاريخ السنة القديمة.

فجأة، وبصوت واحد، بدأ الجميع بالهتاف في عدٍّ تنازلي عشرة.. تسعة. ثمانية.. سبعة.. ستة.. خمسة.. أربعة.. ثلاثة.. اثنان.. واحد.. صفر، وفي تلك اللحظة تغيّرت الأضواء العملاقة بتاريخ السّنة الجديدة، وشعرت بيدٍ تجذبُني من خصْري، وقبلةٍ تطبَع على حدود شفتيّ وسط دوي انفجارات هائلة، وقبل أن أستوعب اللّحظة، كانت الأضواء وصوتُ الانفجارات المدوية قد ملأتِ السّماء في لحظات، وامتلأ كبدُ السّماء نيرانًا مشتعلة بالمفرقعات الضّوئية الملوّنة في أشكال مُبهرة مصحوبة بهتافات الآلاف من الأشخاص فرحًا.

كان آدم يقفُ إلى جانبي حين وصلتْ روزالي باحثة عنه. انسحبت في تلك اللحظة، وعدتُ إلى المطعم حيث خرجتُ إلى شرفته الخلفية أتابع الألوان في السّماء من مكان أكثر عزلة.

شعرتُ بالألم وأنا أسترقُ اللّحظات مع مَن أحببته، مازلت أحبّه؛ مع آدم.. بينما هو يعتبر خائنًا لروزالي، إنّه لم يعرفني، ولعلّه اعتقد أنّه وجد فتاةً جميلة سهلة المنال، وحاول اصطيادها وإيقاعها في شِراكه.

هكذا بدتِ لي الأمور لحظتها، وامتلأت عيناي بالدّموع، تلك الدموع الخائنة التي دائماً ما تكشف لحظاتِ ضعفي وانكساري.

ولكن عن أيّ ضعف أتحدّث! لقد كانت دموعي صادقة، والصّدق قوّة في أضعف وأصعب الأوقات.

فكّرت في نفسي "لماذا سرق منّي قُبلةً في غفلةٍ منّي، وفي ذلك التّوقيت الدقيق بالذات؟ هنا يقولون إنّه في لحظة الصّفر تهدَى أوّلُ قُبلةٍ للشّخص الذي تتمنّى أنْ تمضي معه أيّام السنة الجديدة وتتجدّد الأمنيات كلّ سنة وهكذا، فلماذا قبّلني؟"

***

فجأة، ودونَ سابق إنذار..

استدرت بتلقائيّة على صوتٍ من ورائي ينادي "أنايِيس"؛ لأجد نفسي وجهًا لوجه مع آدم في لقاء استثنائي، في لحظاتٍ احتفالية مميّزة، والأرضُ من تحت قدميّ تكاد تنشقّ وتبتلعني.

صوتُه وهو ينادي "أناييس" زلزل كلّ كياني، وارتعدتْ أوصالي من المفاجأة، وانهمرت دموعي بلا رادع.

وفي جزءٍ من الثانية، في حركة لا إراديّة من كلَيْنا، ارتطم جسدي بجسده في عناقٍ مشتعل، لم يكن ينبئ بالاحتراق.

كانت لحظةً شعرتُ فيها بعجز تامّ عن ابتلاع أيّة مشاعر بداخلي، أو استيعاب أيّة مؤثرات خارجيّة للهواء والرياح والموسيقى والمفرقعات والصّخب والهتافات.. سوى من أنفاسه الحارّة.. سوى من دقّات قلبه المتسارعة، وقبضة يديه وراءَ خصري وهُما ترفعاني للالتحام بجسده، سوى بضغطِ يديه وهو يضمّني وكأنّه يرغب في الولوج داخلَ أعماقي، أو ابتلاعي بشفتيه اللّتين سجدتا على رقبتي في رغبةٍ لا متناهية.

لم أفكّر في شيء؛ بل لم أحاولْ، ولم أستطعِ التّفكير.. إنّها اللّحظة التي يضرب فيها جنون الحبّ بكلّ المسلّمات والتقاليد، ويُرديها طريحةَ العشق تتخبّط في عالم آخر.. كافر....

كان جسدي المتأجّج يرتعش بين يديه، وكلّما ازدادت ذبذباتُ الحبّ، ازداد حضنه ضغطًا واستيعابًا.

كان اشتياقُه لي متوحّشًا في عناقه، وأنفاسه متهدّجة متسارعة في هدوئها...

كنت أشعر بلهفته.. برغبته.. برجولته...، ورغم تمرّسه في أمور الحبّ بمعناها الفرنسي، فقد وصلني اضطرابُه..

كانت شفتاه تمسحان الدّموع المنهمرة على رقبتي، تتذوقّانها.. لعلّه كان يمتصّ بذلك غيرتي، أو يبتلعُ بهما وجعي وخذلاني له..كان يستوعب اشتياقي بأسلحته الكاتمة للصّوت.

لا أدري كمْ مرّ من الوقت في قُبلة جمعتنا.. أماتتنا؛ بل أبادتنا.. تحسّس فيها شفتيّ بشفتيه، ووقّع عليهما بقُبَل رقيقة رومانسية.. تذوّق من خلالها حرارة شوقي إليه، كغطّاس متمرّس وسط عاصفة اشتياقٍ هوجاء، يتحسّس مياه البحر ويداعبها قبل أن يتحدّى ويغامر بالغوص.. في قُبْلة مفخّخة بأحاسيس قاتلة.

توقّف فجأة، موقّعًا بإمضاءِ شفتيه على جبيني، ضمّني إليه بقوّة كأمّ فقدت رضيعها ثمّ استعادته بعد غياب، انسحبَ في هدوء، وأعادني إلى أرض الواقع!

عبثًا حاولت استجماع نفسي، إنّها لحظات تفجّر سنوات شوقٍ وعشق أدْماها الخذلان، وأنهكها سقفُ غربة الفراق.

نظرَ إليّ بقسوة قائلًا:

– لماذا تبكين!؟

لم أجدْ صوتًا أتكلّم به، ولا كلمات أعبّر بها عمّا أشعر به مِن سقوط، ولما يئس من استخراج إجابةٍ منّي؛ أضاف:

– لقد عرفتُك يا "أمل"، عرفت أنّك أنابيس منذُ كنّا في المطبخ تلك الليلة، مِن لكنتك وطريقة كلامك، لقد تحرّرت حينها كلّ تفاصيلك التي كانت مكبّلة بداخلي، وعتقت معها عشقك في لحظات. لقد أحسستُك،

ولكنّ جرحي لم يندمل بعد. وهروبَك المفاجئ خلّف بداخلي جروحًا لم أجدْ لها بلسمًا طوال السّنوات الماضية، وشروخًا بقلبي لم يقدرْ أحدٌ على ترميمها.. لقد ظلّت أناييس دائمًا نقطةَ استفهام غامضة في حياتي، قصّة عشق كافر آمنتُ به لوحدي.

اقترب منّي أكثر، ووضع يدَه على كتفي، وهو يقف أمامي مباشرة مواصلًا:

– لقد أعطيتُك فرصة طوال الأيّام الماضية لكي تصارحيني بالحقيقة، وتقدّمي لي اعتذارًا صادقًا يليق بحبّي لك، وبصدق مشاعرك اتجاهي، ولكنك صمتِّ وأخفيتِ عنّي الحقيقة للمرّة الثانية، وكأنّ التاريخ معك يعيدُ نفسه.

كنّا نجلس أنا وأنت على طاولة شطرنج وسطَ الجميع، وكنت كلّما حرّكتِ حصانًا باتجاهي حرّكت حصانًا باتجاهك.. ولكنّك تهزمين نفسَك بذلك التردّد والخوف الذي يلبسك في لحظات المواجهة فتهربين، حسنًا.. ما رأيك أن نتبادَل الأدوار هذه المرّة؛ لعلّك تشعرين ببعض ما شعرت أنا به عندما يختفي من حياتك شخصٌ أحببْتِه بصدق مخلّفًا وراءه آلافًا من الآمال المحطّمة والأسئلة المفترسة، وجملةً من الأحلام التي تنقلب إلى كوابيس تنهش منامك كلّ ليلة!؟

كانت يدُه تضغط على كتفي بقوّة، وكأنّ الكلمات التي ذبحني بها لم تعبّر بعْدُ عن البركان الذي يتفجرُ بداخله.

وأنهى كلامه قائلًا:

- ولعلّك حينها تشعرين بمعنى الفقد.

كنتُ لحظتِها بين يديه القويّتين أرتعشُ من البرد، ومن الأحاسيس المضطربة بداخلي، كعصفور مذبوحٍ يحتضر خابتْ كلّ محاولاته في المقاومة، وفرَدَ جناحيه.

كنتُ أنظر في عينيه مباشرة، وقد ملأتها دمعةُ كبرياء شاهقة أبتِ النّزول، أو الأحْرى منعها من النّزول.

ظلّ يتأمّلني في صمت، ونظراتُه العاشقة المجروحة لا أفهمها.. بدت لي وكأنها تعانقني بكلّ قسوة رغمًا عنه، وشعرتُ للحظةٍ أنّه يتمزّق.. بين أن يتركني ويرحل، وبين أن يحضنني بعنفِ سنوات الفقدِ قائلًا "أخيرًا وجدتك يا حبيبتي".. وكانت أصابعُ يديه المغْروستين في حدودِ كتفي تارة يؤلمني ضغطها، وتارة ترتخيان في دفء وضغط خفيف.. فتصعقني أحاسيس شوقه.

لكنّه....

تركني واستدار عائدًا إلى داخل المطعم بكلّ هدوء باحثًا عن روزالي.

لقد استفاق ذاك البرجُ الأسديّ بداخله ليثأر لكرامته، ويستعيد شموخَه وكبرياءه... ليظهر رجلًا جديدًا يبدو أنّه قد تعوّد على سنوات الفقد، وحفظ طقوسه عن ظهر قلب.

.. بقيتُ وحيدة مزروعة مكاني لا أستوعب تسارعَ الأحداث وتناقض المشاعر والمواقف مع آدم. لقد قرّر أن يسقيني من نفس كأس الحنظل التي ارتوى منها.

عصفتْ بشَعْري رياح قوية وبعثرته، وعصفت بداخلي ثورةٌ يصعب ترجمتها إلى كلمات.

***

عندما دخلت المطعم اعترضني فيليب، وفُجع لرؤيتي بتلك الطّريقة المنهارة، وسيول الدّموع قد روتْ رقبتي.

وقبل أنْ ينطق بكلمة أخبرته أنّ المغصَ قد اشتدّ، ويجب أنْ أعود إلى المنزل حالًا، اصطحبني مباشرة حيث معطفي وحقيبة يدي، وبعد أنِ استلمتهما خرجنا إلى السيارة، كتب فيليب رسالة إلى روزالي بأنّه سيوصلني إلى المنزل، ثمّ يعود إليهم، سألني إن كنت أريد الذّهاب إلى المستشفى، ولكنّي رفضت وأخبرتُه بأنّني ممرّضة كما يعلم، ويمكنني تدبّر الأمر.

وصلتُ إلى البيت ودخلت الغرفة، ارْتميت على السرير مجدّدًا، وكلّ إحساس بداخلي يسقط منفردًا متكسّرًا، تلامس شظاياه تفتّت الإحساس الآخر.

ومِن جديد..

يبدو أنّ الخيارات العاطفية أمامي دائمًا ما كانت محدودة.. إمّا "الفقد" أو "اللّا حبّ".

بدأتُ على الفور بجمْع حقائبي للرّحيل، فقد كان عقدُ عملي مع الشّركة بخصوص هذا المنزل مدّته شهران، والليلة تنتهي هذه المدّة، كنت أنوي البقاء ليوم أو يومين إضافيّين، حتّى تعود ممرضة السّيدة كاترين من بلدها، ولكنّني لم أعدْ أحتمل البقاء لحظةً واحدة هناك.

فقدْ يذلّنا الحبّ، ويجعلُنا نركع ونقدّم فرائضَ العشق والولاء إليه بشتّى الطرق، ولكن أن يجرح كرامتنا ويكسر كبرياءنا ويطلبهما قرباناً لنيْل رضائه؛ هنا فقط قد نكفرُ به حتّى لحظات الموت.

وضعتُ هديّته التي لمحتها على طرف الطّاولة في حقيبتي، والتي لم تسمح لي الفرصة لفتحها بعد، ثمّ كتبت رسالةً إلى السيدة كاترين التي كانت تغطّ في نوم عميق وضعتها إلى جانبها، وطلبت سيارة أجرة بالهاتف، ورحلت.

بالرّغم من أنّني التزمت بعملي مع السّيدة كاترين حسب بنود العقد لمدّة شهرين كاملين، إلّا أن مغادرتي بتلك الطّريقة لا بدّ من أنّها قد تركت جملةً من التّساؤلات خلفي.

عندما وصلت إلى المنزل لم تكنْ صديقتي بينار هناك، شعرتُ برغبة كبيرة في الكتابة، أخذت دفتر خواطري، وكتبت:

"وقفتْ عند الشرفة بفستانها الحريريّ الأسود الطّويل ترتشف فنجانَ قهوة ساخن، تتأمّل تساقط الثّلوج ببطءٍ كحبّات لؤلؤ تراقص الهواءَ المنعش في نزولها، وتكسو الأشجار ببياضها.

تأمّلت بهدوءٍ روعةَ المنظر بعينين حزينتين، ثمّ استنشقت رائحة الطّبيعة بعمقٍ لامَسَ أوجاع قلبها، وفجأةً اغتال طيفه ذاكرتها، واجتاح هدوءَ خلوتها، وتسلّلت من عينيها دمعةٌ حارقة رسمت في طريقها خطوط النّهاية على وجنتيها.

شعرتْ بقشعريرةِ بردٍ تسري بين أوصالها، وفكّرت...

إنّها لم تعدْ تبتسمُ حين تتذكّره"

***

بعدَ أسبوعين، استقلّت من الشّركة الخاصّة، وانتقلت للعمل في مركزٍ لرعاية المسنّين بـ"هامبورغ".

بعد أنْ أنهيتُ سردَ قصّتي على مسامع السّيدة "إيفات" بمركز رعاية المسنّين، انفجرت باكية في أحضانها كطفلٍ صغير كان يضيع طريقه كلّما اعتقد للحظةٍ أنّه وصل إلى العنوان الصحيح.

ربّتت على كتفي، ضمّتني إليها بدفء وطبعتْ قُبلةً أعلى جبيني قائلة:

- في الواقع لا أدري إنْ كانت قصّتكما هذه نهاية بداية، أو بداية نهاية!؟ لكنْ أخبريني يا أمل.. ماذا قدّم لكِ آدم كهديةٍ لرأس السّنة الجديدة، وبمناسبة لقائكما، بما أنّه كان يعلم آنذاك بأنك حبيبتُه أناييس؟

مسحتُ دموعي محاولةً أن أتحدّى انهياري أمام الذّكريات الموجعة وقلت:

– لقدْ أهداني هذا الدفتر، بهذا الغلاف الأسود القاتم، وهذه الزّهرة المتألقة التي تتوسطه في شموخ وكبرياء.. مكتوب عليه بالأبيض النّاصع "أنابيس".

وداخل هذا الدّفتر إهداءٌ كتبَ عليه بإمضائه.. "اذْكريني، ويوم يشتّد بك الشّوق اكتبيني".

***

الفصلُ العاشر

أمل



بعد أنِ استفاقت أمل، واستعادت وعيَها وتركيزها، وتحديدًا في المساء، حضر إلى غرفتها الدكتور ماهر طبيبُها النفسي، بصحبة ملفّها الطبّي لبدْء أولى جلسات العلاج.

كانت أمل ممدّدةً على السّرير شاحبةَ الوجه، لا تشعر بأوجاع جسدها وكدماتِه، بقدر ما تشعر بوجَعِ روحها التي أعْدمت بداخلها في الغربة، ظلّت تنظر إليه صامتة، وقد أمطرتَ عيناها بغزارة، شعرت بحزن دفين يجتاحها.. يسكنها؛ بل يستعمرُها رغمًا عنها.. حزن يبني له عدّة طوابق بداخلها، ويتجوّل ما بين الذكريات والذّاكرة؛ ذكريات مدفونة يبكيها ويرثيها، وذاكرة متمرّدة تستحضر التفاصيل وتحييها.

شعرت بحقدٍ لم تعهدْه قط في نفسها، ورغبةٍ جامحة استحكمتها للانتقام.

طلبَ منها الدكتور ماهر أنْ تستنشق نفسًا عميقًا، وتحاول الاسترخاء قدرَ المستطاع، وأن تتحدث مع نفسها بصوتٍ مسموع، عن أيّ شيء يقلقها أو أيّ أفكار تراودها، لكنّ أمل بقيت صامتة جامدة بكْماء، لا تنطق منها غيرُ الدّموع المنهمرة التي تصبّ في مضيق صدرها، ذلك المضيق الذي يصلُ سيلان دموعها الحارقة بنزيف دمائها المؤلمة.

بقيت على تلك الحالة إلى أن فاجأها بسؤاله:

– هل تفكّرين في الانتقام منه؟

حينها أجابته بكلّ برود:

– نعم، وسأفعل ذلك.

واصلَ يسألها في هدوء محاولًا استدراجها للكلام:

- لماذا؟

نظرتْ إليه محتقرةً سؤاله الغبي، لكنّه تدارك تلك النّظرة، وأضاف:

- أقصد أنّ القانون سيعاقبُه على فعلته، فلماذا تريدينَ الانتقام والزّج بنفسك في المشاكل؟

أجابته بجمودٍ قاسٍ:

- يبدو أنّك غيرُ مطّلع على الأحداث، لقد هربَ بفعلته وهو لنْ يعود، ولن يسلّم نفسه للعدالة أبدًا.

- في هذه الحالة، سيظلّ مطاردًا ومفتشًا عنه داخل جميع دول الاتحاد الأوروبي إلى أنْ يتمّ القبض عليه.

سألته في استهزاء:

- ماذا لو كان قد غادرَ التراب الأوروبي إلى الأبد؟

ظلّ ينظر إليها صامتًا وحائرًا، واصلت بنبرة متحدّية:

- أنا مَن سينتقم منه، سأنتقمُ لنفسي أوّلًا، ثمّ لروح ابنتي، وأخيرًا لكلّ النساء.

اتّسعت عيناه فجأة في استغراب وهو يسأل:

- لم أستوعبْ دوافعَ الانتقام خاصّة لكلّ النساء.

– لقد آذاني كثيرًا نفسيًّا وجسديًّا، اعتدى عليّ بالعنف دون وجْه حقّ، حتى أفقدني ابنتي، لقد قتل ابنته.. في الواقع عندما قال له الطبيب البقاءُ لله؛ اعتقد أنّني أنا مَن متّ لذلك اختفى حتى لا يقبض عليه، وبالنسبة إلى كأنّه قد قتلني فعلًا ثمّ فرّ هاربًا، لقد تركني ميتةً بالفعل، إنه لم يتحمّل حتى عناء حضورِ مراسم دفني وتوديعي! هل تستوعب هذا؟

هذه الأسئلة: ماذا سيفعل من بعدي لو متّ؟ كيف سيقاوم مصيبة فقدي؟ إلى متى سيظلّ مخلصًا وفيًّا لذكريات حبّنا؟ هل سيزور قبري ويذرفُ الدّمع على فراقي؟ هل سيناجيني في وحدة ليله ويخبرني عن عمق الفراغ الذي تركتُه؟

لطالما أقضّت هذه التّساؤلات مضجع الأزواج والزوجات، ومعشر العاشقين والمتيّمين؛ بحثًا عن أجوبةٍ لها، لكن الأجوبة ظلّت دائمًا معلّقة.

أمّا أنا، فها قد سقطتِ الأجوبة أمامي.. لأعيش فجيعةَ الخيبة وأنا ميتة على قيد الحياة.

كما أنّني قد عشتُ معه ليالي حزينة ومؤلمة جدًّا.. ليالٍ كانت غرفةُ النوم فيها بمثابة عذاب القبر بالنّسبة لي عندما اكتشفت خياناته، لذا سأهدي انتقامي منه إلى كلّ زوجةٍ مظلومة ومخدوعة.

قرأتُ نظرات الغضب والشفقة في عينيه وهو يقول:

– هل تحتاجين مساعدتي؟

نظرت إليه بعينين مندهشتيْن، فهي لم تتوقّع منه هذا العرض الغريب، لاحظَ الدكتور ماهر حيرتها فواصلَ موضّحًا:

- سأساعدك على الانتقام منه، ولكنْ في الحدود التي يسمح بها القانون، هل أنتِ موافقة؟

أجابته بالإيجاب، ابتسمَ وكأنّه قد تخطّى أوّلَ حاجز نفسي بينه وبينها، ثمّ واصل:

- لنبدأ الآن جلستنا، أو بالأحرى صداقتنا، أريد أنْ أعرف قصّتك.. أفكارك.. أحزانك حتى لحظة حضورك إلى هنا.

ثمّ قام بعدها بتشغيلِ جهاز تسجيل صوتيّ لجلسة العلاج.

***

شعرتْ أمل بالارتياح للدكتور ماهر؛ بل بذكائه.. لقد استطاع أن يكسب ثقتها في زمن قياسي، وبدأت تسرد عليه قصّتها باختصار، كانت بداخلها تحتاجُ إلى صديق يدعمها، يستمع إليها تمامًا كما فعلت السيدة إيفات ذاتَ يوم وأصغتْ إليها، لكنّها رحلت تاركةً إياها غارقة في حزنها، كم اشتاقت إليها.. إنّها تفتقدها كافتقادها لحضنِ والدتها، وخاصّة في هذه اللحظات القاسية، لقد كانت تشعر بحزنها وألمها دون أنْ تنبس بحرف، حيث كان حنانُ والدتها يستوعب كلّ الجراح التي تعتمل بداخلها.

وتعدّدت الجلسات حتّى أصبح كلّ منهما ينتظرُ جلسة العلاج النفسي بفارغ الصبر، وبدأت أمل بالتّفكير في خطوات عملية الانتقام، وأوّلها هي الحصول على حريتها، وجعل هذا الزوج ينعت بطليق أو مخلوع، وأنْ تعيده غريبًا في حياتها كما كان في الماضي لا صفةَ له تربطه بها.

أخبرتْ أمل الدكتور ماهر برغبتِها في الطّلاق من آدم رسميًّا، فاتّصل على الفور بصديقه المحامي الأستاذ نديم، وأوضح له الأمر، ثمّ جهّز له نسخة من ملفّ أمل الطبي، وقام المحامي برفع قضية استعجاليّة لطلاق أمل غيابيًّا للضّرر الذي ألحقه بها زوجها الهارب.

وألحَقَ بملفّ القضية نسخة من المحضر الرسمي للشرطة الذي وثّقت فيه حيثيات واقعة الاعتداء بالعنف، ونسخة من بطاقة بحثٍ وتفتيش في حقّ الزّوج المختفي.

***



الفصلُ الحادي عشر

بينار



بعد انتهائه من قراءة رواية "أناييس"، كان الدكتور ماهر قد ألمّ حينها بجملة الذكريات التي جمعت أمل وآدم من بدايتها حتّى ليلة رأس السنة، حيث قرّرت الانسحاب من حياته والاختفاء ثانية، بينما بقيت الفترةُ التي تلت ذلك- وحتّى زواجهما ودخولها المستشفى- غامضة.

وبما أنّ أمل كانت متحفّظة في إجاباتها عن أسئلته العديدة، وأحيانًا غير مكترثة للتفاصيل والذّكريات، رغم محاولاته لجعْلها تتقبّل تلك الذكريات كما هي، وأن تعتبرها فترةً زمنية قد ولّت وانتهت، أو تجربةً عليها أنْ تستخلص منها العبر، وتتجاوزها بحلوها ومرّها- دون أنْ تحاول الهروب منها بالصمت- إلّا أنها كانت مصرّة على الغموضِ والعزلة والدموع.

لقد تسّببت صدمتها في آدم بترك فراغ كبير في شبكتها الأمنية والعاطفية على حدّ السّواء، الفراغ الأكثر سحقًا، والأمان العاطفي الأكثر قلقًا وخطرًا.

لذلك لم يجدْ غير صديقتها "بينار" التي دعاها إلى مكتبه لتجاذب أطرافِ الحديث، وفهم ذلك الغموض والتحوّل في شخصية آدم وأمل.

وصلتْ بينار المستشفى، وفضّلت المرور مباشرةً إلى مكتب الدكتور ماهر للحديث معه قبل أن تصعدَ إلى غرفة أمل للاطمئنان عليها، وهناك كانَ في انتظارها بفارغ الصبر يملؤه الفضولُ باحثًا عن إجابات لتساؤلاته.. إجابات تزيح غشاوةَ الغموض التي لفّت بها أمل نفسها.

لقد ظلّت الأسئلة الهامّة تدور حول أمل في حلقةٍ مفرغة، في الوقت الذي كان هو ينتظر أن تلبس الإجابات الصريحة حذاءها في تمرّد، وتخرج منها في كبرياء وشموخ.

كان الدكتور ماهر يجلس وراء مكتبه وسط ملفّ أمل، وحاسوبه المفتوح أمامه عندما سألته بينار عن حالةِ صديقتها في قلق.

أجابها الدكتور ماهر في تحفّظ:

– السيدة أمل ترفض التّعاون والإفصاحَ الجدّي عن دواخلها، تفضّل الصمت وتعبّر بالدموع.

قاطعته بينار:

– هكذا هي دائمًا، غامضة ومتأمّلة، لا تفصح عن دواخلها بسهولة، لقد تقاسمنا غرفةً واحدة لمدّة ثلاثِ سنوات فترة التّكوين الدراسي، ومع ذلك لم أعرف شيئًا عن ماضيها حينها..

كتب بعض الكلمات على الورقة أمامه، وأضاف:

– أعلمُ هذا.. لقد قرأت ذلك في روايتها، وقد تعرّفت على جزءٍ مهمّ من شخصيتها من خلالها، في الواقع لقد كانت كتاباتُها تلقائيّة جدًّا، وتعتبر همزةَ الوصل الوحيدة بيني وبين شخصيتها الحقيقة التي تحاول إخفاءها.

سألت بينار في حيرة:

– إخفاءها!؟

– نعم إخفاءها، السيدة أمل تعيش صدمةً أو خيبةً عاطفية قويّة في ذلك الشخص الذي أحبّته بجنون، وظلّت مخلصة لعشقه سنوات عديدة. لكن للأسف هي لم تكملْ كتابة روايتها وتوقّفت عند اختفائها ثانية من حياته ليلة رأس السنة، واليوم بعد مرور سنة وأكثر، تدخل المستشفى وهي زوجته وقد فقدت ابنتها بسبب اعتدائه عليها.

– أريد معرفة أهمّ التّطورات التي حدثت بينهما حتّى وصلت إلى هنا من فضلك.

استرختْ بينار في مقعدها كأنّ الحديث سوف يطول، واسترجاع ذكريات صديقتها سوف يرهقها، وبدأت تسردُ عليه الأحداث:

– لقد كانت حياة أمل في تلك الفترة كعرضٍ سينمائي مليء بالحركة والإثارة، عرض لعبت فيه دور البطولة أيامًا عديدةً، ودورَ الضّحية ليالي طويلة، حرب ضروس تداخل فيها ماضيها مع حاضرها ليترك بداخلها بصمةً أعتقد أنها لن تنسى.

صمتتْ للحظة ثمّ واصلت:

– كانت أمل آنذاك تعمل في مركز العناية بالمسنّين بهامبورغ، وكانت قريبة جدًّا من السيدة "إيفات"، تلك السيدة التي أحبّتها من كلّ قلبها، واستأنست لقربها، واعتنت بها بطريقة خاصة ومميّزة، واستأمنتها على أسرار عشقها لآدم.. تلك السيدة المسنّة التي ألحّت على أمل بشدة أن تسردَ عليها قصّة وجعها بأمانة، ووعدتها يومها بأنّها لن تخذلها.. وهي بالفعل لم تخذلها؛

فالسيدة إيفات لم تبخلْ على أمل بأيّ شيء؛ فهي لم تنصحْها وتدعمها معنويًّا فقط.. بل إنّها قد عرضت عليها جزءًا من ثروتها كهدية بنيّة خالصة، واعتبرتها ابنتها التي لم ترزقْ بها إذْ لم يكن لديها سوى ابنٍ وحيد يعيش في أمريكا وهو لا يحتاج إلى أموالها.

وأمامَ إصرار السيدة إيفات، ورفض أمل لتلك الهدية، وصلا إلى اتّفاق شَراكة يرضي الطرفين، حيث أقنعتها السيدة إيفات أن تتخلّص من عقدة الشّعور بالذنب إزاء المسنين، وأن تتخلّى عن فكرة أنّ لعنتهم تحاصرها في عشقها لآدم، وتحول دونَ ارتباطهما، وطلبت منها أن تستقيل من مركز العناية بالمسنّين لتدخل عالمَ الأعمال من أوسع أبوابه، وتبدأ العمل في اختصاصها الدراسي الجامعي، وهو إدارة الأعمال الدولية والتسويق.

وحتّى تتمكّن من انتزاع موافقة أمل أخبرتها أنّ نسبة من الأرباح يمكنها التبرّع بها كلّ سنة إلى مراكز ودور المسنّين كمساعدة، وبعد وفاة السيدة إيفات عليها مواصلة القيام بذلك العمل الخيري كصدقةٍ جارية على روحها؛ لذلك عليها العمل على إنجاح الشركة.

***

سعدت أمل بهذا العرض حينها، ووجدته عادلًا، لعلّه كان فرصة لا يجود بها القدر إلّا نادرًا، وضربةَ حظّ من الصعب- بل من المستحيل- أن تتكرّر، وهي فرصة عليها اقتناصُها وإثباتُ وجودها في هذا العالم الجديد، وقرّرت أن لا تخذل السيدة إيفات.

اعتدلت بينار في جلستها وكأنّها تعلن عن دخول مرحلةٍ جديدة في حياة أمل العملية والعاطفية، وواصلت:

– مرّت أشهر من الاجتهاد والعمل المتواصل الدّءوب أصبحت فيها لأمل شركةُ استيراد وتصدير، وأخرى للخدمات، ولعبت علاقاتُ السيدة إيفات دورًا كبيرًا في إنجاحهما، وفي فتح أبواب لم يخطرْ ببال أمل أنّها قد تُفتح أمامها يومًا.

اقتنتْ خلالها السيدة إيفات فيلّا صغيرة ساحرة، أقامت فيها مع أمل، وهي تحديدًا الفيلا التي يقيمان فيها أمل وآدم حاليًا. أمّا "دانيال" ابن السيدة إيفات فلم يبْدِ أيّ اعتراض أو امتعاض من قراراتِ والدته، بل باركها وظلّ يدْعمها كلّما احتاجت إلى مشورته أو مساعدته في البداية، وأخبرها أنّه ممتنّ جدًّا لأنّها قد أسعدت والدته في كبرها، وكانت لها بمثابة الابنة التي تمنّتها وحُرمتْ منها طوال حياتها.

قاطعها الدكتور ماهر متسائلًا:

– وماذا عن آدم في خضمّ هذه التّطورات؟

انتبهت بينار أنها لم تذكرْ آدم فتداركت:

– بعد كتابة أمل لقصّتها وسردها على مسامع السيدة إيفات، لم تفكّر في طبعها أو نشرها؛ بل ظلّت تحتفظ بها كذكرى دوّنتها ودسّتها بين طيّات أوجاعها، كانت تعلم بداخلها حينها ولسببٍ ما كان مجهولًا لديها أنّ القدر مازال متواطئًا معها، وضدّها في نفس الوقت، وأنه لا يزال يخبئ لها الكثير من المفاجآت في جملة أقداره.

وفي الواقع لم يتباطأ القدرُ كثيرًا يومها، وبدأ يشكّل خيوط حياتها من جديد، ليقلبها رأسًا على عقب في جدليّة عشقية انتقامية بين الحبّ والخيانة.

اتّسعت عينا الدكتور ماهر دهشةً واستغرابًا، وهو ينصت لبينار بكلّ تركيز وانتباه، ويخطّ ملاحظاته على الورقة أمامه باستمرار في حين واصلت بينار حديثها.

بعد اختفائها عن آدم للمرّة الثانية ليلة رأس السنة، وبعدَ اعترافها للسيدة إيفات بحبّها لآدم بأسبوعين تقريبًا.. استفاقت أمل في أحدِ الصّباحات الجميلة على مكالمةٍ من خطّ مجهول، وعندما أجابت جاءها صوتُ آدم على الطّرف الآخر، وساد بينهما صمت طويل.

أخبرتني بعدها أنّ تلك اللحظات كانت قاسية جدًّا بالنسبة لها، وكانت دموعها تنهمر في صمتٍ، إلى أن بدأ آدم بالحديث، وأخبرها أنّ "روزالي" ليلة رأس السنة قد لاحظتِ ارتباكه، وأحسّت بمشاعرَ آدم اتجاه أمل، وباهتمامه الكبير بها، فاضطرّ إلى مصارحتها بالحقيقة، وإخبارها أنّ أمل هي نفسها أنايِيس الفتاةُ التي أحبها بجنون منذ سنوات واختفتْ فجأة، تاركةً بداخله لغزًا قاتلًا، وأنّه كان يشعر بأنّها هي كلّما تكلّمت أمامه- إذ كان يتقنُ اللغة الألمانية، ولم يفصح بذلك لأحد- وبأنّ قلبه قد عادَ ينبض من جديد، ولكنّ كبرياءه منعه من أن يغفر لها بسهولة.

حينها تشاجرتْ معه روزالي داخلَ المطعم، واتّهمته بأنّه قد استغلها لإثارة غيرة أمل، واستدراجها للتعريف بشخصيتها أمامه، وبأنّه خان مشاعرها وتلاعب بها،

لم يقبلْ آدم اتهاماتها لأنّه لم يقصد جرحَ مشاعرها، لكنّ الأمر كان أصعبَ من أنْ يشرحه لها، أو أن تتفهّمه، وغادر آدم إلى باريس مباشرةً في تلك الليلة بعد أنْ وجدوا رسالة أمل، ولاحظوا اختفاءها.

تنهّدت بينار بألم، وابتلعت ريقها بصعوبة، ثمّ واصلت:

– أراد آدم نسيانَ أمل، وطيّ صفحة الماضي، والبدء من جديد، لكنّه لم يستطع، فقد ظلّ طيفها يلاحقُه، وقلبه مشتاقٌ إليها في كلّ لحظة، فاتّصل بالسيدة كاترين والدة روزالي، وشرح لها الوضع، وكانت السيدة كاترين تحبّ أمل كثيرًا، وأسعدها أنّ آدم يبحث عن رقم أمل، فحاولت مساعدته لإسعادها، وأمدّته برقمها الشّخصي ورقم الشَّركة التي كانت تعمل بها آنذاك.

انتهى ذلك الاتّصال بينهما على أن يتحدّثا لاحقًا بعد أن تنتهي أمل من عملها.

***

في الواقع، تردّدت أمل كثيرًا في العودة إلى آدم بعد أنْ عذّبتها هذه القصّة كثيرًا، وطلبت منه أن لا يبحثَ عنها مجدّدًا، وكانت تحاولُ ملء كلّ فراغاتها في العمل والكتابة، وانتقلتُ أنا للعمل معها في شركة الخدمات والتّسويق، بينما كانت هي مديرة شركة الاستيراد والتصدير.

كانت أمل تضعف بين الفترةِ والأخرى، وتشتاق إليه، وكثيرًا ما تفكّر في الاتّصال به، وإخباره أنها لا تقوى على العيش بدونه، ولكنّها تحاول دائمًا

تجاوز تلك اللّحظات بالسفر والتسوّق، حتّى تهدأ روحُها قليلًا، وتعود إلى استقرارها المؤقت.

بينما في الأثناء لم يكفّ آدم عن الاتّصال بها، ومحاولة التقرّب منها مجددًا.

***

توقّفت بينار عن الحديث فجأة، ودمعت عيناها، وكأنّ ما سيأتي من أحداث قد آلمها مُسبقًا قبل سردِه، لاحظَ الدكتور ماهر توتّرَها، ولكنّه تعمّد الصمت حتى لا يقطع حبلَ أفكارها، فواصلت:

– باختصار، مرّت أشهر زاخرة بالعمل والنّجاحات كلّ يوم من الصّباح الباكر، وحتّى آخر المساء، وحين يسدل الليل ستائره، وتختلي أمل بنفسها؛ كانت تحنّ إلى آدم، ذلك الرجل الذي سلبها قلبها، وتركها ذاتَ يوم جسدًا بلا روح، يوم حضن كبرياءه وشموخَه ثائرًا لرجولته، وأفلت قلبها من بين يديه بلا شفقة ولا رحمة، كانت تفشلُ في مجرّد التفكير برجلٍ آخر غيره، وترفض فتحَ أبواب قلبها أمام الزائرين والرّاغبين والمتوسلين.

انتهتْ تلك الأشهر بمرض السيدة إيفات ووفاتها، وكان وقْعُ تلك الحادثة في نفس أمل مؤلمًا جدًّا، وطعمُ الحزن بداخلها مريرًا لا يُحتمل، فهي لم تفقدْ فقط شريكة تدعمها وأمًّا روحية تحنو عليها في غربتها؛ بل فقدتْ صديقة شدّت أزرها، وعلّمتها الوقوف في وجه الصّعاب، صقلت شخصيتها وثبّتت الأرضية التي تقف عليها لتشعرها بمعنى الأمان والاستقرار في بلدٍ غريب.

كما قالت أمل حينها.. "بلدُ لم تهديني لياليه سوى مزيدٍ من الغربة مع الآخر، والاغتراب مع الذات"، لم تستفقْ أمل من تلك الصّدمة المدوّية حتّى تلقّت خبر وفاة والدها لينهار بذلك كلّ ركنٍ من أركانها النفسية، وكلّ إحساس بالأمان؛ لتجد نفسها تصارع الصّدمة والاكتئاب.

حجزتْ أوّل طائرة عائدة إلى أرض الوطن لتوديع جثمان والدها، كان السّواد يلفّها من كلّ جانب، ولم يترك لأيّ لونٍ أو بصيص ضوء فرصة اختراقها آنذاك.

انتهتْ مراسم الدفن، وبعد أيّام هدأت الأصواتُ الخارجية النّاحبة، بينما ظلّت الروح تئنّ حزنًا وفقدًا. فوجئت أمل بدخول آدم إلى منزلهم، وتقديم تعازيه في وفاة والدها، ثمّ طلب يدها من أخيها ووالدتها، ما حدث هو أنّ عائلة أمل قد استنكرتْ جرأته ووقاحته، وطلبه للزواج منها في تلك الظّروف الصعبة، ولكنّ المفاجأة صعقتِ الجميع عندما وافقت أمل على طلبه دون تفكير.. دون تردّد.. دون أن تسأله.. دون أن تعاتبه.. ودون مناقشةِ أية تفاصيل.

تزوّجت منه في وقتٍ قياسيّ بقرار مجنونٍ لا يقبله عقل، ولا يستوعبه منطق، لقد كان قرارًا استثنائيًّا تحت تأثير بنج الفقد، حيث سافرت إلى وطنها لتحضرَ جنازة والدها فعادت منه عروسًا بثوبِ زفاف أسود، وهو نفس الثوب الذي كانت ترتديه يوم اعتدى عليها بالعنف، وأفقدها ابنتها، وفرّ هاربًا.

انْهمرت دموع بينار بغزارةٍ وتنشقت وهي تضيف:

– لقد صدق آدم يومَ قال لها "ستكونين أجمل عروس مميّزة بفستانك الأسود عوضًا عن الأبيض، فكلّ فتيات العالم هنّ القاعدة، وأنت فقط يا روحي ستكونين دائمًا الاستثناء".

لقد كانت بالفعلِ استثناءً في كلّ شيء؛ في الحزن، والعذاب، ومرارة الغربة، حتى العشق الذي ابتليت به صديقتي الحميميّة كان استثناء.

في تلك اللحظة، تراجع الدكتور ماهر بكرسيّه قليلًا إلى الوراء متّكئًا بمرفقيه على فخذيه، غاص لحظةً بوجهه بين كتفيه، ثمّ مرّر أصابعه على شعرِه بتوتّر عدّة مرّات، وكأنّه يصطنع ترتيبه أو لعلّه يحاول طردَ بعض الأفكار الغريبة عن رأسه،

بينما انهمكتْ بينار في مسح دموعها ببعض المناديل التي ناولها إيّاها الدكتور ماهر، وحين سألها عنْ حياة أمل وآدم الزّوجية؛ اتّكأت بمرفقها الأيمن على حافّة المكتب، وضغطت بأصابع يدها على جبينها، وكأنّها تحاول تهدئة صداعٍ قد صفعها فجأة، وواصلت:

– كانت ببساطةٍ علاقةً زوجية استثنائية، لم أستطع فكّ رموزها إلى هذه اللحظة، انتقل آدم إلى العيش هنا في ألمانيا، واهتمّ بحسابات الشركات، وكانت حياتهما في البداية رومانسية حالمة أجمل من ألف ليلة وليلة. كنت أحسدُهما على ذلك الجنون العشقي، كانا كطائرين يحلقان خارج السّرب، أمل جميلةٌ جدًّا، وآدم جذّاب للغاية، كانا يشكّلان ثنائيًّا ساحرًا يجلب الأنظار أيْنما تواجدَا.

***

لاحظتْ بينار علاماتِ انقباض خفيفة على ملامح وجْه الدكتور ماهر، سريعًا ما اختفت بعد أن أحكمَ السّيطرة على انفعالاته بسرعة، ثمّ تابعت:

– بعدها بدأ آدم يتغيّر، وقامت أمل بالتّعاقد مع شركة تحرّيات خاصّة لمراقبته، واكتشفت سلسلة خياناته التي لا مبرّر لها! تألّمت كثيرًا، وكادت تنهي ذلك الزّواج بعد أنِ انتقمت منه، وأدخلته في دوّامة من الشّك والغيرة لتذيقه نفسَ الألم الذي كانت تتجرّعه كلّ ليلة، وتزامنت تلك الأحداث مع اكتشاف أمل لحمْلها بابنتها التي قرّرت تسميتها "أناييس"، لتكون هي طوقَ النّجاة لعلاقتهما والفرصةَ الأخيرة التي ستهديها له أناييس بكلّ ما لذلك الاسم من معاني العشق الكافر على حدّ تعبيرها، ولكنّها اكتشفتْ تماديه، وأصرّت على الطّلاق ليتركها ويعود تلك الليلة إلى المنزل، لينتهي بها الحال هنا داخلَ المستشفى بفقدان ابنتها ودخولها في تلك الحالة.

***

في تلك اللّحظة قطع الدكتور ماهر حديثَ بينار، كان يشعر برغبةٍ جامحة في الانفراد بنفسه.. لا يعلمُ بالضّبط ما الذي أصابه!كلّ ما يريده هو أنْ يكون لوحده ويرتّب أفكاره.

اكتفى بما سمعه منها، وسمح لها بزيارة أمل للاطمئنان عليها، بينما غادر هو مكتبه والمستشفى على الفوْر يبحث عن مكانٍ هادئ سيستجمع فيه ما تشتّت منه.



الفصلُ الثّاني عشر

أمل



كانت أمل مستلقيةً على فراشها تراقب السّماء من نافذة غرفة المستشفى، التي تتقاسمها مع فتاة تركيّة في أواسط العشرينيّات، عندما دخلت صديقتُها بينار، وعانقتها بشدّة وهي تسألها:

– كيف حالك يا حبيبتي؟

نظرتْ إليها أمل بابتسامة هادئة:

– أنا بخير يا صديقتي، لا تقلقي.

– بل أنا خائفة عليك يا أمل؛ فهدوؤك غير طبيعي.

ابتسمتْ وهي تجيب:

– تقصدين هدوءًا يسبق العاصفة؟ أنا بخير،

ضحكتْ بينار ثمّ سألتها:

– حسنًا، أخبريني كيف أمضيتِ وقتك قبل مجيئي؟

تصنّعت أمل الجديّة وهي تجيب مازحة:

– لقد أمضيتُ عطلة نهاية الأسبوع في "بالي"، فأنا أعشق الانصهار في شراسة الطبيعة هناك كما تعلمين.

انفجرتْ بينار ضاحكة، بينما واصلت أمل:

– ماذا عساي أفعلُ وأنا في هذه الحالة!؟ لقد تحدّثت إلى والدتي ومع المحامي، والدتي تصرّ على المجيء إلى ألمانيا، ولكنّني طمأنتها وأخبرتُها أنّني بخير، وأنّني سأسافر إليها في أقرب فرصة.

وأنتِ أخبريني كيف تسير أمورُ الشّركة؟ وما الجديد لديك؟

– العملُ يسير بشكل جيد، والعاملون معنا أخبرتُهم أنّك مسافرة، بالمناسبة مررتُ على الدكتور ماهر، وسألني عن بعض الأمور، كان قلقًا بشأنك، يُريد مساعدتك، ولكنّك لا تتجاوبين معه.

– بالعكس، إنّه دكتور ذكي، وناجح، ويستحقّ التّقدير، لقد استطاع في وقت قياسيّ أن يكسب ثقتي نسبيًّا، وأعتبره صديقًا محترمًا، ولكنّ المشكلة هي أنّه يحاول التطرّق دائمًا للحديث عن آدم.. بينما لا أرغب أنا في الحديث عنه، وأتفادى ذلك، وأحيانًا أجيبه باقتضاب.

ارتبكتْ بينار بعضَ الشّيء، وفكّرت في ردّة فعل أمل عندما تعلم بما أخبرت به الدكتور ماهر وعنِ الرّواية، لا بدّ أنّها ستؤنّبها على ذلك، وتنفجر في وجهها غاضبة، لكنّها استجمعت شجاعتَها، وأخبرتها:

– عندما أصبتِ بانهيارٍ عصبي حادّ، ودخلتِ العناية المركزة خفتُ كثيرًا، واضطررت إلى إعطاء روايتك للدكتور ماهر ليقرأها حتّى يفهم طبيعةَ علاقتك بآدم، وما تشعرين به في تلك اللحظات؛ كي يستطيع مساعدتك، وطلب منّي أن لا أخبرك بالأمر حتّى يأتي الوقتُ المناسب، وأعتقد أن الوقتَ صار مناسبًا الآن؛ فأخبرتُك.

سكتتْ فجأة منتظرةً ردّةَ فعل أمل باحتراس، لكنّ أمل ابتسمت، ولمعت عيناها التي انطفأت شعلتُها منذُ مدّة، وأجابت:

– حسنًا، أنا أتفهّم أسبابَك وخوفَكِ عليّ يا بينار، وبما أنّه كاتب روائي كما أخبرتني فالأمر أصبحَ مختلفًا بالنسبة لي، على الأقلّ مشاعري المكتوبة

وقعت بين أيادٍ أمينة، لكنْ لا تخبريه أنني أعلمُ بذلك لنرى كيف سيتعامل مع ما قرأه.

وأنهت كلامَها بابتسامةٍ خبيثةٍ انفجرت بعدَها بينار ضاحكة:

– يا إلهي! ردودُ فعلك الهادئة هذه تُخيفني، لقد توقّعت منك أنْ تقيمي الدّنيا ولا تقعديها.. أخشى أنّك تكتمينَ وجعك خلف هذا الهدوء الذي قد يكون مصطنعًا.

– لا بأس، فقوّة الطعنة تُقاس بقوّة مَن يوجّهها، وآدم بالنسبة لي قد مات ليلتها، ووجع طعنته سيندثر، ويُدفن تمامًا مثله، إنّها مسألة وقت ليس إلّا.

اتّسعت عينا بينار في رعبٍ وهي تسأل:

– ماذا تقصدين بأنّها ستُدفَن مثله، وأنّها مسألة وقت ليس إلّا؟!

ضحكت أمل بمرارة، وأجابت:

– لا تحزني يا صديقتي، فأنا امرأة لا تهزمني الطّعنات؛ بل أراقص الخنجر حتّى يرتدّ على اليد التي تمسكُ به فتمزّق روحه التي تنبض بداخلي.

انهمرتْ دموعها، وفي نفس اللّحظة تعانقتا، وكأنّهما تتقاسمان نفس الوجع.

تعمّدت بينار تغييرَ الموضوع، فسألت أمل:

– متى نخرج للتسوّق؛ هناك تخفيضات لا تقاوَم؟

وانفجرتا ضاحكتين.

ثمّ بدأت بينار الحديثَ مع جارة أمل في الغرفة باللّغة التركية، إذْ لم تكنْ تتقن اللغة الألمانية بعد، وأخذت تترجم إلى أمل بين الحينِ والآخر، وأخبرتها أنّها تقيم بألمانيا منذ بضعة شهور، أحبّت شابًّا في تركيا، ولكن في النهاية قرّرت الزواج من آخرَ متيسّر لا تحبّه مقيم هنا، وعندما أتت إلى "ألمانيا" وابتعدت عن حبيبها شعرت بعمق الخطأ الّذي ارتكبته، وظلّت تعاني كلّما ضاجعها أو اقترب منها، ولم تتمكّن من نسيان حبيبها، حتى ساءت الأمور بينهما، وصار يعنّفها كلّ ليلة، ووصلَ بها الأمر إلى محاولة الانتحار، ولكنّه أنقذها في آخر لحظة، وهي الآن تعيش إعادةَ تأهيل نفسيّ لتتسامح مع الحياة، ولا تحاول الكرَّةَ مجددًا.

شعرتْ أمل بالملل، وسألت بينار:

- هلْ أحضرت ما طلبته منك؟

أجابتها على الفور:

- أجل. كلّ شيء هناك في الحقيبة، وشريحةُ الهاتف الجديدة، والرواية التي طلبتها، والملابس أيضًا.

دخلتْ أمل للاستحمام، بينما ظلّت بينار ترضي فضولَها بالحديث مع "هناء" التركية عن تفاصيل علاقتها بذلك الوغد، وقد شعرت بالتعاطف معها.

غيّرت أمل ملابسَها، ارتدت فستانًا مزهرًا، حملت الرواية التي أحضرتها لها بينار لتقرأها في الحديقة، وأخبرتها بأنْ تلحق بها عندما تنتهي من الثّرثرة مع تلك الفتاة.

وقبل أنْ تفتح بابَ الغرفة استدارت إلى بينار قائلة:

- ترجمي لها عنّي باللغة التركية ما يلي:

"اللّعنة على كلّ امرأة أحبّت رجلًا، وسلّمته قلبها، ثمّ تزوّجت من آخرَ بمضخّة دماء؛ ليصبح الفراشُ ساحةَ حربٍ نفسيّة مدمّرة.. ببن رجل ممدّدٍ إلى جانبها تراه وحشًا ينهش جسدها، ويلتهمه متى يشاء؛ وبين طيفِ حبيب يغتصب خيالها، ويستبيح مشاعرها وأحاسيسها كلّما أغمضت عينيها.."

***



الفصلُ الثّالث عشر

الدّكتور ماهر



بعدَ حديثه مع بينار شعرَ الدكتور ماهر بالاختناق، ركبَ سيارته، فتح نوافذها وسقفها، وانطلق بأقصى سرعةٍ مسموحٍ بها. ظلّ يقود دونَ هدف يستمع إلى الموسيقى وعقلُه شارد. بعد ساعة من الزّمن عاد إلى المستشفى.

ذهبَ مباشرة إلى الإدارة، واعتذرَ عن متابعة ملفّ أمل لأسباب خاصّةٍ رفضَ الإدلاء بها، وسلّم ملفّها إلى زميل له، سأل عن أمل، ثمّ توجّه إلى الحديقة، ووقف يتأمّلها من بعيد.

كانت جالسةً على أرجوحة في ركنٍ هادئ من الحديقة، مُنشغلةً بقراءة رواية، شعر أنّه لم يعد قادرًا على التعاملِ مع أمل بحياديّة كحالةٍ يعالجها لا غير، واختلطت عليه الأمور لأوّل مرّة.

تقدّم من أمل، وباغتها بالسؤال:

– ألا زلتِ تقرئينَ الرّوايات الرومانسية وتقعين في حبّ البطل؟

فكّرتْ أن تحرجه كأنْ تسأله كيف عرفَ ذلك، ولكنّها فضّلت مجاراته، وأجابت:

– لا أظنّ ذلك، لقد تغيّرت كثيرًا، أصبحت أقرأ الرّوايات بعقلي لا بعاطفتي.

– لمْ أفهم قصدك.

– أقصد أنّني لم أعدْ أتأثّر بما هو مكتوبٌ بين صفحات الرّواية، وبما نقشه المؤلف من مفردات رومانسية وعاطفية بين سطورها، وإنّما صرتُ أبحث داخلها عنْ ما هو أعمق.. عن ما لم يبح به المؤلّف، أي عنْ قاموسه المسجون داخله.

أبحثُ عن تلك المعاني التي تتسلّل إليّ من وراء السّطور، فتكشف لي عنْ معانٍ جديدة ومختلفة، وتشي لي باللّحظات الفارقة التي يعيشها خلالَ كتابته للرّواية، وهي أهمّ عندي من الرواية.

– إذًا، فقد أصبح المؤلّف هو البطلَ الذي تقعين في حبّه خلال كتابته للرّواية عوضًا عن البطل داخلَ الرواية.

– المفاهيم تبقى نسبيّة حسب قراءة كلّ شخص.

– كيف ذلك؟

– لقدْ وجدتُ متعتي الحقيقية عند قراءة الرّواية، في فكّ رموزها النصيّة والبحث في ثناياها عن معانٍ أرادها المؤلّف، لكنّه لم يجرؤ على البوح بها، أو لعلّه لم يستدلّ على المفردات التي تعبّر عن مقاصده داخلها، أو العكس.

– تقصدين أنّه قد تتسلّل إلينا أحاسيسُ وتفاعلاتٌ ومعانٍ خلال قراءة النّص تكون منفصلةً تمامًا عن رغبات المؤلف ونواياه الحقيقية؟

– أكيد، باختصار.. لقد وجدت أنّه من العبث أنْ أتفاعل وأتعاطفَ مع الشخصيات الرئيسية للرّواية، كالبطل والبطلة، وأتجاهل الأبطالَ الحقيقيين؛ وهُمُ الكاتب أو الكاتبة.

حاول استدراجها بخبثٍ لإطالة الحوار:

– لقد تعقّدت المفاهيم أكثرَ بشرحك هذا.

– أقصدُ عندما أقرأ روايةً لم أعدْ أبحر فيها بعاطفتي كما كنتُ أفعل في الماضي؛ بل أصبح البحثُ عنْ كواليس كتابةِ الرّواية أمتع من الرّواية نفسها، حتّى أنّني صرتُ أشعرُ بالانفعالات الكتابية للكاتب، متى استرسل في الكلمات والمعاني؟ ومتى تعثّر وقاوم؟ لماذا اختارَ تلك الكلمة بالذات ولم يختر مرادفتها؟ متى شعر بالإحباط والاكتئاب الكتابيّ، ومزّق الصفحات وأعاد صياغتها وهكذا. كلّ هذه الكواليس الكتابية أمتع مما كتب، وكلّ المعاني التي تسلّلت، ولم تقلْ هي أروع بكثير من المعاني التي قيلت ولم تقصد.

– هل تقرئين بهذه الطريقة لكلّ المؤلّفين أم لبعضهم فقط؟

– فقط لمن يصلني صدقُ كتاباتهم وعمقُ إبداعهم، هؤلاء فقط تتقلّص بيني وبينهم الفجوة الفاصلة بين ما قيل وما سكت عنه.

– حسنًا، ولِمَ لا نقول إنّ الكاتب قد تعمّد اختيار كلماتِه ليوحي بالمعاني التي أراد إيصالها دون أن ندخل في فلسفة جداليّة؟

– في كلّ الأحوال مادام الكاتبُ قد أوحى بالمعاني من خلال اختيار مفردات معيّنة دون غيرها، فهذا يعني أنّه كان محاصرًا بالقيود والقيم والأخلاق وقوانين الذّوق العام للكتابة وغيرها، وهذه القيودُ هي ما يجعلُ موهبة الكاتب تبدع وتتمخّض بعد حالةٍ مجهدة، عن خلق رواية مسكوت

عنها داخل رواية مكتوبة. فالكاتبُ المبدع يا دكتور هو الكاتب الذكي، الذي يداعب عقلك قبل أنْ يداعب عاطفتك، وهو الوحيد الذي يستطيع خلقَ عالم آخر لرواية أخرى تتحرّك بالتوازي على هامش الكلمات داخل الرّواية المكتوبة، ويشدّك لفكّ أسرارها، فيبيحُ لك منطقة، وتخترق أنت مناطق.

***

كان الدّكتور ماهر ينصتُ إليها مأخوذًا بكلامها، فقد عبّرت تمامًا عمّا حدث له خلال قراءته لروايتها. شعرَ بخفقانٍ شديد في قلبه عندما التقت عيناها العسليّتان بعينيه اللّامعتين، في نظرة فصل بينهما شعاعُ شمسٍ تسلّل من بين أشجار الحديقة.

حاولَ السّيطرة على اضطرابه، وكان متأكّدًا في قرارة نفسه أنّها قد لاحظت ارتباكه، فقد قرأ تحليلاتها للغةِ الجسد في روايتها خلال حديثها عن "لارا" في شركة الاتّصالات الوهمية التي عملت بها منذُ سنوات، وكانت منطقيّة بنسبة كبيرة.

أخبرها وهو يحاول العبثَ بساعة يده:

– لقد سلّمت ملفّك إلى زميل لي يدعَى الدكتور "روبرت"، وهو مَن سيقرّر في حالتك، وموعدِ خروجك من المستشفى.

– ليست لديّ مشكلة.

– ألن تسأليني لماذا فعلت هذا؟

– كلّا لنْ أسألك، ولكنّي أعتقد أنّ ضميرَك المهني هو ما دعاك لاتّخاذ مثل هذا القرار وأنا أحترمُ ذلك.

عندما يعجزُ الشّخص عن القيام بواجبِه بحيادية، وتتداخل عليه المفاهيمُ كما هو الحال الآن، فمن الأفضل الانسحابُ وإعادة ترتيب الأفكار.

ظلّ الدكتور ماهر ينظرُ إليها في صمتٍ قبل أن يعقب:

– عنْ أيّ مفاهيم تتحدّثين؟

– أقصدُ التّعامل كطبيبٍ نفسي، وكاتبٍ روائي في نفس الوقت، الأوّل يتعامل بعقل ومنطق بحتٍ من خلال علمٍ مدروس، والثاني يتعامل بعاطفتهِ وخياله الجامح، وأحاسيسه المرهفة، فإذا اجتمعا في حالةٍ واحدة تختلط الأمور.

– أنتِ ذكيّة جدًّا يا أمل، وشخصيتك رائعة، كيف وصلَ بك الحال إلى هنا؟

– الأذكياء لا يصبحون أغبياء سوى عندما يقعون في الحب.

– أريد أنْ أبقى إلى جانبك كصديق، هل تقبلينَ صداقتي؟

– أنتَ فعلًا صديقٌ مُحترم، يشرّفني توقيعك في مسيرتي الحياتية يا دكتور.

ضحكَ الدكتور ماهر من اختيارها لتلك المصطلحات، وأضاف:

– يمكنك مناداتي ماهر دونَ ألقاب؛ فقد صرنا أصدقاء يا أمل.

***



الفصلُ الرّابع عشر

آدم



مرّت الأيام والأسابيع الطويلة، كان يتذوّق فيها آدمُ الأمرّيْن كلّما لاح طيفُ أمل أمامه، لم يفكر خلالها في الاتّصال بعمله أو أصدقائه، حتّى لا يجدوا مكانه وينكشف أمره، كان يشعر بالخزي والعار؛ إذْ كيف له أن يواجهَ المجتمع وهو قاتلُ زوجته.

أصبح منعزلًا، كتومًا، وحيدًا، حزينًا، لا يأبه بأحد، ولا حتى بنفسه، استأجرَ منزلًا صغيرًا، وبدأ يفكّر في بعث مشروع يبدأ به حياته من جديدٍ في إسطنبول.

أمّا عن إحساسه، قرّر أنْ لا امرأة ستأخذُ مكانَ ومكانة أمل في قلبه مدى الحياة، وأنّه سيعيش فقط على ذكراها داعيًا الله أن يسامحه على ظلمِه وجُرمه.

***

كانت شوارعُ اسطنبول مكتظّة للغاية، وتحديدًا "ساحة تقسيم"؛ حيث وقف آدم متأمّلًا الحركة التّجارية هناك قبل أن يتّجه إلى محلّات عصمان بيه الشّهيرة في منطقة "شيشلي".. وتتميّز هذه المحلّات التجارية بعرضها لآخر صيحات الموضة؛ من الملابس النسائية والرجالية والإكسسوارات والعطور والتّحف والمنتوجات اليدوية، والأقمشة ذات الجودة العالية وغيرها.. التي تتمّ صناعتها في تركيا.

والجديرُ بالذّكر أنّ هذه المحلات تنتمي إلى شركات مصنّعة تقوم بتصدير منتوجاتها إلى العديد من الدّول، ومنها بعض الدّول الأوروبية،

وهناك راودتْه فكرة إنشاء شركة استيراد وتصدير ذات مسئولية محدودة، لم تتشكّل بنودها ونشاطاتها في مخيّلته بعد.

واصلَ السّير متأمّلًا الواجهات والمعروضات حتّى وصل إلى مقهى عتيق قرب جامع عثمان "جارشيسي" الشّهير؛ حيث جلس يرشف فنجان قهوة ويتأمّل المارة.

وفجأة، وقعت عيناه على صديقٍ له كان يتسوّق مع زوجته، وما إنْ رآه حتى صرخ مناديًا له بأعلى صوته.. جلسا معًا في المقهى يتبادلان الأخبار، في حين واصلت زوجة صديقه تبضّعها ببعض المحلات القريبة من المقهى، ظلّا يتناقشان في أمور كثيرة عامّة، وكان آدم ينتظر في كلّ لحظة أنْ يواجهه صديقه بجريمتِه، ويسأله عن تفاصيلها، أو حتّى يرى في عينيه نظرة احتقار.. لكنّه لم يلمحْ سوى نظرةِ أسفٍ حين أخبره أنّه من المؤسف انفصاله عن أمل بعد أن كانا يشكّلان ثنائيًّا رائعًا يجلب الأنظار.

***

سرتْ رعشةٌ في جسد آدم، لم يفهمْ شيئًا، وحاول الاستفسارَ وجمع المعلومات بطريقة غير مباشرة، فسأل صديقه قائلًا:

– عن أيّ انفصال تتحدّث؟

أجابه صديقه مندهشًا:

– انفصالك عن أمل، لقد التقتْ بها زوجتي في سباق الخيل مع صديق مقرّب لها، طبيب نفسي يدْعى ماهر، وهو كاتبٌ معروف، وله قرّاء ومُتابعين في أوساط المجتمع، وبسؤالها عنك أخبرتها أنّكما انفصلتما، وانقطع التّواصل والاتصال بينكما منذ فترة.

صرخ آدم في وجهه دون أن يشعر:

- أمل مَن؟ وماهر مَن؟

أجابه ضاحكًا بخبث:

- أمل زوجتك أو طليقتك.. وكم لديْك من أمل حتّى تسأل هذا السؤال!؟

اسودّت الدّنيا في وجه آدم بعد هذه المفاجأة، وظنّ للحظةٍ أنّ روح أمل هي التي كانت تكلمه لتنتقم، وأنّ حالته قد ساءتْ وتستدعي مراجعة طبيب نفسي.

إلّا أنّ صديقه أخرج هاتفَه ليريه صورة التقطتها زوجتُه للخيول يومها، وفي صورة أخرى كانت أمل تقف إلى جانب ماهر في كامل أناقتها، وهُما يبتسمان كبطلٍ وبطلة سينمائيّين، وكان تاريخ الصّورة منذ أسبوعين تقريبًا.

وبعد أنْ عادت زوجة صديقه، استأذنا بالانصراف.

بقي آدم لبعض الوقتِ يحاول استيعاب الأمر، ولأوّل مرّة منذ مغادرته، اتّصل بأحد المقربين منه في ألمانيا يسأله عن زوجته أمل إنْ كان قد سمع شيئًا بخصوصها، فجاءته الإجابة أنها بخير، وأنّه قابلها في حفلةٍ خيرية مع صديق لها.

***

جنّ جنونه وحجزَ تذكرة عودة إلى "ألمانيا" على أوّل رحلةِ مغادرة الأراضي التركية، وهو يفكّر في نفسه لا بدّ أن يوقف هذه المهزلة، فهي قيدُ الحياة، وهو ليس قاتلًا وليس مطلوبًا عدليًّا، ولا بدّ أنْ الطبيب يومها قد أخطأ حين قال "البقاء لله"، لم يكن عليه أن يتسرّع، كان عليه أن يتأكد أوّلًا، ولكنّه جبنَ واختارَ أسهلَ الطّرق، وهو الهروب من واقع لن يستطيع تحمله.

حسنًا، فكّر أنّه عليه استعادة زوجته وحبيبته أمل، فهو لم يطلقها ولم ينفصل عنها بعد، ولن يتركها لرجلٍ غيره مهما حدث، ومهما كلّفه الأمر.

إنّها الرّوح المشرقة داخل عشقٍ مظلم.

***

الفصلُ الخامس عشر

أمل



تمكّنت أمل من الحصول على حُكم بالطلاق في وقتٍ قياسي، فالقانون الأوروبي لا يغفر مثل هذه الاعتداءاتٍ والجرائم، وينصف المرأة بكلّ حزم.

وحُكمَ على آدم في أوّلِ جلسة بالسّجن غيابيًّا لمدّة عشر سنوات لتوفّر كلّ الأدلة والشهود على الواقعة، واعتبرتها المحكمةُ جريمةَ قتلٍ مع سبق الإصرار والترصّد، بالإضافة إلى أنّ هروبه لم يكن في صالحه.

كما رأت المحكمةُ أنْ يقضي بداية الحكمِ في مستشفى للعلاج النفسي تحت الحراسة الأمنية، لأنّ اعتداءَ شخصٍ على زَوجته بالعنف وقتلَه لجنينها؛ فعلٌ لا يصدر عن شخص سويّ ومتّزنٍ عقليًّا.

***

بعد صدور الحكم مباشرة، أوكلَتْ أمل إلى المحامي مهمّة إلغاء التوكيل الرسمي بالتصرف فَي أملاكها التي وهبتها لها السيدة إيفات قبل وفاتها، والتي كان آدم يُديرها بمقتضاه،كما طلبت منه تجميدَ كلّ الحسابات البنكية التّابعة لممتلكاتها، وتعيين أخصائيّين لمراجعتها.

فقد كانت دائمًا تشكّ في إسراف آدم، وإغداقِه بالهدايا على أصدقائه، وعلى نزواته التي اكتشفتها لاحقًا، ولكنّ حبّها له آنذاك منعها من مواجهته بشكوكها.. أوْ لنقل إنّ تلك الأموال كانت آخر شيء قد تفكّر فيه أمل، أو تُعِير لخسارته اهتمامًا لولا خيانته وجحوده.

عندما تكون واقفًا على خشبة مسرح الحبّ، فإنّك تنصهر تمامًا في الإحساس الذي تعيشه، وتتعمّد تجاهلَ أيّة مؤثرات جانبية أو خارجية قد تنغّص عليك لذّة الاستمتاع بدور البطولة في تلك اللّحظات، إلى أنْ تنقلب الموازين وتجدَ نفسك مع ظلالِ إحساس قد رحلَ ولم يترك وراءه سوى الذّكرى المؤلمة.. حينها يتقلّص دورك، وينكمش، وتجد متّسعًا من المسافة الفاصلة بينك وبين الانصهار؛ لتقيمَ تلك المؤشّرات والإشارات والإنذارات التي تجاهلتها طويلًا باندفاعٍ وبغباء مقصود.

***

في الأثناء، بدأت علاقةُ أمل وماهر تتطوّر تدريجيًّا؛ حيث لم تقتصرْ على غرفة وحديقة المستشفى، بل تجاوزتها إلى لقاءاتِ صداقة متينة بعد شفائها وخروجها، صداقة بُنيت على الصُراحة والثقة وتقارب الأفكار والأحلام.

تواعدتْ أمل مع ماهر ذاتَ يوم مُشمس للقيام بنزهةٍ على مركب في نهر الرّاين، وتناول طعام الغذاء على متنه، ظلّ ماهر عاشقًا لجمالها، مأسورًا بشخصيّتها في صمت، يكبتُ أحاسيسه التي اندلعتْ ثورتها بعد أنْ كانت خامدة، عاجزًا عن البوْح لها بمشاعره خشية أن يخسر صداقتها، لقد وثقتْ به، وسلّمته وسامَ الصّداقة وهو يجاهد نفسه للحفاظ عليه.

كانت رغم تألّقها وسحرها قد بدتْ له في ذلك اليوم مرهقةً مشتّتة بعض الشيء على غير عادتها، وبنيّة مبيّتة منه لاستشفافِ دواخلها بادرَها قائلًا:

- لا تسمحي لعثرةِ حبّ أنْ تهزمك يا صديقتي.

نظرتْ إليه بعينيْن تكبحان دموعهما قائلة:

– عديدةٌ هي عثرات الحبّ يا صديقي، وموجعةٌ جدًّا، فعندما تسقط في الحبّ تنهض من جديد تاركًا في محيطك شظايا مشاعرِك وبقايا انكساراتك المهزومة. لا تعلم حينها هل مِن الأفضل أنْ تجمع حطامّك وترمّمه، أم تتركه وراءك وتمضي.

أجابَها بسرعة:

– حينها ستظلّ الصّداقة موجودة.

هذا الجزءُ العميق داخل الحبّ سيتولّى ترميمَ كلّ شيء، فالصّداقة وجدت لتداوي احتضار الحبّ، وتجعله يتنفّس إكلينيكيًّا، الصداقة يا حلوتي.. تحتضن كلّ الخيبات.. وهي مرهم لكلّ الأوجاع، ستكون فترة نقاهة تستوعبها بذارعيْن مفتوحتين تساعد فيها القلب على النبض من جديد دون ألم، وعلى اكتساب حصانة ضدّ أيّ جرثومة مشاعر مزيّفة أو هجمة خذلان مرتدّة.

أجابته وقد تسلّلت على وجنتيها دمعةٌ وهي تعلم ما يرمي إليه:

– أعجبني منطقُك يا صديقي، ولكنّني لم أقتنع به، فأنا أعلم أنّ الصّداقة قد تتطوّر لتصبح حبًّا، والحبّ قد يتاخم الجنونَ ليصبح عشقًا، ولكن من الصعب أن يتنازل الحبّ عن برجه العاجي، عن كرامته وكبريائه، عن ثورة أحاسيسه ليخمدَ من جديد.. ويتراجع إلى الصفوف الخلفية ليبدأ النّضال من البداية، أو أن يلعب دور الرفيق أو الصديق. فهناك دائمًا حطام وانكسار قلوب.. فمن سيداوي مَن؟ ومَن سيعزّي مَن؟

حاول أن يقول شيئًا، ولكنّها واصلت وقد انهمرت الدّموع وتحرّرت.

خيباتُ الحبّ مختلفة يا صديقي.

ففي بعض الخيبات.. هناك قلب قاتلٌ وقلبٌ مقتول. فهل تنتظر من قلبٍ كاسر وجارح أن يبقى إلى جانبك ويرمّم حطامك، وحتّى إن فعلَ فسيكون بدافع العطف ليس أكثر، وفي خيبات أخرى يقتلُ القدر القلبيْن معًا، ويفرق بينهما، ويردي كليْهما قتيلًا، فهل يعزّي القتيل حبيبه الفقيد أم يعزّي نفسه؟ إذْ كيف يعزّي القتيلُ قتيلًا.

***

أشاحتْ بوجهها لتخفي دموعَها وهي تنظر إلى المركب يشقّ مياه النهر إلى نصفين تمامًا كما شقّت خيانات آدم قلبها.

تقدّم منها ماهر بهدوء، وربّت على كتفها، شعرَ برغبة جامحة تحرقه شوقًا لاحتضانها في تلك اللّحظة، وضمّها إليه بكلّ ما أوتي من قوّة؛ ليشعرها بدفء مشاعره وبراكين أحاسيسه.. لكنّه قاومَ نفسه، واكتفى بوضع رأسِها على كتفيه، وتقْبيل رأسها، وهو يهمس لها:

– ثقي بي يا أمل، أعدُك بأنّني لن أخذلك.

في الواقع، أنا أتفهّم غيرةَ آدم عليك، وإصراره على امتلاكك، ولكنّي لا أفهم أسبابه لخيانتك وتبريراته لجرح مشاعرك، ثمّ أذيته لك، وهروبه وعدم مواجهته للموقف.

فأنتِ جميلة جدًّا، كتحفةٍ فنيّة أبدع الخالق في رسم تفاصيلها.. وكتلة من الأحاسيس والمشاعر المرهفة، وشخصيّتك جذّابة للغاية، حتى أنّه من النّادر في عصرنا أن تخلص فتاة في حبّها لرجل لم تلتقِ به طيلة سنوات على أمل أنْ يجمعها به القدر في لقاء صدفة.

أشاحتْ بنظرها إلى النّهر برهةً وهي تفكّر بعمق، ثمّ أجابت:

– لطالما تساءلتُ مثلك يا ماهر، ولكنّي لم أجدْ إجابات سوى أنّ شخصية الإنسان في العالم الافتراضي غالبًا ما تكون مزيفة، بقطع النّظر عن نسبة الخداع فيها، فلكلّ شخص منّا ذلك الجانب الصّغير المظلم في داخله،كصندوق أسرار مُقفل يرفض البوح به أو مشاركته مع أيّ كان حتّى مع نفسه.

لقد أخطأت حين بحثت عنْ بطل أحلامي داخل أسطورة العالم الافتراضي، فاصطدمت بحقيقته، حينما نزل الخيال إلى أرض الواقع.

إنّ إحساسك وأنت تحلّق على متن طائرة خاصّة فوق السحاب يختلفُ جذريًّا عن إحساسك وأنتَ تهتزّ داخل حافلة عامّة مكتظّة بين إشارات المرور المعطلة.

فالحياةُ الزّوجية يا ماهر لا نعيشها في مركبةٍ فضائية مليئة بالأحلام والرومانسيات، حتى وإن سعينا لتحقيق ذلك، بل نعيشها داخل عجلةِ الواقع بكلّ ضغوطاتها وتراكماتها النفسية وفي حالات أخرى مادية أيضًا.. فأنت لا تستطيع اكْتشاف الترسّبات والاضطرابات والعقد النفسية لشخصٍ

ما من بعيد، حتّى وإن كان الأقرب إلى روحك، سوى عندما تعيش معه عن قرب، وتحاول التّعايشَ معه، وفي أحيان كثيرة التّكيف مع مزاجه.

بمعنى آخر..

ربّما كان عليّ أنْ أبحث عن بطلي على أرض الواقع، وأنْ أحاول اكتشاف صندوقه المظلم قبل التورّط معه في علاقة حبّ تنتهي بـ....

وصمتتْ بعدها أمل، وقد ابتلعت الغصّةُ كلماتها.. أمّا ماهر فقد ضمّها إليه محاولًا تهدئتها..كانا يقفان في ركنٍ على سطح المركب الذي تنبعثُ منه موسيقى رومانسية، تمامًا كمشهد بطلي فيلم "تيتانيك" الشّهير على متن الباخرة، لكن دون أن يحاولا التّحليق والطّيران.. إذْ قرّر كلاهما أن يبدأ من أرض الواقع.

***

بدا التردّدُ على ماهر، أشاح بوجهه قليلًا، وهو يراقب فتاةً تطالع كتابًا على متن المركب، ثمّ التفت إلى أمل هامسًا:

– لقد قرأت قصّتك، ثمّ أعدتها إلى بينار بعد الانتهاء منها.

ابتسمتْ أمل وظلّت صامتة، فأكمل:

– حسنًا، يبدو أنّك تعرفين ذلك، وأنّ بينار قد بحثتْ عن وقت مناسب لإخبارك. في الواقع لقد سألتك كصديقٍ عن سبب تصرّفات آدم العنيفة نحوك وخيانته لك، لعلّني أجد في إجابتك تفسيرًا أكثرَ منطقية لما أحمله أنا كطبيب نفسي عن شخصيّته من تحليلات، وهو أنّ آدم قد عاش طفولة

مهتزّة غير مستقرّة، في ظلّ أبٍ مسالم خانع، وأمّ متمرّدة لعوب تهوى الحرية والمغامرات العاطفية بأنواعها كما ذكرت في قصّتك سابقًا، وكانت لمعايشة آدم لخيانات والدته وتصدعات عائلته ترسّبات نفسية منذ الصّغر، حملها في أعماقه وهو ينضج. وقد صعدت تلك التراكمات إلى السّطح بفشل علاقاته العاطفية، وبسوء اختياره للفتيات الخائنات، ليتحوّل مع مرور الوقت إلى رجل شكّاك وعنيف، يتوجّس الخذلان والخيانة من الجميع حتّى أنت أقرب شخص إلى روحه وأصدق قلبٍ أحبّه، وكان وفيًّا له.. وأصبح متسرّعًا في أحكامه، ويحاول الانتقام لنفسه من النّساء. وكان يعتقدُ في عقله الباطن أنّه ينتقم من والدته في شخص كلّ مَن عرفهنّ، بحيث كلّما انتهى من واحدةٍ منهنّ تركها تتألم وبحثَ عن غيرها، هكذا كان يعتقد، ولكنّه في الواقع كان ينتقم من نفسِه ومنك.. إنّ ما فعله بك كان محزنًا، وأنا آسف لذلك، لقد...

قطعتْ أمل حديثَه، وقد وجدتْ موضوعًا أهمّ وأمتع للنقاش في تلك اللحظة قائلة:

- إذًا، ما رأيك في كتاباتي يا "أستاذ" ماهر.

تعمّدت استعمالَ ذاك اللّقب لإضفاء روح الجدية على الحوار.

ابتسمَ قليلًا وقد فهمَ رغبتها تلك، أزاح نظارته الشّمسية عن عينيه البنّيتين، وهو يرمقها بنظرة رومانسية هامسًا:

- لقد وصلني إحساسُك الصّادق في أوقات كثيرة خلال القراءة، وتمنّيت لو كنت أنا بطل روايتك.

ثمّ تظاهر بالجدية وهو يتقمّص دور النّاقد، وأضاف:

– وكان أسلوبك جميلًا ومتّزنًا، وحبكتك ذكيّة وناجحة، لكنّني شعرت بالظمأ، وظللت متعطّشًا طوالَ الوقت إلى معرفة أسرار تفاصيل ذلك العشق الكافر الذي جمعكما في الخفاء في جزئه المسكوت عنه، كما أنّني شعرت ببعض الجوع، فقد كانت النّهاية غير مشبعة ومختصرة، وظلّت الأوجاع معلّقة باختفائك، لكنّها في المجمل مميزةٌ مثلك، وسردُك رائعٌ، أخذْتِنِي معك كقارئ أينما حللت، ألا تفكّرين في نشرها؟

كانت أمل تستمع إلى ملاحظاته ككاتبٍ روائي لديْه خبرة في المجال بكلّ اهتمام، تسارعت دقات قلبها، وشعرت ببعض الإحراج، وفكّرت في نفسها..

لا بدّ أنّه قد اخترقها، واجتاز عوالمها المسكوت عنها دونَ جهد، استعادت انتباهها بسرعة قائلة:

– لطالما كنتُ أحلم بأنْ أكون كاتبة روائية في يوم ما، لكنّني لم أفكّر في نشرها، ربما تنقصني الجرأة والشجاعة، أو ربّما لأنّ خطوط النهاية لم تتشكّل بعد.. فرغم تتالي الأحداث بإيقاعها السّريع، وتوالي الفجائع بنسقِها الرّهيب، إلّا أنّ ستائر الرواية لم تُسدَل بعد.

***

وقف ماهر أمامها مباشرة، كانت رياحُ النّهر تعبثُ بخصلات شعرها وتدفعه للتطاير في الهواء، وكأنّها تدعوه إلى رقصة هادئة على إيقاع الموسيقى المستفزّة للمشاعر.. وضع يدَه اليسرى على كتفها، ورفع بيده اليمنى ذقنَها برقّة لتلتقي نظراتها من جديد، ثمّ أكّد قائلًا:

– ستكملين روايتك يا أمل، ستكتبينَ بقيّة أحداث قصّتك بكلّ صدق بانتصاراتك وانكساراتك.. وسوف تتركين العنوانَ كما هو "أنابيس".. لقد شكّل هذا الاسمُ بدايةَ عشقك، ونفس الاسم تسبّب في كفرك به.

وها قدِ انتقمت منه، وحُكم عليه، واستعدتِ حريّتك، فأكملي كتابتها، وسوف أساعدك على نشرها؛ فالكتابة في جزءٍ منها علاج للنفس.

***

تغيّرت ملامحُ أمل فجأة، وظهرت تقطيبة صغيرة على جبينها سرعان ما عالجتها بابتسامة مريرة، وأضافت:

– أعدُك بذلك يا ماهر، يومًا ما سوف أكمل كتابتها، يوم ترقد الرّوح المقتولة بداخلي بسلام، ويومَ تتحرّر الروح العاشقة المخدوعة التي تلبسني.

لمعتْ عينا ماهر، وهو يحاول مشاكستها قائلًا:

– لقد علمتُ من قصّتك أنّ لديك شياطين صغيرةً تساعدك، وتعمل لصالحك، فهلّا استدعيتها لتساعدك على الكتابة.

انفجرتْ أمل ضاحكة، وقد أشرق وجهُها الملائكي فجأة:

– شياطيني الصّغيرة مشغولةٌ الآن إنّها مسافرة في مهمة مستحيلة.

ثمّ أكملت ضحكها.

***

بدا الفضولُ على وجْه ماهر، وصمتَ منتظرًا منها شرحًا لما قالته، ولكنّ حيرته لم تزدها سوى متعة وضحكًا.. وبعد أنِ انْتهت من هستيريا الضّحك قالت مازحة:

- خلال تقييمك لقصّتي قلت إنّك شعرتَ بالظّمأ لمعرفة التّفاصيل، وبالجوع من نهاية غير مشبعة، في الواقع أعتقد أنّ بطنك هي التي تكلّمت حينها، فلنطلب الأكلَ هنا على سطح المركب؛ سنستمتعُ به أكثر.

وضعَ يده على بطنِه وهو يضحك:

- يبدو أنّك على حقّ.



الفصلُ السّادس عشر

آدم



وصل آدمُ المطار، ودخل مكتبَ السّفريات ليستلم التّذكرة الإلكترونية التي حجزها على أوّل رحلة إلى ألمانيا، لكنّه فوجئ بإلغائها لعدم خلاصها.

طلبَ من الموظّفة أنْ تتثبّت من الأمر، فأكّدت له أنّها حاولت أكثرَ من مرّة، وتلقّت ردًّا سلبيًّا بوجود خللٍ ما في رقم الحساب.

حاول آدم استعمالَ الكروت البنكية، فوجدها منتهيةَ الصّلاحية، وبعد عدّة محاولات سريعة ومتوترة باءتْ بالفشل؛ تلقّى ردًّا سلبيًّا بضرورة مراجعة الفرع المركزي للبنك.

وجدَ آدم نفسَه في موقفٍ محرج للغاية، اعتذرَ من الموظّفة وغادر المكتب. اتّصل بالبنك وبعد حوار موجز معهم، علمَ أنّ أمل قد جمّدت رصيدَ الشّركة، وأنّه لا يستطيع سحبَ أيّ مبلغٍ مالي من هذا الحساب بعد اليوم.

شعرَ بالعجز، لقد أراد أنْ يعود بسرعة ليعتذرَ منها، ويحاول إصلاح ما أفسده، ولكن.. تجري الرياح بما لا تشتهي السّفن، والأحرى هنا تجري السّفنُ بما تشتهيه الرياح.

فقد اتّبع غرائزه ونزواته، وضربَ بمشاعر زوجته عُرض الحائط، وها هو يقف عاجزًا مكتوف اليدين، لم يعدْ أمامه حلّ آخر سوى أن يتّصل بها، ويعتذر منها هاتفيًّا إلى حين عودته إلى "ألمانيا".

حاول أنْ يجمع شتاتَ أفكاره، ويرتّب بعض الكلمات المنمّقة حتّى يتجاوز أزمته المالية، ويعود إليها.

***

اتّصل آدم على رقم هاتفها الجوّال فوجده خارجَ نطاق الخدمة، اتّصل بالرقم القارّ للمنزل؛ لا أحد يردّ، فقرّر الاتّصال بالشّركة. وبعد انتظار لم يدمْ طويلًا، جاءه صوت أمل الهادئ على الطرف الثاني، وهزّ مشاعره هزًّا.. لملمَ مشاعره المتضاربة، وأجاب:

– ألو، أمل مرحبًا، هذا أنا.

سمعتْ أمل صوتَه، عرفته على الفور، لكنّها تجاهلته:

– نعم، مَن المتّصل؟

– هذا أنا يا حبيبتي، كيف حالك؟

– أنا لا أعرفك، ماذا تريد؟

– بلغني أنّه لديك صديقٌ وتفكّرين في الارتباط به، هل جُننت!؟ وماذا حصل بخصوص الحساب البنكيّ للشّركة؟ ولكنْ قبل ذلك أخبريني كيف حالك؟ أريد الاطمئنان عليك.

قهقهتْ أمل ضحكًا، ثمّ أجابت:

– تريد الاطمئنانَ عليّ!! ههههه.. حسنًا. بالنّسبة لصديقي فهو أمرٌ شخصيّ يهمّني، لا دخل لك به، وهي قصّة أعيشها، تفاصيلُها لا تعنيك.. أمّا بالنّسبة للتوكيل فقد قمتُ بإلغائه، وجمّدت بذلك البطاقاتِ البنكيّة، وأيَّ معاملات باسمك.

شعرت أمل بالتشفّي، ورغبتْ في مواصلة حديثها بنفس البرودِ لتخبره عن الحكمِ بالسّجن الذي صدرَ ضدّه- والذي يعتبر جاري النّفاذ في كامل

دول الاتّحاد الأوروبي- وعن حكم طلاقها، ولكنها تراجعتْ وتعمّدت إخفاء هذه المعلومات عنه لأمرٍ خطرَ ببالها.

كانت نبرةُ أمل اللامبالية وطريقةُ كلامها مثيرةً للاستفزاز، قال آدم:

- كنت أريد أن أعتذرَ منك، وأنْ أطلب العفو عن كلّ ما بدر منّي، عن خياناتي التي لم أقصد بها جرحَ مشاعرك أو إهانتك، وعن ضربكِ بقسوةٍ فقد كنت منفعلاً جدًّا، وفقدت السّيطرةَ على نفسي حين اعتقدت أنّك تخونينني، أرجوك.

قاطعتْه أمل:

- لا داعي للاعتذار؛ فسيأخذ كلّ منّا حقّه بالقانون، ما سبّبته لي من ألم لا تداويه بعض الكلمات الجوفاء، ففي النهاية كان زواجُنا تجربة تعلّمتُ منها الكثير.

وتمادتْ أمل لإغاظته متعمّدة القول:

- لقد بعثَ لي الله برجلٍ يقف إلى جانبي، ويحترم مشاعري.. رجل يستحقّ قلبي الطيّب، أمّا أنتً فقد ظننتَ أنّني قد متّ فهربتَ أيّها الجبان، ولم تنتظرْ حتّى مراسم دفني لتودّعني، يا لَكَ من حقير.. ثمّ إنّ طبعك الخيانة، وما بالطّبع لا يتغير.

قاطعها آدمُ صارخًا:

- أنا لست خائنًا، وهذا الرجل لنْ يقربَك ما حييت، وسأعملُ على إفساد حياتك؛ فأنت مازلت زوجتي، ولنْ أطلّقك.

أقفلت أمل الخطّ، وتناولت دواءً مهدّئًا للأعصاب كان قد اقترحَه عليها الدكتور ماهر في إحدى الجلسات.

لقد كان سماعُ صوته بعد هذه المدّة بالنّسبة لها مفاجأةً غيرَ مرغوبٍ فيها، إذْ تأكّدت اليوم قطعيًّا من برودِ مشاعرها تجاهه.

لقد كان سماع صوتِه في الماضي يُحدث ارتباكًا بداخلها، وتسارعًا في دقّات قلبها؛ لكنّها اليوم استمعتْ إلى صوتٍ غريب جامد، صوت مجهول الهويّة والمعالم، أثارَ اشمئزازها وعكّرَ مزاجها، لقد أصبح نكرةً بالنسبة لها، لا يربطُها به سوى لحظةِ انتقامٍ لترقد بعدَها روحُ ابنتها في سلام.

***

بدأ آدمُ يخطّط لإيجاد طريقةٍ ما يتجاوز بها عجزَه المالي ليتمكّن من العودة إلى "ألمانيا" بنفس المستوى الاجتماعي الذي كان عليه، وبدء المواجهة مع أمل.

وبعد بحثٍ مكثّف، تمكّن من الحصول على عمل في إحدى الشركات التركية، المصنعة للملابس الجاهزة "بإسطنبول"، وتولّى مسئولية التّسويق الخارجي لمنتجاتها.

كان آدم يحاولَ الاجتهاد في عمله الجديد باستغلال شبكةِ علاقاته الخاصّة في هذا المجال للحصول على عقودٍ تسويقية احتكارية لهذه المنتجات.

وبالفعل، نجح في الحصول على عرضٍ مهمّ من شركة متعدّدة الجنسيات، طلبت كميّةً هامّة من الملابس الشتوية، وقد تمّ على أثر هذه الصفقة تثبيتُ آدم في العمل، وإعطاؤه صلاحيات أوسع.

ازداد حماسُ آدم، وبدأ بالبحث عن أسواق جديدة للتّصدير.. بعث بعروض مميّزة للشركات الأوروبية مع تخفيضات جزئية لأوّلِ طلب، إلى أنْ وصله عرض هامّ من شركة إيطاليّة الجنسية، تستفسر عن إمكانية تصنيع أزياء خاصّة لهم بمواصفات عالمية ويدٍ عاملة تركية.

عرض آدم الأمرَ في اجتماع مجلس إدارة الشركة، فوجدوا أنّ الأمرَ يستحقّ الاهتمام والمتابعة، وبعد جمْع المعلومات الكافية عن الشّركة الإيطالية؛ تمّت الموافقة المبدئية من جهتهم.

حدّدت الشركة الإيطالية موعدًا بعد شهر لإرسال مندوب لها بالتّصاميم والموديلات التي سيتمّ إنتاجها لموسم الصّيف، ومناقشته كلفةً الإنتاج.

ارتدى آدم بدلةً سوداء مع قميص ناصعِ البياض وحذاءٍ أسود من الجلد، رتّب شعره بعناية ووضع نظارتَه الشمسيَة، ثمّ قاد السّيارة باتّجاه المطار لاستقبال المندوب الإيطالي للشركة المتعاقدة.

كان آدم في أوْج أناقته، يشعر بالنّجاح، وقرب عودته إلى أمل بعد إتمام هذه الصفقة الهامّة، وكان يقفُ إلى جانبه بخطّ الانتظار حيثُ باب خروج المسافرين القادمين إلى "إسطنبول"؛ عاملُ الشركة يحملُ لافتة كُتب عليها اسمُ الشركة الإيطالية.

لم يطلِ انْتظاره طويلًا حتّى تقدّمت منه فتاةٌ جذّابة تبدو عليها علامات الجديّة والانضباط رغم جمالها الفتّاك.

مدّت يدها تصافحه، ورافقت ملامستها ليدِه بابتسامةٍ مُغرية خفيفة، ولمعان عينيْها الذكيتيْن وهي تقول:

- أنا "كرستينا" مندوبةُ الشّركة الإيطالية، لا بدّ أنّك السيد آدم، أليس كذلك؟!

مدّ آدم يدَه مصافحًا وهو يتأمّل قوامها الجذّاب الذي حاولت إخفاءه تحتَ ذلك المعطف الأسود الطّويل، والوشاح الصّوفي الذي يلتفّ بعناية حول رقبتها قائلًا:

– أجل أنا السيد آدم، تشرّفت باستقبالك، لقد حجزنا لك جناحًا خاصًّا بفندقٍ قريب من الشركة، هل تسمحين؟

وأشارَ إلى العامل بحمل حقيبة سفرها.

تأمّلت وسامةَ آدم، وخمّنت أنّه فرنسي الجنسية، ذو أصول عربية، لقد وشتْ به لكنتُه الباريسية السّاحرة، وهو يخاطبها باللّغة الإنجليزية، بينما تجيب هي بإنجليزية ذاتِ لكنةٍ إيطالية مُغرية في تمدّد نهاية كلماتها وحروفها عند النّطق بها.

حقًّا إنّها لسيمفونية لقاء السّحاب.. جمعت بين نبرة الصّوت الناعم وإغراء النّطق بالكلمات، وزادها جمالُ اللّحظة عزفٌ على أوْتار المشاعر والأحاسيس، أجابت كريستينا بسرعةٍ وكأنّها استعادت رشدها بعد أنْ تخمّرت برائحة عطره وجَمالِ لكنته للحظات:

– أجل بالطّبع، لكنّني سأقوم بزيارة المصنع أوّلًا، ومن هناك إلى الشركة، لدينا عملٌ كثير علينا إنهاؤه قبلَ أن أعود إلى إيطاليا، لقد حجزت تذكرةَ العودة بعد ثمانٍ وأربعين ساعة؛ نظرًا لأهمية المواعيد والالتزامات هناك.

استاءَ آدم قليلًا عند سماعه ذلك؛ فالوقت قصيرٌ جدًّا، وعليه إقناعها بإمضاء العقد، ثمّ أضاف:

– حسنًا، لنذهب إذًا؛ فالوقت يداهمنا.

***

مرّت ساعاتُ اليوم الأوّل والثّاني مشحونةً بالعمل والمقابلات والاجتماعات، حيث تمّ الاتفاق على الخطوط العريضة للعمل، وأهمّ تفاصيل بنود العقد الذي سيبرَم في إيطاليا بين الشركتين.

أعجب آدم كثيرًا بكريستينا، تلك الفتاة الجذّابة الذّكية، واعتبرها مندوبةً ناجحة بدرجة امتياز، تهتمّ بأدقّ التّفاصيل، وتنتبه لكلّ معلومة تُقال أو تكتب.

كانت تديرُ الحوارَ بذكاء وسهولة، تقنع بأفكارها دونَ جهد، حديثها متسلسل ومنطقي، وكانت تجلبُ الانتباه بمزحةٍ خفيفة كلّما لاحظت بعضَ الملل يتسلّل بين عمّال المصنع أو أعضاء مجلس إدارة الشّركة لتستقطب انتباهَهم بذلك من جديد، وتجدّد روح النقاش والتفاعل بينهم.

أنهتْ كريستينا مهمّتها بنجاحٍ، واقترب موعدُ عودتها إلى إيطاليا، قام آدم بدعوتها على العشاء احتفالًا بالعقد الجديد، فأخبرته أنّ الاحتفال الحقيقيّ بإمضاء العقد سيتمّ في إيطاليا، ولكنّها تقبل دعوتَه على العشاء بصفة خاصّة.

فـ كرستينا لا تُنكر في قرارة نفسها أنّه قد شدّ اهتمامها منذُ الوهلة الأولى، وأثار إعجابها..

وقفَ آدمُ في بهو الفندق ينتظرُ نزولها من جناحها الخاصّ، كانت الساعة تشير إلى الثّامنة ليلًا عندما تألّقت كريستينا في إطلالةٍ ساحرة، بخطى رشيقةٍ هادئة كعارضات الأزياء، خطوات لم يلاحظها طوال السّاعات الماضية في الشّركة؛ حيث كانت تتحرّك كمدرّبٍ في الجيش الإيطالي؛ تشرح، وتحلّل، وأحيانًا تأمر.

كان مُنبهرًا بجمالها الأخّاذ، نظرَ إلى فستانها الشّيفون الأحمر القصير المفتوح على مستوى الصدر، والذي حدّد معالم أنوثتها الصّارخة، وشعرها الناعم المرفوع إلى الأعلى في أناقةٍ وكبرياء، وجذب انتباهَه ذلك العقدُ الفضيّ المتدلي على رقبتها وقد زادها إغراءً وإثارة.

كانت رائحةُ عطرها تجوب المكانَ قبل وصولها إليه، وصوتُ خطوات كعبِها العالي بدأ يعزف موسيقى التّانجو مع اختلاج أنفاسه.

إنّها الهجمة الأنثوية التي تزلزل وتفتكُ باستقرارٍ أيّ شخصٍ تتغلب ذكورته وغرائزه على عقله ورجولته.

***

استفاقَ آدم في الصباح على طرق الباب من قِبَل عمّال نظافة الفندق يستأذنون بالدخول لتنظيف جناح كريستينا، التفتَ إلى جانبه فلم يجدْ غير ورقة كُتب عليها "لم أردْ إزعاجك، عندما تستيقظ سأكون في إيطاليا، لقد كانت ليلةً رائعة لا تُنسَى، سنلتقي مجدّدًا"، وطبعتْ قُبلة بأحمر شفاهها على الورقة، وتحتها كُتب رقم هاتفها الخاصّ.

ظلّ آدم على اتّصالٍ دائم بكرستينا، وعلم أنّها ابنةُ صاحب الشّركة الإيطالية، فأخبرها أنّه يرغب في العملِ معها ليكون قريبًا منها. اقترحت عليه كرستينا الانضمامَ إلى شركة والدها كشريكٍ بنسبة بسيطة في البداية.

رحّب آدم بالعرض، وبعد أنْ بعثت له بنسخةٍ من العقد قام بتحويل كلّ رصيده إلى الشّركة الأمّ "بإيطاليا"، واتّفقا على الالتقاء هناك قبلَ حفل إمضاء عقد الشّركة "التركية- الإيطالية"بيوم ليقضيا وقتًا ممتعًا في فيلّا كريستينا بروما.

توطّدت علاقةُ آدم وكرستينا سريعًا، كان آدم يرغب في جسدِها وأموالها، بينما لم يثبت قلبُه أيّ وجودٍ له في هذه العلاقة.

حدّدت الشركة الإيطالية تاريخَ إمضاء العقد والاحتفال به، قطع آدم تذكرةَ سفرٍ قبل التاريخ المحدّد بيوم، وأعلنت شركة الطّيران الإيطالية عن انطلاق الرحلة.

***

أقلعتِ الطّائرة، وبدأت في الصّعود تدريجيًّا لتعانق السّحاب، مثيرةُ بداخله مزيجًا من ذلك الإحساس العميق بمتعة الارتفاع ورهبة الخطر، وبدأت معها صورةُ أمل تقتحم ذهنه، تذكّر آخر سفرةٍ له من "ألمانيا" إلى "اسطنبول" بجميع ملابساتها، وشعر بضيق في نفسه، تذكّر أمل التي أخبرته أنّها تعيش قصّةً لا تعنيه تفاصيلها.

على العموم، هو متابعٌ لأخبارها من بعيد، وسوف يتدخّل في اللّحظة الحاسمة ليقلب كلّ الموازين لصالحه.. لنْ يسمح لها أنْ تهنأ بالسّعادة في أحضان زوجٍ غيره أبدًا، ولن يطلّقها، هكذا فكّر.

ثمّ أغمض عينيه، وبدأ يخطّط للعمل في شركة والد كرستينا، والاستقرار مؤقّتًا في "إيطاليا" ليبلغ غايتَه المادية بسرعة.

***

تعطّل آدم قليلًا في شرطة التّفتيش والجوازات، فقد تزامنَ وصول رحلته مع وصول العديد من الرّحلات الأخرى من شتى أنحاء العالم، وما إنْ خرج حتى لمح كرستينا في انتظاره.

ابتسمَ من بعيد ملوّحًا بيديه، وحالما اقتربَ منها بادرته بالسلام مع قُبلةٍ خفيفة رسمتها على خدّه بلهفة:

– مرحبًا بصاحب اللّكنة الفرنسية، التاريخ يعيد نفسه، والأدوار تتبادل. منذُ شهر كنت أنت في استقبالي، وها أنذا اليوم أستقبلك.

– لقد كان استقبالي لكِ ممتعًا ومميّزًا لا يُنسى، لنرى استقبالك لي كيف سيكون!

فهمتْ كرستينا تلميحَه الخبيث، وأعجبتها مشاكسته، فابتسمتْ في تحدٍّ، وقالت:

– سيكون استقبالي لك ناريًّا، مشتعلًا، وستكون الليلة مميّزة للغاية.. تحترقُ فيها اللّحظات حدّ الخمود، وتترنّح فيها الأمنيات حدّ الثمالة، ستكون ليلةَ سجنك في عشق مجهول.

بعدما ركبا السّيارة وانطلقا، أخبرته كريستينا في الطّريق أنّهما مدعوّان إلى حفلٍ كبيرٍ راقص على الطّراز الإيطالي، وبعدها سيكملانِ السّهرة في مكان آخرٍ خاصّ جدًّا.

كانت كرستينا تقودُ السيارة بسرعةٍ وبراعة فائقة، وتتمايل في المنعرجات بين الطرق الجبلية الخضراء بالمقْود على أنغامٍ موسيقى إيطالية سريعة الإيقاع.

ضغطتْ على زرٍّ في لوحة القيادة أمامها، ففُتح سقفُ السيارة، وبدأ شعرُها الذهبي يتطاير مع سرعة الرّياح مُداعبًا كتف آدم ووجهَه كلّما انعرجت بالسيارة بقوّة إلى اليسار، وكان خيال آدم يرقصُ معها، ويتمايل مبحرًا في السّهرة.. الخاصّة جدًّا.

***

الفصلُ السّابع عشر

أمل



كان ماهر قد نصحَ أمل مرارًا وتكرارًا بالسّفر إلى أيّ منتجع سياحي للاستجمام والاسترخاء، في محاولةٍ منه لجعلها تتجاوز أزمتها، وتفصل مع الماضي.

فقد كان يشعرُ بالقلق من انْغماسها الشّديد بين العمل والجمعيات الخيرية في الآونة الأخيرة..

كانت تبدو له- أحيانًا- كطوفانٍ يبتلع نفسه، دون أن يأتي على أيّ شيء آخر..

ولئنْ كان قربُها الشّديد منه يستهويه ويسعده؛ إلّا أنّ غموضها كان يُرهبه؛ فمعها كان يشعر دائمًا بذلك العلوّ الشّاهق المحفوف بإحساس الخطر؛ خطر، إمّا التّحليق عشقًا، أو السقوط عشقًا.. وفي كلتا الحالتين كان عالقًا في فلسفته الصامتة.

نصحها كثيرًا، إلى أنْ فاجأته باتصال ذات عطلةِ نهاية أسبوع، تدعوه فيه إلى مرافقتها في رحلة سياحيّةٍ قصيرة على شواطئ "موناكو".

***

إمارة "موناكو" وهي دولة صغيرةٌ مستقلّة، تقع في أوروبا، وعاصمتها مدينة "مونت كارلو".

تحدّها فقط فرنسا من ثلاثِ جهات، والبحر الأبيض المتوسط من الجهة الرّابعة، وهي تبعد عن مدينة "نيس" الفرنسية نحو ١٥ كم إلى الغـرب،

وتقع على بُعد ٨ كم شرقًا من الحدود الإيطالية.. لتصبح بموقعها الاستراتيجي من أكثر المنتجعات السّياحية شهرةً وفخامةً في العالم؛ حيث يتواجد فيها أغلبُ مشاهير العالم ونجومه، وتقيمُ بها العائلات الأكثر بذخًا والأفحش ثراءً عبر القارات، كما أنها تستقطب السّياحَ من كافّة أرجاء العالم كلّ سنة، يأتونها للتمتع بطبيعتها الخلابة الساحرة.

وهناك.. في تلك المدينة الأسطورية، ذات النظام الملكي الوراثي؛ حيث يقع قصرُ الأمير "ألبيرت" الذي بني في القرن الثالث عشر، على قمّة صخرية مطلّة على أحد أجمل شواطئ العالم، وكذلك يقع "متحف علوم المحيطات" شبه الخرافيّ، الذي يسحر العقول والأبصار، بدمجه للفنون والعلوم البحرية من خلال قطع تاريخية مثيرة للانتباه وجديرة بالاهتمام والبحث والتأمّل.. وذلك إذا اعتبرناه أوّلَ غوّاصة في العالم، وبحيرة لسمك القرش، وحمام سباحة يعمل باللمس، مع احتوائه على أحواض سمك من الطّراز العالمي النّادر، بالإضافةِ إلى سفنٍ وهياكل عظيمة لحيوانات بحريّة فريدة من نوعها.

كما أنّها تعتبر واحدةً من مواقع التسوّق الأغلى والأكثر تميّزًا في العالم، حيث توجد جميع الماركات والعلامات التّجارية الفاخرة، بما في ذلك "هيرميس" و"لويس فيتون" و"ايف سان لوران".. وغيرها

هناك، في مدينة العشق والأحلام تلك.. تلك الجنّة الصغيرة على وجه الأرض، وتحديدًا في "نزل باريس مونت كارلو"، قضت أمل شهرَ عسلها مع آدم.

***

جلسا في شرفةِ مطعم مطلٍّ على البحر، كانت أمل ترتدي فستانًا أبيض طويلًا تتموّج أطرافه السفلية حتّى نهاية القدمين، طبعتْ عليه خيوطٌ رفيعة متفرّقة بألوان ربيعيّة تبعث على التفاؤل، اختارت له حقيبةَ يدٍ شفّافة تتوسّطها حقيبة أخرى صغيرة بلونٍ موحّد من تلك الألوان الرقيقة، وتركت شعرها المنسدلَ يحمي ظهرها وقد اشتدّ لمعانه تحت أشعة الشّمس الذهبية.

بينما اختار ماهر بنطلونًا من الجينز الأزرق، وقميصًا أبيض طُبع عليه شعار ماركة ألمانية، وقد سجلت بريق ساعة يده الأصليّةُ حضورَها.

لطالما كان ماهر شديدَ الأناقة، والاعتناءَ بمظهره، وكانت خياراته دائمًا ما تعجب أمل، وتزيده جاذبية.

في ذلك المطعم الفرنسي الذي تنبعث منه موسيقى ذاتُ إيقاع حركي هادئ، وبعد الانتهاء من تناول الغداء، اتّكأت أمل بيدها على سياج الشّرفة الملاصق لمقعدها والمؤثّث بأزهار الجوري التي اشتهرت بها المدينة، والمطلّ على البحر مباشرة.. وفي تلك اللحظة لمح ماهر خاتمَ الزّواج بأصبع أمل، وقد اشتدّ تلألؤه وتوهّجه في انعكاس مع شعاع الشمس.

شعرَ بوخزةِ قلق وغيرةٍ بداخله، خشي أن تكون أمل لا تزال مُغرمة بآدم، فهو لم يعتدْ رؤية خاتم زواجها يتصدّر أصبعها منذ أن الْتقاها لأوّل مرّة بالمستشفى منذ شهور.

تردّد قليلًا، ثمّ سألها:

– لماذا تُبقين على خاتم الزّواج بأصبعك؟

أجابته بثباتٍ وتركيز، وبنبرةٍ واثقة تمامًا:

– لقد ارْتديته اليوم بالذّات، وفي هذا المكان تحديدًا عن قصد.

ظلّ ينظر إليها مستفسرًا، في حين واصلت:

– في الواقع، لقد أمضيت شهرَ العسل مع آدم هنا في فندقٍ مجاور لهذا المطعم، وقد ألبسني هذا الخاتم ونحنُ نتناول العشاء على هذه الطاولة.

صمتتْ قليلًا وهي تحاولُ ابتلاع ذكرياتها بجرعةِ ماء، ثمّ أكملت:

– لقد كانت لهذا الخاتم معانٍ كبيرة يومها، ودلالاتٌ روحيّة عميقة، ووعودُ ارتباط أبدي، وبطلاقي منه انفصلتُ عنه جسديًّا وعاطفيًّا، لكن...

قطعَ ماهر حديثها:

– الحياة تجاربٌ نعيشها ونتعلّم منها، فلا تفقدي ثقتَك بالحبّ يا أمل؛ فالحبّ بريء من سوء اختياراتنا وخيباتنا.

قاطعته بثبات:

– لقد أسأتَ فهْمي يا ماهر؛ بل هذا ما قصدتُه.

خلعت أمل خاتمَ الزّواج من أصبعها بكلّ هدوء، ورمتْ به من السّياج ليقع في أعماق البحر، ويختفي عن الأنظار.

ثمّ التفتت إليه مبتسمةً وهي تقول:

– لقد صار خاتمُ الزّواج مع الأيام قطعةً ذهبية تسجن أصبعي وتخنق روحي، وآن الأوان للتحرر منها، ولتعلم أنّني احترامًا لذكرياتي ومشاعري

الصادقة فقط، اخترت هذا المكان توديعًا لنهاية ما قبل النّهاية، واحتفالًا ببداية ما يسبق البداية.

***

شعرَ ماهر بارتياح داخلي تزامن مع خفقان متسارع بين ضلوعه، أحسّ بأنّ الوقت مناسب جدًّا ليعلنَ لها عن حبّه، ورغم أنّه قدً خطّط لهذه اللحظة طويلًا لتكون رومانسيّة ومتميزة تليق بحبّه لها، إلّا أنّ لحظة الاعتراف باغتته.

هكذا هي الرّغبة في البوح، والاعتراف بالحبّ.. هي لحظات مُدهشة دائمًا ما تفاجئنا.. تباغتنا.. تُربكنا.

إنّ لحظات البوح تلك أشبه بفعل الحياة والموت؛ فإمّا أن تكون شجاعًا وتنطق فيولَد حبُّك، أو أن تكون جبانًا وتصمت فيموتَ بداخلك.

***

غادرا المطعمَ في اتجاه الشّاطئ بخطى هادئة متناسقة كعاشقين، خلعت أمل حذاءها، ومسكته بيدها، وهي تداعب بخطواتها حبّات الرّمال السّاخنة، مستمتعة بدفئها.

كان ماهر في الأثناء يراقبُ مزيجها السّاحر في صمت؛ مزيج من امرأة قوية، ناجحة، مسيطرة وفاعلة بإيجابيّة داخل المجتمع، تحسن رسم خطوطِ حدودها الحمراء، ومن فتاةٍ مجنونة إذا عشقت، مهووسة بالكتابة مثله إذا ألهمت، ومن طفلة مدلّلة تهوى الجدالَ والمشاكسة، ولعبةَ الكلمات ومتعة التسوّق... هكذا كان يراها.

وفي محاولةٍ منها لطرد تأمّلاته، واستجماع تركيزه؛ باغتته أمل مستفسرة:

- ما مفهوم الحبّ لديك يا ماهر؟

تنفّس ماهر بعمق الحبّ الذي يتأجّج بداخله باحثًا عن مخرجٍ لهذا السّؤال العميق في اعتقاده، ثمّ أجاب:

- الحبّ فلسفة كبيرة يا صديقتي.. تناولها فلاسفةٌ عظام على مرّ العصور، ولطالما كان محطَّ نزال فكريّ متضارب الطّرح في ما بينهم.. ففي الوقتِ الذي يرى فيلسوفُ اليونان القديمة أفلاطون أنّنا نحبّ لنحقّق الاكتمال، من خلال بحث كلّ شخص منّا عن نصفه الآخر، ينظر الفيلسوفُ الإنجليزي الحائز على جائزة نوبل "برتراند راسل" أنّ الحبّ هروبٌ من الوحدة والعزلة والخوف من العالم البارد، من خلال الاحتماء بحميميّة ودفء الحبّ- كمشاعر روحيّة وحسية- فيثري كياننا، ويجعل لوجودنا معنى.

في الأثناء، تواطأ حاجبا أمل مع نظراتها ليرتفعا مرّةً دهشةً وإعجابًا، وينكمِشَا مرّةً أخرى استفهامًا، ممّا شجّع ماهر على مواصلة إبهارها.

- أمّا أنا فأميلُ أكثر إلى رأي الفيلسوفة الفرنسية "سيمون دي بوفوار"، التي كانت في علاقة حبٍّ متبادَلَة مع الفيلسوف الوجودي "جون بول سارتر"، والتي ترى أنّ الحبّ يتيح لنا فرصة الوصول إلى أبعدَ من أنفسنا، والاندماج مع الشّخص الآخر الذي يملأ حياتنا بالمعاني والإيجابية، وهي تنبه إلى ضرورةِ عدم الاكتفاء بالحبّ الرومانسي التّقليدي البحْت، وتدعو إلى الحبّ الرومانسي- العقلاني، الذي يحمل بداخله "الصّداقة القوية" التي

يحاول كلّ منهما- من خلالها- تخطّي حدودَ ذاته واكتشاف الذّات الأخرى في اندماج إيجابيّ يحسّن من حياتهما والمحيطين بهم.. ويبقى الحب في النّهاية "مغامرةً" لا تخلو من الإثارة.. تخيفنا وتُفْرحنا في نفس الوقت.. إذْ قد نجد من خلاله معنى لوجودنا، وقد نفقدُ معنى وجودنا من خلاله أيضًا.

كانت أمل تستمع إليه بانتباه، إلى أنِ ابتسمت في خبثٍ، وقاطعته مشاكسة:

- وماذا عن "آرثر شوبنهاور" الذي يقول بأنّ الحبّ يخدعنا حتى نُنجب؟ إذْ يرى أنّ الحبّ مجرّد هالةٍ من الرومانسية المنمّقة الجميلة التي تخفي الرّغبات الجنسية والمتعة الحسية بداخلنا، وهذا الانْدماج العاطفي ينتهي عند ولادة الأطفال.. ليصبح الحبّ بذلك خدعةً من الطّبيعة، تثير غرائزَنا لتحقيق التكاثر، وتنطفئ تلك الشّعلة الغرامية عند بلوغ الهدف.

انفجرَ ماهر ضاحكًا وقد فهِمَ ما ترمي إليه؛ إنّها مشاكسة، وها قد بدأت لعبتَها المفضّلة.

أجابها وهو يفتحُ أمامها أبواب النّقاش على مصراعيها:

- أنا شخصٌ متفائل يا صديقتي، ولا أتأثّر بالمتشائمين أمثال "آرثر شوبنهاور" بفلسفته العدميّة، ولا بالكتّاب المكتئبين أمثال "فيودور دوستويفسكي".

توقّف عن الحديث فجأة، وقد وقفَا على حافّة صخرةٍ كبيرة، ترطمها الأمواج بعنف- كان قد استدرجها للسّير نحوها أثناءَ تبادلهما معاني الحبّ-

ونظر في عسلِ عينيها اللّامعتين مواصلًا بنبرة صادقةٍ مملوءة بالمشاعر المكبوتة داخله- والتي غلبه جموحُها- مباغتًا إيّاها هذه المرّة قائلًا:

- كما قلتُ لك في البداية، للحبّ معانٍ عميقة، وبكلّ تلك المعاني.. أحبُّك يا أمل.

أحبّك بكلّ لغات العالم، والكتّاب، والشّعراء، والفلاسفة.

أحبّك بطريقتي، ولغتي، وجنوني، وعقلانيتي.

***

احتفلتْ شمسُ "موناكو".. وكانت شاهدةً على هذه اللّحظات الرومانسية بقرصِها البرتقالي، وهي تغادر الأفقَ في خجلٍ، وتختفي وراء البحر.

***

الفصلُ الثّامن عشر

آدم



ظلّت كرستينا تقود السّيارة لساعةٍ من الزمن بسرعةٍ جنونية أثارت قلقَ آدم بعض الشّيء، قبل أن تهدأ من سرعتها، وتعرُج إلى طريقٍ جبليّ غاية في الرّوعة والجمال.

سألها آدم مازحًا إنْ كانت قد ضلّت الطّريق أو تنوي اختطافه! بقيت كرستينا صامتةً، تائهة بخيالها، أضافَ آدم:

– لقد استقبلتني منذُ قليل في غاية السّعادة، والآن أراك تفكّرين، وتبدو عليك علاماتُ الحزن والشّرود، ما الذي جرى؟ هل من مشكلة؟!

أجابته بكتلةٍ من الأحاسيس المرتبكة:

– في الواقع نحنُ أصدقاء منذ مدّةٍ قصيرة، ولكنّ علاقتنا توطّدت بسرعة، ومع ذلك فأنا لا أعلمُ عنك الكثير.

ثمّ سكتت فجأة، واعتذرت منه، فهي لم تقصدْ قول تلك الكلمات، وكأنّها خرجت رغمًا عن إرادتها.

هي لا تهتمّ لأمره كثيرًا، هي فقط أعجبتْ به، وكانت بينهما لحظاتٌ ممتعة، ليس إلّا، فلماذا تبحث إذًا عن خصوصيّات حياته؟ ولماذا تتحرّق فضولًا لمعرفة تفاصيلها؟

أحسّت بمشاعر متناقضةٍ تجتاحها، وتشتّت تفكيرها، ودار حوار في داخلها.

إنّه صفقة عملٍ بالنسبة لها ليس أكثر... بل إنّه يعجبها كثيرًا، ويأسرها كلّما اقتربت منه.

لطالما كانت تلك الفتاةُ العمليّة النّاجحة التي يقال عنها دائمًا مغرورة ومتكبّرة، ثمّ تذكّرت سهرتهما التي أمضياها معًا في "اسطنبول" حتّى مطلع الفجر، ليلة أسَرَها بجاذبيته ولكنَتِه المغْرية، حيث باتت راكعةً أمامه كمتعبّدة في حضرة الآلهة تقدّم قرابين اللذّة في خشوع واستسلام.

تتفنّن في تقديم فرائض الوَلاء والرّغبة؛ طمعًا في إرضائه وإيقاعه في شباكها بشتّى الطرق.

تبًّا لهذه المشاعر، تُرى هل أحبّتْه من أوّلِ نظرة كما يُقال؟ كلّا مستحيل، هي لا تؤمِن بهذه الخرافات.

لاحظَ آدم حيرتَها وقلقَها، كان يتأمّلها في صمت، ويتأمّل جَمالها الذي ينافس الطبيعة الجبليّة آنذاك.

كانا قد وصَلَا إلى مكانٍ هادئ مرتفع يجدُ فيه المرء ذاته، مطلّ على الزّهور البرية والجبال الخضراء، مكان تداعب فيه نسماتُ الهواء العليل الرّوحَ، وتبشّرها بمزيد من الاسترخاء.

لعلّ آدم في تلك اللّحظة قد قرأ أفكارها، وشعر بما يختلج بداخلها إذْ أجابها:

– تفاصيلُ حياتي غير مهمّة يا كرستينا، المهمّ بالنسبة لي، هو أنْ تكون علاقتنا العمليّة مستقرّة وشراكتنا ناجحة، أنا أحتاجُ إلى جمعِ المال بأقصى

سرعة لأتمكّن من العودة إلى"ألمانيا"، أمّا أنت فلا أنكرُ أنّك جميلةٌ ومثيرة للغاية، وأستمتع كثيرًا بقُربك، لكنّ قلبي مشغولٌ بأخرى، والمرأة في حياتي أصبحتْ محطّة أستريح فيها قبلَ مواصلة السّفر لاستعادة حبيبتي، وأنتِ محطّة جميلة من تلك المحطّات.

***

امتلأت عينا كرستينا بالدّموع رغمًا عنها، وتسارعت أنفاسُها، وكأنّها تحتضر جرّاء طعنات كلماته الأخيرة. أوقفت السّيارة فجأة، وهمست له بأنْ يحضنها، وأنّها لا تريد سماعَ المزيد.. فقط هي تريده.. تريدُ أن تشعر بقربه.

هي تشعرُ بالفراغ، وتريده أنْ يملأها في هدوء....

نظرَ إلى صرخات أنوثتها المغْرية وهي تناديه لقطفِ ثمارها، وركّز على شفتيْها المكتنِزَتين كحبّة الفراولة المنقَسِمة إلى شطريْن، وهي تناديه لتذوّقها.

تدفّقت الدّماءُ الحارّة في عروقه.. وشعرَ بالرّغبة والإثارة.. لقد أفاقت هذه الفرسُ الإيطالية الشّرسة غرائزَه، وعليه أن يُسْكتَ صهيلها.

خيّم صمتٌ طويل بينهما لا يسمع خلاله سوى صوتِ العصافير والطيور.. مع الإصغاء لصوت الطّبيعة الممتلئة، هذا الإحساس بالعمقِ داخل الطّبيعة البشرية، لم يقطعه سوى رنين هاتفِ كرستينا المتواصل، والذي تجاهلته طويلًا- حتى الانتهاء- قبل الاستئذان من آدم، والابتعاد قليلًا للرّد على المكالمة.

بعدَ عودتها إلى السّيارة بدتْ على وجهها علاماتُ الانزعاج، حاول آدم الاقترابَ منها ثانية، لكنّها صدّته بلطف، وانطلقتْ بالسّيارة تقودها بسرعةٍ جنونية غير محسوبة العواقب.

بعد ساعةٍ ونصف تقريبًا، وقفت السّيارة أمام فيلّا متوسّطة الحجم، طرازها المعماري كلاسيكي، شيّد سقفُها العالي من القرميد، ونُحتت واجهتُها بزخرفة من الرّخام المتعدّدة الألوان، محصنة بسور حجري عالٍ، وباب حديديّ كبير، كانت تنبعث منها أضواء ساحرة، وفرقعات تدوّي في السّماء فتحيل ظلامَها إلى أنوار قوس قزح.

***

تركتْ كرستينا حقيبةَ سفر آدم في السّيارة، وتقدّمَا سويًّا باتّجاه الباب، دخلا قاعة الاستقبال الكبيرة حيث يتواجد هناك عددٌ لا بأس به من المدعوّين، وكان في استقبالهم رجلٌ يرتدي بدلة سوداء أنيقة وإلى جانبه ثلاثة آخرون، سلّم على كرستينا، وبعد أنْ رمقها بنظرةٍ خفيفة وحادّة، طلب منها التفضل بالدّخول والاستعداد لأنّ العرضَ سيبدأ بعد قليل. سألها آدم عن هذا العرض فأخبرتْه باقتضابٍ أنّه يقصد الاحتفال.

***

كانت القاعةُ تعجّ بفساتين السّهرات الراقية على اختلاف تصاميمها، وقد بدت السعادة على مرتديها، وهنّ يتبختَرْن كأنهنّ في عرضٍ للأزياء.. وكان الحضورُ يقفون في مجموعات صغيرة متفرقة، تنبعثُ منهم بعضُ الضّحكات الصاخبة وسطَ أنغام الموسيقى الراقصة بين الحين والآخر.

مسك آدم بمشروبٍ في يده كانت قد أحضرتْه له كريستينا، وبيدِه الأخرى عانق كتفَها وهو يهمس لها ببعضِ الكلمات: "كنتِ رائعةً منذ قليل على الطّريق الجبلية، أنوثتُك قاتلةٌ يا كريستَينا" ثمّ ضمّها إليه في حركةٍ تلقائية سريعة.

تعمّدت كرستينا الإفلاتَ منه، وسحبه من يده إلى غرفةٍ بها مكتبةٌ صمّمت أدراجُها بعناية، صفّت عليها أعدادٌ كثيرة من الكتب الهامّة المتنوّعة، نظرتْ إليه بعينيْن حزينين، وبصوت مختنق جاهدت في إخفائه قالت:

- أنا آسفة، لقد أردتُ إعطاءك فرصةً للنّجاة بعد أن أحسست بمشاعر حقيقيّة وصادقة اتجاهك، لكنّ ردودك خذلتني.. فأنتَ بالفعل شخصٌ أنانيّ لا تفكّر سوى في تحقيقِ مصالحك، أنتَ شخص مستعدّ للتّنازل عنْ أيّ مبدأ في سبيل بلوغ أهدافك.. أنا آسفة لنفسي كثيرًا لأنّني تعلّقت بك، ولأنّ رحيلَك سيؤلمها ويؤلمني.

ظلّ آدم ينظرُ إليها مستغربًا مبْهمًا لا يفهم منها شيئًا، وقبل أنْ يستفسر عنْ مغزى كلامهما وسبب أسفها، دخلَ الرجلُ الذي استقبلهم لحظةَ وصولهم، ومعه ثلاثة آخرون.

وقفَ اثنان منهم إلى جانب الباب، اتّخذ الثّالث جانبًا محاذيًا لهم، في حين تقدّم هو منهم بكلّ ثقة وجديّة، وبادر آدم بالحديث:

- أنا السيد "سيمون" رئيس قسم شركة تحرّيات ألمانية، أعمل لصالح السّيدة أمل.

ثمّ وبكلّ ثقة واصل:

– أنتَ مطالب لدى العدالةِ الألمانية يا سيّد آدم، بحكم محكمة صدرَ في حقّك بالنّفاذ منذ أربعة شهور وثمانية أيّام، وقد توصّلنا من خلال تحرّياتنا إلى أنّك ستتواجد بإيطاليا في تاريخ اليوم تحديدًا. وبما أن أمرَ القبض عليك قد صدرَ من محكمةٍ ألمانية، فيعتبر بذلك ساري المفعول في جميع دول الاتحاد الأوروبي، وبناءً على طلب من السّيدة أمل، قمتُ أنا بدور الوسيط بين الشّرطة الألمانية والشرطة الإيطالية لتنسيق عمليّة دخولك إلى مطار روما، واعتقالك هنا في فيلا السّيدة أمل.

اتّسعت عينا آدم، وأحسّ بصدمة لم تكنْ في الحسبان، بدأ يتلفّت يمنة ويسرة وكأنّه يبحث عن شيء ما، أو عن مخرج للهروب بطريقةٍ ما، ثمّ نظر إلى كرستينا نظرةً غاضبة متوتّرة، وقال صارخًا:

– الآن فهمتُ لعبتك القذرة التي لعبتِها منذ البداية أيّتها الحقيرة، وأنا الذي اعتقدتُ أنّ مشاعرك صادقة، وأعجبت بك!

قطعتْ كرستينا حديثه ببرود:

– أنا لم أكنْ ألعب يا سيّد آدم، أنا كنت في مهمّةٍ رسميّة كلّفت بها وكان عليّ إنجازها.

تدخّل السيد سيمون شارحًا:

– كرستينا هي زميلة لنا بشركةِ التّحريات الخاصّة التّابعة لفرع "روما" تحرّكنا وفقًا لخطّة مدروسة. نقوم نحنُ باستدراجك إلى روما على أنْ تسمح

شرطة المطار بتسهيل عبورك ودخول الأراضي الإيطالية ليتمّ القبض عليك هنا تحديدًا.

ثمّ واصل:

– فوْر وصولك، وخلال عملية تفتيشك بالمطار، تمّ زرع ميكروفونًا في زرّ قميصك وشريحة تتبع في هاتفك، لنتمكّن من مرافقتك لحظةً بلحظة، والقبض عليك في أيّ مكانٍ آخر في حال فشل هذه الخطّة وهروبك.

كانت هذه المعلوماتُ تخترق رأس آدم كصواريخَ عنقودية، تشرخ كلّ كلمة منها جزءًا من عقله، كان يشعر وكأنّه يقوم بدورٍ داخلَ فيلم سينمائي، ولكنّه على ما يبدو– وللأسف– واقعي.

تزاحمتِ الأسئلة في ذهنه، وهو يكاد لا يصدّق ما يرى، وما يسمع، ثمّ خاطبَ السيد سيمون في سخرية مريرة.

– وماذا عن دمج الشّركتين الإيطالية والتركية؟

– الشّركة الإيطالية هي شركةٌ وهمية أو الأحرى نحنُ مَن صنعها، وجودها القانوني كان لفترةٍ محددة وانتهى بإعلان إفلاسها منذُ أسبوعين.

ثمّ أكمل يقول:

– رئيس مجلس الشركة التركية كان على علم بالموضوع حيث وردَ بالتّقرير أنّ كرستينا عقدت اجتماعًا مغلقًا معه لمدّة ساعة تقريبًا؛ أطلعته خلالَها على الوثائق الرّسمية التي تثبت إدانتك.

كما أنّ كرستينا حملتْ له معها عروضًا حقيقيّة لشركات متعدّدة الجنسيات، وكان العرض الأوّل الذي حصلت على التّرقية بفضله واحدًا من تلك العروض.

سأل آدم وقد بدأ العرقُ يتصبّب من جبينه:

– كيف عرفتم مكانَ عملي وإقامتي بتركيا؟

– من خلال رسائلك الإلكترونية التي بعثتَ بها إلى أصدقائك تطلبُ منهم التعاون مع الشركة التركية التي تعمل بها.

نظرَ آدم إلى كرستينا نظرةً مليئة بالخذلانِ وخيبة الأمل، بعد كلّ اللّحظات الحميميّة التي جمعتهما وقال:

– لقد صدقتِ.. إنّها سهرة مشتعلة، ولكنّها مشتعلة بالصّدمات، وهي فعلًا سهرة لا تنسى.

ثمّ أضاف مستهزئًا هذه المرّة:

– تبدون كعصابةٍ دولية تتحرّك بدقّة، وتعمل باحترافية، عصابة بذلتِ الكثير من الجهد والوقت من أجل هذه اللّحظة التاريخية!

هل خسرت أمل كلّ هذه المبالغ ودفعتْ بسخاءٍ فقط من أجل هذا؟ يا لها من مجنونة!

جاءه الرّد من الخلفِ عبر ضحكةٍ متشفّية ساخرة.

التفتَ على الفور ليجد أمل تقفُ وراءه، على بُعْد خطوات منه كبدرٍ في ليلة اكتماله بجمالها الملائكي الذي يسحر القلوب، كانت ترتدي فستانًا أبيضَ

مرصّعًا "بالشفاروفسكي" الأصلي الذي كان يخطف لمعانه الأبصار، نظر إليها وكأنّه يراها لأوّل مرّةٍ وكأنّه يقع في حبّها لأوّل مرّة.

وما أنْ تقدّم خطوة باتّجاهها، حتى اعترض طريقَه ذلك الشّرطي الإيطالي، الذي كان يتابع الأحداث ويراقب تحركاته في صمت، وفي حركة سريعة مسكَ بذراعيه وكبّلهما، ثمّ تقدّم الشرطيّان الآخران ومسك كلّ منهما بذراعيه، أحدهما بيمينه والآخر بيساره.

نظرتْ إليه أمل في تشفٍّ، وقالت:

– أنا لم أدفع أيّة مبالغ، بل أنت الذي دفعت. لقد اختلستَ أموالي في"ألمانيا"، ومنذ شهر حوّلت رصيدك إلى الشّركة الإيطالية التابعة لشركة التّحريات، وتعتبر تلك الأموال ملكًا لهم نظيرَ خدماتهم وتقديمك للعدالة.. أمّا أنت فستسْجن لقتلك ابنتك "أناييس".. والتعدّي بوحشية على زوجتك.. واختلاس أموالها، ولو كانت الخيانة الزوجية تهمة أو جريمة يعاقب عليها القانونُ الأوربي لقضيت بقية حياتك مكبّلًا بالأغلال بين السجون.

كان آدم في الأثناء يتلوّى بجسده متمرّدًا يحاول الاقتراب منها، ولكن دون جدوى.

صرخ متسائلًا:

– ابنتي.. ماتت!؟

أجابت:

- نعمْ ابنتك، لقد نزفتُ ليلتها وماتتْ وأنا حاملٌ بها في الشّهر الرابع، أنت قاتل، ولا تستحقّ العفو أو الصفح.. وكما قلتُ لك سابقًا، طبعُك خائن، وما بالطبع لا يتغيّر، يمكنك الآن الاستمتاع بسهرتك "الخاصّة جدًّا"، ولكنْ وحيدًا وراء القضبان، أمّا حياتي التي هدّدت بإفسادها فيسرني إخبارُك بأنّني حصلت على حكم بالطّلاق منك غيابيًّا منذ شهور، واليوم أنتَ ضيفُ شرف في حفلة انتقامي منك، وخطوبتي من ماهر على شرف اعتقالك.

قالت تلك الكلمات ببرودٍ وقسوة لم يعهدْهما فيها من قبل، لقد أصبحت تنظرُ إليه بعين الماضي لا باعتمالات الحاضر. وتأكّد لحظتَها فقط من موتِ مشاعرها اتجاهه إلى الأبد، وأن الفتاة التي أحبته وعشقته، وظلّت مخلصةً وفيّة له لسنواتٍ طويلة في قصّة أغرب من الخيال؛ قد ماتتْ فعلصا في المستشفى ليلتها.

لقد ماتت أنابيس حبيبته داخل روحها، تمامًا كما ماتت أنابيس ابنتُه داخل جسدها.. وولدت أمل أخرى.

غادرت أمل بخطى ثابتة هادئة وهي تداعبُ ذيل فستانها الأبيض بدلالٍ ورشاقة باتجاه القاعة الرئيسية، حيث تعالتْ صيحاتُ المدعوّين ترحيبًا بحضورها، وسحب الشرطيّان آدم وهو يجرّ ساقيه جرًّا من وقع الصدمة.

التفتَ في نظرةٍ عابرة وهو يعبر القاعةَ الرئيسية مكبّلًا، فرأى أمل تعانق ماهر، لقد وقفا كخطيبين وسط حلقةٍ نارية، تكوّنت من الشّموع المشتعلة

في شكل قلبٍ كبير كان يحيط بهما، ولحظة تقبيل ماهر لجبين أمل ويديها؛ انفجرت الموسيقى، وتعالت صيحات المدعوّين، وبدأت مراسم الاحتفال والتقاط الصور التذكارية.

اختفى بعدها آدم والدّموعُ تنهمر، لا يعلم إنْ كانت دموعَ الغيرة والحرقة والغصة التي تعصر بقلبه، أم الغباء والطّمع اللّذيْن أصاباه وأوديا به، أم هي دموع الشّعور بذنب ابنته "أناييس" التي قتلت على يديه!!؟ ذلك الاسم الذي تهتزّ له وجدانه كلّما ذُكر أمامه.

***

في غرفة المكتب، مازال السيد سيمون يوبّخ كرستينا على تعلّقها بآدم وخروجها عن حدود المهمّة، وأخبرها أنّ ابتعادها بالسيارة بين الجبال وتفكيرها آنذاك في إعطائه فرصة للهرب معها لو أنه بادلها نفسَ المشاعر؛ تعتبر غلطةً لا تُغتفر، كانت ستؤدّي إلى فشل المهمّة لوْلا أنّه أنقذ الموقف بمهاتفتها وأمرها بالتحرّك إلى الفيلا على الفور، وأخبرها بأنّ سيارتها مراقَبَة من قبل الشرطة الإيطالية.

اعتذرتْ منه كرستينا، ثمّ أجهشت بالبكاء قائلة: "مازلت لا أعرفُ إن كنت قد وقعتُ في حبّه من أوّل نظرة أم لا!"، ثمّ غادرت المكان على الفور.

همسَ ماهر في أذن أمل وهو يراقصها:

- بماذا تشعرين الآن يا حبيبتي؟

أجابته:

- أشعرُ أنّ روح ابنتي قد رقدتْ بسلام.

ثمّ نظرت إلى نيران الشّموع الملتهبة المحيطة بهم، وواصلت:

وأنّني انتقمتُ لعشق "كافر" وسط فوّهة بركان..

وبغمزةٍ ساحرة من عينيها الواثقتين اللّامعتين أضافت:

بركان كاتبٍ روائي "مؤمن" بتراتيل الحبّ.

تمّت

كلمة الختام للمؤلفة

أحيانًا نحتاج إلى الكتابة، فيلعب القلمُ دورَ المتنفّس، كريشة رسام منعتقة في لحظة إبداع.. لحظة جنون.. يعبّر القلم عن اعتمالاتنا ودواخلنا، وينتشي بمكنوناتنا.

لكن...

ماذا لو كانت بداخلنا كتلةٌ من الجراح المتعفّنة، أو ورمٌ خبيث تحاشينا الاقتراب منه لسنوات، حينها فقط تبدأ المواجهة، ويصبح فعلُ الكتابة أشبه بمحاولة انتحار، يتحوّل فيها القلم إلى مشرط طبيبٍ جرّاح، يتغلغل في أعماق النّفس في محاولة يائسة لإزالة الشّوائب المحيطة بها لاستئصال ذلك الورم.

عن أرقِ الوجدِ والوجع تحدّثت.. وعن رحلة ولادةٍ واحتضارٍ كَتبت...

كان هذا ما كتبتُه وسط أنقاض تجربة فقْد.. تحت ظلال حالةِ حبّ.. ذات رواية أمل..

ويبقى السّؤال: لماذا كتبت؟

لماذا نكتب؟ وما تفسير فعل الكتابة؟

هل لأنّ الكتابة متنفّس؟ انعتاقٌ لمعانٍ تعتمل بداخلنا فجّرتها لعبةُ الحروف؟

هل الكتابة جريمةُ قتل؟ قتل أشخاص كانوا يحيون بداخلنا، فأصبحت

ولادة الرّواية مقبرةً لهم. مقبرة لكائنات حبريّة محنّطة بمفعول الكلمات!؟

أم أنّ الكتابة تخليد لأرواح سكنتنا، وسكنت إلينا لزمنٍ ثمّ رحلت، لتصبح الرّواية متحفًا تؤثثه ذكراهم بفعل الفواصل، والنّقاط المتتاليةٍ، ونقاط الاستفهام والتعجّب، ومعاني ما بين السطور؟

هل الكتابة ثورةُ صدقٍ، تتجلّى فيها النّفس المظلمة، وتتحرّر بعد قمعٍ إرادي واستبداد أدبي؟

هل الكتابة خيانة لمناطق محظورةٍ بدواخلنا، ومسكوت عنها؛ فضحتها الأبجديات والقواميس اللّغوية بجرّة قلم!؟

أم أنّ الكتابة حالةٌ من الجنون المؤقّت، تلبس فيها شياطينُ المعاني روحَ الكاتب وتقضّ مضجعه، لا تنفكّ طلاسمها سوى بتعويذةٍ أدبية مشفّرة.. لحظة يلقّح الكاتب بحبره مساحاتِ الصّفحات البيضاء، ويغتصبُ براءتها!؟